ناجح المعموري

التوراة السياسيّ

السلطة اليهوديّة : أنساقها ووظائفها



الأهلية

ناجح المعموري

التوراة السياسي

السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها





الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

التوراة السياسي
السلطة اليهوديّة: أنساقها ووظائفها
ناجح المعموري

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٢

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

®

الصفّ الضوئي :
ياقوت للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩

الإهداء

إلى أخي العزيز الشاعر شكر حاجم الصالحي

مع اعتزازي بالوفاء الذي غمرتني به

في أيامنا الصعبة

ن.م

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـة

الاستهلال

إن دراســـتي للأسفار التوراتية ومحاولة الكشف عن الجانب السياسي فيها يمثل بالنســـب لي مشـــروعاً معرفياً مهماً وسيظل مستقبلياً. والمجال السياسي، الذي تعنيه دراستي متسع جداً،ويبدأ في النصوص العراقية / والجزرية الأخرى وذوباها في الأسفار التوراتـــية. لأن القصـــدية، واضـــحة في تذويب العناصر الدينية / والآلهة والعقائد / والطقوس. من أجل الشطب على الشخصية الجزرية، التي أنتجت هذا الكم الهائل من النصـــوص، ورسخت الكثير من العقائد، ودفعت بها إلى الديانات والحضارات الكثيرة في الشرق والعالم، لأن البنية الذهنية الجزرية وعبر تشكلاتها البنيوية العديدة، ما كانت في يـــوم من الأيام منغلقة وإنما منفتحة على الحضارات و الجهد الديني، وتحاورت معه، أعطـــته، وأخـــذت منه، لكن لا يمكن لأي باحث ودارس أن يتناسى الجهد المؤسِّس والجذور الأولى.

لكننا لاحظنا العمدية التوراتية في التلاعب بالتراث المصري / السوري / العراقي وإعـــادة صياغته، وبما يوحي بخاصيته وقطيعته مع الأصول في الشرق. ومع كل الذي

مارســه الكهان ورجال الدين / والكتبة من محاولات طمس للمعالم والأصول، ظلت النصوص تومئ لمنبعها وتؤشر إلى المكان الذي صاغها وأسسها.

ولهــذا، طــال انشــغالي بالنصــوص التوراتية، وسيظل أيضاً، على الرغم من المواجهــات السلفية التي أثارت عدداً من الاتهامات ضدي، أثناء تقديم محاضراتي عن المشــروع الــتوراتي. المشــروع الذي تبلور في عملي الدراسي، بعد الاهتمام العميق بالحضارة العراقية والنصوص الأسطورية، وحصراً مشروعي الثقافي / المعرفي "المسكوت عــنه في ملحمة جلجامش" وكان وسيظل اهتمامي بالتوراة اهتماماً لا يتجاوز كونها مجموعــة مــن النصــوص الأدبية الأسطورية، لا تختلف عن غيرها من النصوص التي خضعت للدراسة والبحث، بعيداً، وبعيداً، عن كونها مقدسة.

وأنا مسرور لإكمالي هذا الكتاب تنفيذاً لالتزام مع الدار الأهلية للطباعة والنشر ومديرها الصديق "أحمد أبو الطوق".

وفي الختام، أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأصدقاء الذين ساهموا بشكل وبآخر في إنجــاز هذا المشروع وتوفير المصادر لي، ومتابعتي أثناء التفرغ وتذليل الصعوبات التي واجهتني أثناء العمل.

ناجح المعموري

العراق / بابل / اتحاد الأدباء والكتاب

اكتشـــفنا الـــيوم وتعرفنا على شعوب الألف الثالث ق.م وأهمها: شعوب ما بين النهرين، المصريون، الحثيون: تعرفنا على أبهة تاريخهم، على تفاصـــيل حـــياتهم اليومية، على أعمال وروائع حرفييهم وفنانيهم وعلى الآداب الضـــخمة التي أنتجها كل شعب منهم: بنو إسرائيل يعتبرون في مرتـــبة أدنى مـــنهم. وهم في نظر التاريخ أحد "الشعوب" القديمة. سيظل المؤمـــنون يعتـــبرون التوراة كتاباً مقدساً، ينبوع الحقيقة والحياة الدينية، ولكن في نظر التاريخ وفي نظر الحقيقة المجردة أصبحت التوراة عبارة عن ديـــوان، عبارة عن نصوص مختارة من الأدب الديني أعدها بنو إسرائيل خلال ألف سنة من تاريخهم.

العالم الآثاري جان بوتيرو

صار عصرنا عصر البحث عن الجذور

إدوار سعيـــــد

البــــاب الأول

الرثاء التوراتي

١. الأدب في العراق القديم

اخترعت الكتابة في مدينة "أوروك" وبها اعتمد العراقيون القدماء على التدوين، وذلـــك لأهميـــته وحيويته بسبب صلته مع المجالات الأساسية في الحياة، وكانت تلك تدوينات أولية / بسيطة. وبعدما، تطورت الكتابة من علامات صورية إلى لغة معروفة، بـــادر العراقي إلى تدوين أناشيده وتراتيله الدينية، وحكاياته وأساطيره، مع الكثير من الطقـــوس والعقـــائد. وبذلك غادر مرحلة المروّيات / الشفاهيات وإن لم يتخل عنها تماماً، لأن الشفاهية ظلت ذات دور متميز في الحياة بكل مجالاتها. ودخل العراق القديم مجـــال الحضارة الحقيقي. والأساس المهم لكل تطور في الحياة وبذلك حاز العراق على الوسيلة المهمة التي دوّنت بها الكثير من النصوص الدينية.

وما يهمنا هنا، تقديم إشارات سريعة عن الأدب العراقي القديم ومميزاته الخاصة، والـــتي امـــتدت ومارست تأثيراً لها في تاريخ الأدب / الثقافة في منطقة الشرق الأدنى القـــديم. وقد اعتبرت الدراسات والبحوث الكثيرة، الأدب في العراق القديم من أقدم الآداب في الشرق.

وهـــذا مـــا أجمع عليه الباحثون. واعتبرته الدراسات، أول المحاولات في التاريخ الإنساني، من أجل التعبير عن الحياة، وقيمتها، ومعانيها، بأسلوب الفن الأدبي. ولكي لا يكـــون هذا الرأي من قبيل إرسال القول على عواهنه، ينبغي عدم الاكتفاء بمجرد

الاستشهاد بإجماع الباحثين، بل الإشارة – أيضاً – على ذلك بأسلوب البحث العلمي. قال الأستاذ طه باقر: وإذا قارنا هذا الأدب مع غيره من آداب الشرق الأدنى القديم، فسيكون أكثرها قدماً وتأثيراً. وهو يسبق بزمن طويل غيره من الآداب المجاورة. وأشارت الدراسات المعنية بالآداب في الشرق وتاريخ حضارته، إلى واحدة من أهم خاصيات الأدب العراقي القديم، وهو إبقاء النصوص ثابتة، وبعيدة عن التحوير أو الحذف والإضافة، أثناء تدوينها في مرحلة الانتقال من الشفاهيات إلى الكتابة. واستعانة بسيطة بالدراسات المقارنة، سنتوصل إلى ما يؤكد العمق الزمني لهذا الأدب، وهيمنته من خلال الامتداد والتأثير. بحيث كانت الحضارات الشرقية منفتحة أمام قوة الأدب العراقي، وأهمية المواضيع التي اهتم بها، وهي – كما نعرف – دينية وسياسية وانتقلت خصائص هذا الأدب إلى الآداب الأخرى. وكادت تكون نصوصاً للمرحلة مع طغيان شكلي متماثل مع النصوص العراقية القديمة، مع تمركز لمواضيع كثيرة تناولها الأدب العراقي القديم وهي، الأساطير الخاصة بالتكوين والأصول / والأصول الخاصة بأنساب الآلهة / البطولات والملاحم الخاصة بالملوك وأشباه الآلهة / نصوص الطوفان وأساطير ما بعد الموت / أساطير الخصب / الأدب الخاص بالحكمة / الحب والجنس / التراتيل والأناشيد الدينية / نصوص التعاويذ / والمراثي.

وما يهمنا في هذا الرأي الموجز هو أدب المراثي، الذي كان جنساً خاصاً في الأدب القديم، وتميزت به النصوص الشعرية. ويكاد يكون العراق أول بلدان الشرق القديم معرفة لهذا النمط الكتابي وإنتاجاً له ولم يسبقه أحد من قبل. ولذا فإن المراثي الخاصة بالمدن العراقية القديمة أور / أكد / نفر وبابل من أهم المراثي التي عرفها الأدب العراقي القديم. ولا يمكن إغفالها أبداً، حتى عندما يكون الاهتمام – مثلاً – بالأدب القديم. وبإمكاننا القول: إن المراثي العراقية سبقت المراثي التوراتية بأكثر من ألف سنة واختلفت عنها كثيراً بعدد من العناصر الفنية والمكونات التاريخية، وأكدت هذه

الممـــيزات فـــرادة هـــذا النوع في العراق وريادته أيضاً. وأشار د. نأمل حنون إلى أن نصوص المراثي السومرية توزعت على أربع مجموعات هي(*):

أ) المراثي التاريخية: وتوجد من هذه المجموعة ستة نصوص حالياً وهي:

١. مرثية أريدو: ٢٨٠ سطراً. ٢. مرثية أوروك: ٤٠٠ سطراً

٣. مرثية تخريب أور: ٤٣٥ سطراً ٤. مرثية تخريب مزارلكش: ١٠٥ سطراً.

٥. مرثية سومر وأور: ٥٢٦ سطراً. ٦.مرثية نفر: ٣٢٤ سطراً.

ب) المراثي الشعائرية:

هـــناك مرثيتان يمكن اعتبارهما من المراثي الشعائرية وهما مرثية بالاك (Balag) ومرثية إيرشيما (Ershemma).

جـــ) مرثية الإله المختفي (خصوصاً دوموزي).

د) المراثي الشخصية



شكل (١): ختم عن صراع الأبطال مع الحيوانات

(*) د. نـــأمل حـــنون، الكشاف المختصر للنصوص الأدبية العراقية القديمة، النصوص السومرية، المشهد الثقافي الجديـــد، إعداد: عبدالإله جعفر، عبدالهادي الفرطوسي، صباح عنوز، محمد زياد إبراهيم، مكتب الضياء، النجف،..، ص٣٦.

وذكر د. نائل حنون مرثيتين ضمن النصوص الأدبية المتنوعة هما:

١. مرثية / مناحة على موت أور – نمو: ١١٢ سطراً.

٢. مرثية / مناحة على موت ناورتم: ٦٥ سطراً.

ويلاحظ بأن النصوص السومرية / المراثي قد تمركزت حول خراب المدن العراقية القديمة، باعتبارها من المراكز الحضارية المهمة. أما في مجال المراثي الفردية، فإنها كانت ضمن النصوص الأدبية السومرية، كما هو في مرثيتي أور – نمو / وناورتم. وكذلك مرثية إنكيدو، ضمن ملحمة جلجامش. و سنحاول الإشارة لهذه المرثية، الخاصة بالأفراد، لأنها تعني مغادرة التمركز حول المدن والانتقال نحو مجال آخر، وهو مجال الإفراد الاعتياديين، وبرز هذا التحول في المرحلة الأكدية. وبالإمكان الإشارة إلى مرثية إنكيدو واعتمادها نمطاً فريداً ومتميزاً.

وصارت هذه المرثية نموذجاً في الأدب القديم، والحديث وتبدى تأثيرها – مع الملحمة – واضحاً في الكثير من النصوص وخصوصاً الملحمية.

إنها رثائية مشحونة بالحزن والمرارة على وفاة إنكيدو. وبالإمكان اعتبارها نعيٌ، تفرد بالقوة والدقة والإيجاز. كذلك تميزها بالذكاء في تجسيد روحية العراقي وعناصره. وتثير هذه المرثية عدداً من الملاحظات، أهمها، الإحساس بالفجيعة وقوة الخسارة، والصحوة على الموت، باعتباره قدراً ملاحقاً للإنسان،وبسبب شدة الصدمة – التي واجهها جلجامش – تدفقت مشاعر حزنه وتفجعه، ووفرت فرصة لقراءة الموقف الاجتماعي في العلاقات اليومية. وكذلك المواقف المشتركة بين السلطة السياسية / الملك وبين المواطن الفرد. ومعروف بأن جلجامش كان ملكاً في أوروك وجمعته صداقة مع إنكيدو، والتفاصيل الأخرى معروفة للجميع. وعندما فوجئ الملك / جلجامش

بـــالموت متسللاً لصديقه، أصيب بالصدمة وعرف لأول مرة حجم الخسارة بالفقدان، إنها فجيعة الموت. ويضيء نص المرثية موقف العراقي القديم من الغياب / الموت.

من أجل "إنكيدو" خلي، وصاحبي، أبكي

وأنوح نواح الثكلى

إنه الفأس الذي في جنبي وقوة ساعدي

والخنجر الذي في حزامي، والمجن الذي يدرأ عني

وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي

لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني

يا خلي ويا أخي الأصغر

لقد طاردت حمار الوحش في التلال

اقتنصت النمور في الصحارى

"إنكيدو" يا صاحبي وأخي الأصغر

الذي اقتنص حمار الوحش في النجاد والنمر في الصحارى

تغلبنا على الصعاب وارتقينا أعالي الجبال"

الملحمة ص١٦٠

وتتمـــيز هـــذه المرثـــية الفردية بصياغتها لهذا النمط الرثائي في الأدب العراقي القـــديم. وكذلـــك في بلـــدان الشرق، حيث كان الاستهلال معنياً بالشخص المرثي، ومكرساً له وعنه، مع الإشارة لصفاته ومميزاته ومستوى العلاقة وإياه، حتى تأخذ المرثية مداها وعمقها في تأسيس مجالها الدرامي.

ولـــو لم يكن جلجامش صادقاً، لما استطاع التعبير عن فجيعته القوية، وحزنه المدمـــر، لـــنه لا يحـــتاج – أبداً – قول كلام لا يمثله أو لا يعبر عن موقفه الشخصي آنذاك. لذا كان هذا النص استهلالاً في العرض المسرحي / أو النص الدرامي، من أجل أن يضيء مساحة لاحقة ستساهم بتصعيد الشحنة الدرامية وإثارة الأحزان، كي يكون للرثاء مداه وقوة وقعه.

فأية سنة "من نوم" هذه غلبتك وتمكنت منك؟

طواك ظلام الليل فلا تسمعني

ولكن "إنكيدو" لم يرفع عينيه

فحبس قلبه لم ينبض" الملحمة ص١٠٦

وهـــنا يتحقق فعل الصدمة / والاستغراب مما حصل / الموت وتتكشف مفاجأة الملـــك بالموت، الذي لم يعرفه من قبل فيصرخ وكأنه لا يريد تصديق الذي وقع. لكن إنكيدو استمر في غيابه، ليؤكد للملك بأن الناس العاديين يلاحقهم الموت. والخلود من نصـــيب الآلهـــة فقط. ولحظتها أدرك الإنسان العراقي القديم وجود مناطق / عتبات، خاصـــة بالآلهة / الملوك / والناس، وهي تقسيمات موضوعية في نظر الآلهة، لذا قدرت الموت على الإنسان ومنحت نفسها الخلود حتى الأبد:

"وعند ذاك برقع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

كاللبؤة التي اختطفت منها أشبالها

وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر إليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورماها كأنها أشياء نجسة

الملحمة ص١٠٧

ولم يكتف جلجامش بالكلام للتعبير عن حزنه وفجيعته، وإحساسه بالكارثة، بل مارس ما كان العراقيون رجالاً ونساءً يقومون به، لحظة الفقدان، الضرب على الوجه ونتف الشعر والصياح والبكاء.

وبعد تصاعد النص درامياً، ابتدأ مجال الإمساك النفسي للفجيعة وقوة الصدمة حيث يتحول الصديق / الخل "إنكيدو" إلى تاريخ فردي / جمعي:

أيها الصفار والصائغ والجوهري

ونحات الأحجار الكريمة اصنعوا لي تمثالاً لخلي

ثم نحت لصديقه تمثالاً جاعلاً صدره من اللازورد وجسمه من الذهب، ونصب منضدة من الخشب القوي وإناء من اللازورد مملوءاً بالزبد. وقرب ذلك إلى شمش.

ص١٢٧ / الملحمة

على فراش المجد أضجعتك
وأجلستك على كرسي الراحة الذي إلى شمالي "يساري"
لكي يقبل أمراء الأرض قدميك
سأجعل أهل "أوروك" يبكون عليك ويندبونك
وسأجعل أهل الفرح يحزنون عليك
وأنا نفسي بعد أن توسد في الثرى.. سأطلق شعري
وألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في الصحارى

ص١٢٧ / ١٢٨ – الملحمة

إن مرثية إنكيدو، المشحونة بالصدق، وهول الصدمة، لم تكن خاصة بالصديق "إنكيدو"، وإنما هي رثاء للذات الملكية التي أدركت لحظتها، بأنها ملاحقة بالتعطل

الكـــامل / الغياب الفسلجي، لذا انشغل الملك / جلجامش بموضوعة الخلود والبحث عنه، حتى ينقذ نفسه من الموت / الغياب، والمصير الذي آل إليه إنكيدو.

لم تكن مرثية إنكيدو / هي الرثائية الفردية / الوحيدة في الدب العراقي القديم، وإنما هي المرثية الوحيدة التي كانت عن إنسان ورددها إنسان أيضاً، وهو جلجامش.

وعرف الأدب العراقي عدداً من المراثي التي قالها(*) الآلهة، ولعل أكثرها حضوراً هي رثائية "ننتو" الإلهة الأم التي لا تريد أن ترى شعبها، أو خلقها ميتاً، والدمار يجتاح كـــل شـــيء، لأنهـــا التي خلقت هذا الشعب، وعليها مراقبته وحمايته من الدمارات والكوارث.

لقـــد كان الإله "إنليل" وراء كارثة الطوفان المعروفة مثلما كان وراء الدمارات التي حلّت في سومر وعاصمتها أور / وفي أكد / ونفر. لأن إنليل، أحد أكبر الآلهة في مجلـــس البانثـــيون الـــراقي القديم، ويمثل السلطة التنفيذية، التي تخذ القرارات الحاسمة والخطيرة ومنها الطوفان والدمارات.

وتقص علينا ملحمة جلجامش / موضوعة الطوفان والطريقة التي حدث فيها، مع سلامة "أوتو – نابشتم" ووصوله وحضور الآلهة "عشتار" التي رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها الإله "آنو" وفق هواها وقالت:

أنـــتم أيهـــا الآلهة الحاضرون: كما أنني لا أنسى عقد اللازورد، هذا الذي في جيدي.

سأظل أتحسس "أذكر" هذه الأيام ولن أنساها أبداً

ليتقدم الآلهة إلى القرابين

(*) اختص كشاف د. نائل حنون بالمراثي السومرية فقط.

أما "إنليل" فحذار أن يقترب من القرابين

لأنه لم يتروّ، فأحدث عباب الطوفان

ص١٦٠ / الملحمة

وارتفـــع صوت الإلهة عشتار، بعد انحسار الطوفان، نادبة الخسارات، وتعطل الحياة.

وصـــرخت عشتار، كما تصرخ امرأة في الولادة، انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجي نادبة:

واحسرتاه! لقد عادت الأيام الأولى إلى طين

لأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة



شكل (٢): كاهنات الآلهة عشتار

فماذا دهاني إذ نطقت بالشر

لقد سلطت الدمار على أناسي "خلقي"

وأنا التي ولدت أناسي هؤلاء

لقد ملأوا اليم كبيض السمك

وبكى معها آلهة الـ "أنوناكي"

أجل! جلس الآلهة فمنكسي الرؤوس يندبون

وقد يبست شفاههم

ص١٥٧ / الملحمة

ويضـــيء لنا نص الملحمة علاقة الأم / الألوهة المؤنثة مع مراثي الدمار، مثلما ســنتعرف على ذلك في نص / أور / نفر، وهذا ما يؤكد ابتعاد الألوهة المؤنثة / الأم الكـــبرى عـــن اقتراح القتل / والخراب، لأنها بذلك تكون متطابقة مع عناصرها، التي صــاغت شخصيتها، وكونت ملامحها في البنية الفكرية العراقية. لذا ظلت محافظة على ذلـــك، وغير قادرة على خرق هذا الأصل، كي تظل متناغمة مع وظيفتها المعروفة في بنية الخصب والحياة.

ولهـــذا حـــازت المرأة على وظيفة الندب، لأنها المستهدفة – أصلاً – بالموت / الخراب / وتشعر بذلك أكثر من الرجال، وصارت البكائيات وظيفة لها، حتى الوقت الحاضـــر، وقادت المرأة وطورت هذه الوظيفة في الحياة الاجتماعية / اليومية، في كل الوطن العربي. وقد برعت النسوة بذلك، وظل منظرهن – وهن يرددن المراثي، ويمثلن أدوارهن – مثيراً للحزن والشجن.

وعـــلى الـــرغم من تدويني للنص العشتاري، لكني أشك في هذه المرثية وكل المـــراثي المنسوبة لها، لأن "عشتار" لم تكن إلهة أم، وليس لها دور في الخلق والولادة. وإنمـــا تمركـــزت وظيفـــتها في الجـــنس والاتصال / الشبق، و لم يمنحها هذا التمركز الشهوي، فرصة التخصب ولو لمرة واحدة.

لهـــذا انحصـــرت وظائفهـــا كلها بالاتصال الجنسي / والشهوي / والشبق / والإثارة، لذا أعتقد بأن دورها في هذا النص منقول عن غيرها.



شكل (٣): الإلهة عشتار كما تخيلها الفنان سعدي الليان



شكل (٤): إنكيدو – نحت بارز على جدار قصر سرجون الثاني الآشوري "أواخر القرن الثامن ق.م"

٢. رثـــاء الآلهـــة

عرف الأدب في العراق القديم نمطاً من المراثي، لم ينتشر ويتسع في الشرق، ألا وهـــو نـــدب الآلهة والتوسل إليها، واستثارة رحمتها وعطفها من أجل الناس. وكانت هـــذه النصـــوص قصيرة وليست طويلة جداً، حتى يتمكن الناس من حفظها بسرعة وسهولة، وانتقالها من جيل إلى آخر، وترديدها مع الكهنة في مناسبات خاصة.

وأشـــار د. ســـامي سعيد الأحمد إلى أن قصائد ندب الآلهة كانت سلاحاً بيد الكهنة لإيقاف غضب الآلهة، وتقرأ في تقويم أوروك القطع الشعرية التي كانت تتلى في كـــل شـــهر وخصوصاً في الأيام الأول والسابع والرابع عشر والعشرين من كل شهر وخلال شهر نيسان وكانون أول وفي السابع من كل شهر يتلو الكهنة خمس قطع.

ثـــلاث مـــنها إلى الإله آنو، وواحدة إلى سين وأخرى إلى عشتار. أما قصيدة الـــندب من نوع "إيلوم كوسونا" فإنها تتلى في معبد الإله آنو بمدينة أوروك، في اليوم الســـابع عشـــر، وتتسع المراثي وتتعمق طقوس الندب في العراق، ولأهميتها تُنتج معها طقوســـاً خاصـــة، ذات هيمـــنة دينية، تثير الخوف والهلع في نفوس المواطنين، وحتى الكهـــنة، وخصوصاً المراثي التي تقدم إلى الإلهة لحظة ما يريد المتعبد تحقق شيء له، أو عندما يُزال معبد الإله لأغراض التجديد، فإن مثل هذه المراثي، يقدمها الكهنة وحشد

مــن الـــناس، ومـــن أهم النصوص في هذا المجال، ما يقدم إلى الإله "إنليل" توسلاً له لتخفـــيف الكـــوارث والمآسي. ويتألف(*) كل نص من ثلاثة عناصر أساسية، المدح / والأحـــداث / والأهمية. وأكثرية المحتويات مكرسة إلى مدح الإله وإخلاص المتعبدين إلـــيه، ثم تروي سوء أوضاع البلاد وانفجار الطبيعة والغزوات التي لم يوقفها الإله. ثم يصف ردود أفعال الأحداث على الآلهة ويندب مصير البلاد ومعابدها وشعبها. ثم قيام بعـــض الآلهة بمحاولات توسط لدى "إنليل" من أجل الأمة. وأخيراً حث الإله لإعادة حـــبه وحفظ المعابد والمدن من الدمار. ويظهر أن قصيدة الندب كانت تتلى إلى الآلهة وقت تقديم الأضاحي. وكانت سلاحاً بيد الكهنة لإيقاف غضب الآلهة.

ويقدم د. سامي سعيد الأحمد تحديداً لعدد من النصوص الدينية، وهي بحق من أهـــم النصـــوص / المراثي ويؤسس تقسيماً للمراثي، معتمداً بذلك على المتن الداخلي للـــنص، وليس على عنونة القصيدة، وأحياناً يأخذ موضوع الندب من مقطع واحد في النص ويؤسس توصيفاً دقيقاً له.

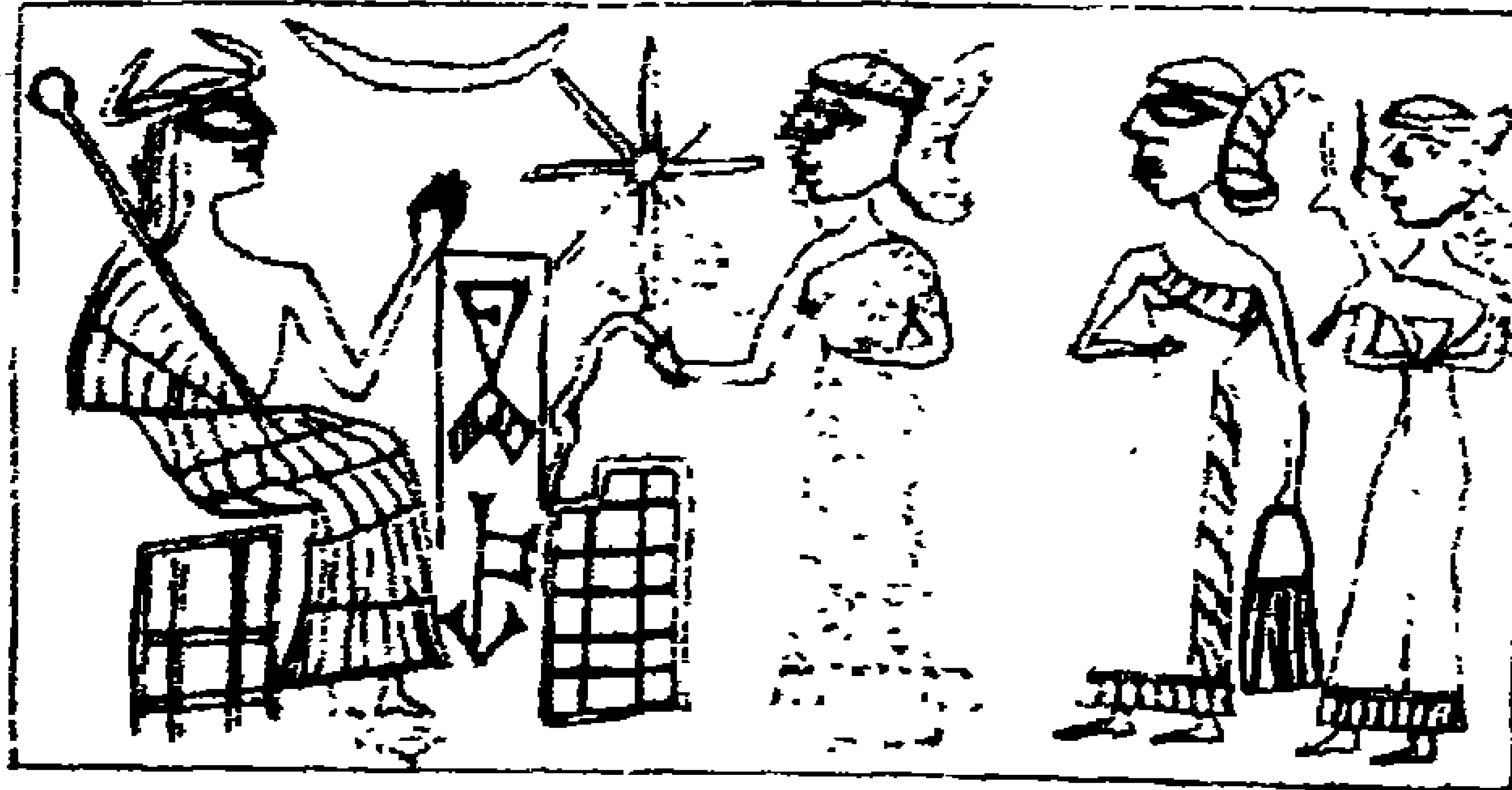
إن مـــراثي الآلهـــة(**) التي ذكر موها السنوي في عقائد العراق القديم، تميل في معظمهـــا إلى تقلـــيد مراثي (دوموزي) بالرغم من انعدام وحدة الموضوع، بين موت الآلهـــة وموت "دوموزي"، وهكذا الحال بالنسبة للإله "ننورتا" الذي اعتقد العراقيون القدمـــاء بأنه تعرض للموت ونزل إلى العالم الأسفل، إذ وجد نص من مدينة "أداب" يذكـــر باسم (ليل) الذي هو أحد ألقابه، ويصف رثاءه من قبل أمه الإلهة "ننخرساك" وأخته الإلهة "أكيمي" حيث أن الأخيرة تندبه بالشكل التالي:

قم من قبرك يا أخي فأمك في لهفة عليك

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠، ص٦١.

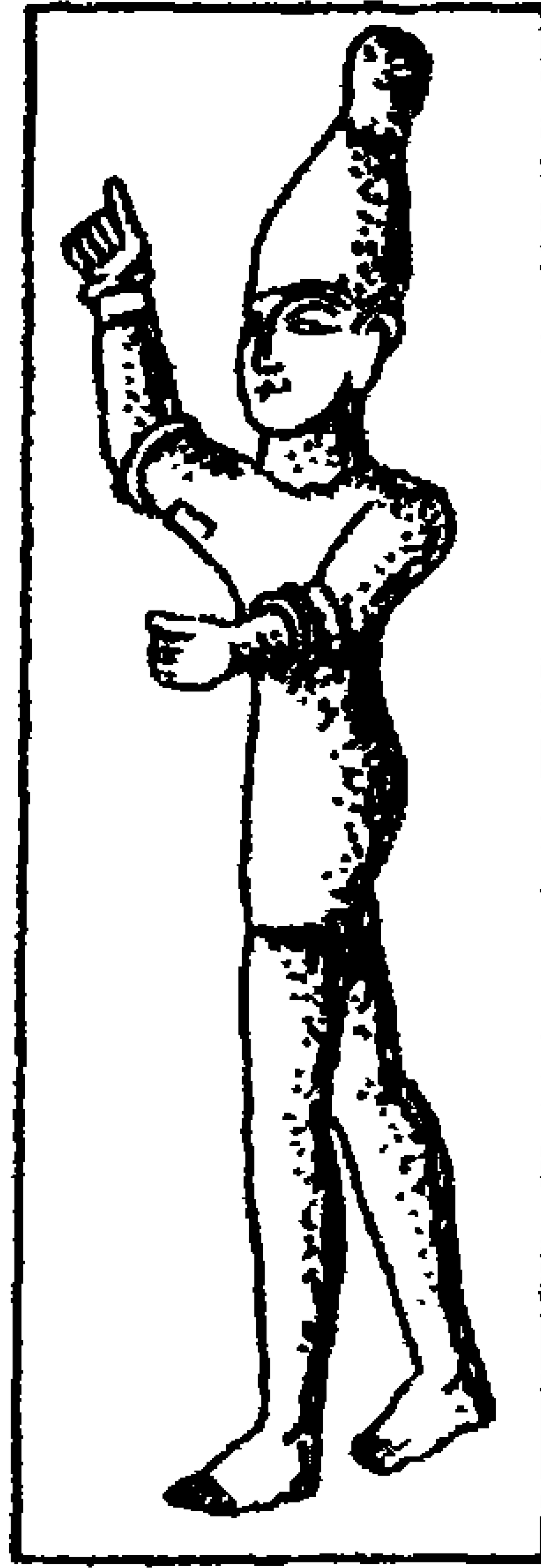
(**) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٧٠ - ٧١.

أمك "ننخرساك" في لهفة عليك
إنها تتلهف لسماع شفتيك العذبتين
إنها تتسع لفمك اللبق.
أيها الفتى، لا تدع أمك تجلس باكية
لا تدع أمك "ننخرساك" تجلس نادبة
قم من قبرك ولا تجلب عليها الويل
قم من قبرك يا (ليل) ولا تجلب عليها الويل. فيجيبها بحزن:
حرريني يا أختي
لا توبخيني يا أختي، فما أنا بالطويل الذي تمكن رؤيته
لا توبخيني يا "أكيمي" فما أنا بالطويل الذي تمكن رؤيته
لا توبخيني أيتها الأم ننماخ / ننخرساك"، فما أنا بالطويل الذي تمكن رؤيته
إن قبري من تراب العالم الأسفل، وأني اضطجع بين الأشرار
إن نومي كرب وإني اضطجع بين الأشرار
يا أختي! إني لا أستطيع القيام من قبري



شكل (٥): ختم أسطواني وتبدو فيه الإلهة حاملة صولجاناً مع رموز أسطورية أخرى

إن معانـــاة الآلهـــة والحداد عليهم يمثل تعبيراً(*) عن التوتر الذي يميز ديانة بلاد وادي الـــرافدين القديمـــة، بسبب القلق المتأصل من المصير المجهول والحزن على حتمية فقـــدان الحياة، مع محاولة التشبث بها هرباً من الموت، ولا يمكن لنا أن نأخذ النصوص الـــتي تعالج ذلك الموضوع بحرفيتها، نظراً للمعاني الرمزية التي يحملها الكثير منها. ومن المستطاع القبول عموماً بأن البطل فيها لا يبدو أنه إله "ميت" كما اعتبر من قبل بعض الباحـــثين، وهو لا يجسد بمخلوق بشري يتعرض للقتل، وإنما كان إله يموت في دورة الفصـــول الاعتيادية، أو الطقوس الخاصة ثم يعود للحياة. لقد اعتبرت العبادات القديمة موت الآلهة السنوي، ظاهرة طبيعية في صراعها مع الطبيعة والموت، إذ تنتصر الآلهة في آخر الأمر، فلا يؤثر بأي حال من الأحوال على خلودها.



شكل (٦): بعل من أوغاريت

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص٧٢.

ومن النصوص التي يتلوها الكهنة إلى الآلهة(*):

* الثور في حضيرته:

وهي مكرسة إلى الإله "إنليل"، وكانت تتلى في مدينة أوروك في الأيام الخامس عشـــر والعشـــرين من الشهر وهي للإله آنو وفي اليوم الحادي عشر من عيد الآكيتو وبمدينة آشور، تتلى يوم الرابع عشر من شباط، وتقدم في كل مدينة باسم إله معين

الثور في حضيرته يندب بكل حزن

إله الأمة قد وضع للحراسة راعياً لا ينام

الإله موليل (إنليل) جعل أبناء سومر يصعدون الجبال

في مدينتك الأم لا تعرف ولدها

في بابل الفتاة لا تعرف أخاها

ويلاحظ من خلال هذا النص، الأسباب الكامنة وراء تعميم هذه المرثية، وهي ذات صـــلة وثيقة مع الخصوبة واستمرار الثروة الحيوانية، حيث حازت على استهلال النص، ومن بعد اتسع النص ليشمل نظام الخصوبة، حيث الأم لا تعرف ولدها والفتاة لا تعرف أخاها / زوجها، وسبب ذلك يعود لحجم الكارثة التي حلت بالمدينة، ويذكر هذا النص بمرثية أور. ولأن المرثية هذه غير محددة بمدينة ما، فإنها تعتبر مرثية لكل مدن العراق القديم.

أمـــا الإلـــه "موليل – إنليل" فلا ضير أن يكون ضمن هذا النص، لأنه، الإله الوحيد الذي بإمكانه إيقاف الدمار وإنقاذ الناس، والسعي لتجديد الحياة، وكل شيء

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، سبق ذكره، ص٦١-٦٥.

فـــيها. ولهذا السبب،نجد بأن كل المراثي قد تضمنت دوراً خاصاً بالإله "إنليل" إذا لم يكن متمركزاً، كما في مرثية أور ونفر وآكد. والمرثية التالية تضيء جانباً مما أشرنا له.

* كلمته عويل عويل:

وهـــي ندب إلى الإله إنليل. وكانت تتلى في مدينة أوروك في اليوم السابع من كـــل شـــهر. وتركزت هذه المرثية على الخراب الذي سببه إنليل للبلاد وبعد ذلك استســـلم لـــنوم وظـــل الخراب مستمراً. لذا سارعت الإلهة "أنانا" إليه من أجل إنقاذ الموقـــف، وعندما وصلت مدينة نفر. أوقفها البواب عند باب الإله إنليل، طالباً منها القـــيام ببعض الواجبات، كي يسمح لها بالدخول، وفعلاً تمكنت – بعد ذلك – من الدخول إلى حضرة الإله إنليل وحاولت إيقاظه.

وللإلـــه إنلـــيل دور كرسه عبر التتالي، دور تعميم الأوبئة والخراب والطوفان ومحاولته إبادة البشر.، وفي الأدب العراقي القديم كثير من النصوص التي تشير إلى ذلك، ولعـــل أهمها وأكثرها بقاءً في الذاكرة هو ملحمة جلجامش / رثاء أور / نفر / وتثير هـــذه النصـــوص سؤالاً مهماً وجوهرياً له صلة بالعناصر الأنثوية للإلهة أنانا / عشتار حيـــث نجـــد دورها إيجابياً وفيه ملمح واضح من وظائف الأم الكبرى، وهو مسعاها لإيقاف الخراب والدمار. وتشير إلى ذلك ملحمة جلجامش إشارة واضحة جداً.

أجل تشمم الآلهة عرفها الطيب(*)

فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب

ولما حضرت الإلهة العظيمة "عشتار"

رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها (آنو) وفق هواها

(*) طه باقر، ملحمة جلجامش، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص١٦٠.

وقالت:

أنتم أيها الآلهة الحاضرون: كما أنني لا أنسى

عقد اللازورد هذا الذي

في جيدي

سأظل أتحسس (أذكر) هذه الأيام ولن أنساها أبداً

ليتقدم الآلهة إلى القرابين

أما "إنليل" فحذار أن يقترب من القرابين

لأنه لم يتروّ فأحدث عباب الطوفان

وأسلم أناسي (خلقي) إلى الهلاك

هـــذا العنصر الواضح في شخصية الآلهة أنانا / عشتار عنصر أمومي، لم تؤكده النصـــوص السومرية / والآكدية و لم تحز هذه الإلهة على هذه الخاصية. وقد تمكن د. نـــائل حـــنون مـــن دراسة هذا الأمر الحيوي وتوصل إلى رأي مختلف تماماً عن الآراء الغربية التي أكدت على الصفة الأمومية للإلهة أنانا / عشتار.

* محارب البلاد الرفيع

وهـــي قصـــيدة ندب إلى الإله "نتورتا" وفي الوحدتين الأوليتين تمدح القصيدة نـــنورتا ثم تدعوه إلى صد الأعداء ونقل الحرب إلى أرض العدو، ودحر جيوشهم وفي الوحـــدة الثالـــثة تصرخ المدينة بوجه زوجة ننورتا – ننكرزو التي كانت تتجول بين أطلال المدينة تندب خراب كل شيء.

* الفيضان الذي أغرق المحصول:

تتـــلى إلى الإله "نركال" وفي الوحدة الأخيرة إشارة إلى الطلب الصريح لنركال بالذهاب إلى الإله إنليل، والتوسل إليه لإيقاف تخريبه البلاد ويصمم نركال على القيام بالمهمة:

سأسكب الجعة من وعائي إليه

مثل الحصان سأقدم رقبتي إليه

وسأخبره أن مدينته قد تهدمت

يكشـــف هـــذا المقطع القصير جداً من هذه المرثية، الغطرسة التي تلبست الإله إنليل وعجرفته ورغبته في التدمير المستمر، وهذا ما يعنيه كلام الإله نركال ضمناً. لأنه – مـــن الإلهـــة الكبيرة / المتجبرة في العالم الأسفل، وهو زوج الإلهة أرشكيجال، وإله موجود في العالم الأسفل، يعني تعايشه مع الخراب / الموت، بحيث لا يمثل ذلك مشهد أمـــراً غريباً أو مفاجئاً. وعلى الرغم من كل ذلك، نجده يقدم الجعة من وعائه الخاص قـــرباناً للإلـــه إنليل، وارتضى –نركال – أن يمد رقبته، مثل الحصان، اعترافاً بطاعته والمثول بين يديه، كل هذا من أجل أن يقول له بأن نفر قد تهدمت وخيم عليها الدمار الشامل.

٣. مراثي الإله دوموزي / تموز

هـــي مجموعة من أشهر المراثي، وأكثرها أهمية في الأدب العراقي القديم. وربما اكتســـبت أهميـــتها هذه، من التواصل واستمرار طقوسها/، كما أنها مرثية على لسان أنانـــا / عشـــتار العاشقة / المجنونة برغباتها، حيث كان غياب تموز، تعطلاً للأنوثة في جسدها، وتأتي أهميتها من كون الإله تموز إلهاً شاباً / جميلاً / وسيماً، ويمكن الاعتماد علـــيه بكونه أصلاً لنظام الألوهة الشابة القتيلة، التي عرفتها حضارات الشرق لاحقاً. ومنها الآلهة الأكثر بروزاً / ووضوحاً الإله أدونيس / دويونيسيس / أوزيريس / آتيس / يوسف / يسوع / الحسين... الخ.

لهـــذا صـــاغت مـــراثي الإله تموز جزءاً حيوياً من وجدان الناس، وخصوصاً الشـــباب، وعبر مجموعة من القصائد الخاصة وفرت الأسباب التي أشرنا لها جواً خاصاً ورسخت أنماطاً من العلاقة مع الناس، وتواصلاً. ولأن العزاء والندب مستمر ولأسباب كثيرة، فإن قصائد تموز تتلى فيها. وتحولت تدريجياً إلى مهيمنة واسعة وراسخة، تتبدى به، ومن خلاله كل الخسارات، من خلال الوفيات أو استذكار الأموات. لهذا كانت طقوس التلاوة مستمرة، وتعتبر أبدية.

وتتميز قصائد رثاء / وندب الإله الشاب / دوموزي / تموز بأنها مكتوبة بلسان الإلهــة إنانـــا / عشــتار، لأنها أخته / وزوجته، وإحساس المرأة بالخسارة أكبر وهي الوحــيدة، التي تدرك عمق المرارة التي يتركها غياب الزوج / الأخ / العشيق، لذا ظل كل الذي قالته النساء عبر التاريخ حياً ومؤثراً، ويطغى عليه حزن ومرارة.

ويغلب على هذه القصائد تكرر صدر أو عجز البيت وفي مرات أخرى يتكرر البيت الأول من القصيدة، بعد عدد من الأبيات:

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

إني أنا سيدة معبده — أي — أنّا — تحطم بلاد الأعداء

راح قلبي إلى مكان الفتى

راح إلى مكان دوموزي / تموز. إلى العالم السفلي، موطن الراعي

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

إلى المكان الذي ربط فيه الفتى

إلى المكان الذي احتجز فيه دوموزي

وفي قصــيدة أخــرى، تتجسد الحالة النفسية للإلهة إنانا / عشتار لحظة غياب تموز، وهي تعبر بوضوح تام عن الصدمة التي تواجه المرأة عند غياب زوجها

تبكي السيدة بمرارة عل زوجها

تبكي إنانا بمرارة على زوجها

تبكي ملكة زبالم بمرارة على زوجها

وأسفاه على الدار، وأسفاه على المدينة

على زوجها الذي أسر، وعلى ولدها الذي قتل..

راح زوجي، زوجي الطيب

راح ولدي، ولدي الطيب

زوجي الذي راح ينشد الطعام

زوجي الذي راح ينشد الماء فسلم إلى المياه

* قصائد ندب الأفراد:

يقـــدم د. ســـامي سعيد الأحمد رأياً مهماً وجديداً حول قصائد ندب الأفراد ويؤشر وجود قصيدتين فقط(*) واحدة عن شخص اسمه (لودين كيّرا) يندب فيها والده الذي مات بعد إصابته بجروح، في خصام شخص. والثانية يندب فيها شخص زوجته "نويرتم" وكان أسلوبهما الشعري متميزاً:

الأب الذي يعيش في المدينة قد تمرض

العالي الفطن الذي نجد قرينه في الجبال قد تمرض

رجل الحق والتقوى قد تمرض

البطل الزعيم لم يقدر أن يسير على قدم..

قد فارق الدنيا في نفر

من الجروح التي حصلها في الخصام

سكب الابن دموعه وألقى بنفسه في التراب

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، سبق ذكره. ص٦٤.

٤. الحداد والأثر الاجتماعي للموت(*)

لابد من معرفة الحالة، التي يكون عليها أهل وأقارب المتوفى ومعارفه في العراق القـــديم، وما هي الطريقة التي يعبرون بها عن أحزانهم ومشاعرهـم نحو المتوفى؟ لذلك ما هي الحالة الاجتماعية العامة التي تكون عليها المدينة و الدولة، بعد موت الملك أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة، أو الشخصيات الهامة في الأيام التي تعقب الوفاة مباشرة.

كـــان التعبير وفقاً لعقائد ما بعد الموت عند سكان العراق القدماء، عاملاً مؤثراً في كـــلا الطـــرفين، الأحياء الذين فقدوا أحد أقاربهم أو أصدقائهم من جهة، والمتوفى نفســـه من الجهة الأخرى، فبالنسبة للأحياء من عائلة المتوفى وأقاربه وأصدقائه والمجتمع الـــذي عـــاش فيه، كان الحداد عاملاً مساعداً على تخفيف الحزن والقلق والإحساس بالـــتوتر الذي يغمرهـم، وبالنسبة للمتوفى كان الحداد والحزن الحاصل بعد وفاته يعتبر بمـــثابة ضمان بعدم انقطاع ذكر الشخص، بين الأحياء بعد موته. وبالتالي يصبح أمراً موحـــياً بالطمأنينة للفرد إزاء الموت. وقد ظهر هذا الاتجاه بأشكال متعددة مثل إقامة الطقوس الجنائزية وفي الأخص منها طقوس "ذكر الاسم" Shuma Zakaru.

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص٢٩٠.

وإضـــافة إلى ذلـــك كله، كان الاعتقاد السائد بين سكان وادي الرافدين، أن دموع الأحياء ومراثيهم يمكن أن توفر للموتى بعض الراحة.

ويمكنـــنا تـــلمس أثر الحداد في تخفيف حدة أثر الموت، على نفس الإنسان في نـــص مـــلحمة جلجامش، على لسان الإله شمش وهو يهدئ من روع "إنكيدو" حين مرض وواجه الموت إذ يخبره:

وسيجعل "جلجامش" أهل أوروك يبكونك

ويجعل الموسرين من الناس يقربون ويصلون إليك

أما هو نفسه فبعد أن يودعك القبر سيطلق شعر

ويلبس جلد الأسد ويهيم على وجهه في الصحارى



الشكل (٧): ختم أسطواني عن صراع الأبطال مع الحيوانات

وفعلاً يطمئن "إنكيدو" ويخف جزعه من الموت كما يتضح(*) من الأسطر السابقة بالرغم من أن الإله "شمش" لم يعده بتخليصه من الموت. وقد كانت مراسم الحداد، تختلف باختلاف مكانة الشخص المتوفى، ودوره في المجتمع، كما هي الحال بالنسبة لسائر الطقوس الجنائزية الأخرى. إذ كان بالنسبة لعامة الناس مقتصرة على عائلة الميت وأقاربه وأصدقائه، وبالطبع كانت درجة الحزن، مختلفة من شخص لآخر باختلاف درجة قرابته من الميت، أما بالنسبة للملوك والشخصيات المهمة في الدولة فقد كانت لهم شعائر خاصة.

ويوجد عدد من الكهنة المختصين بالقيام بمراسم الحداد - بطلب من أسرة المتوفى - بتلاوة المراثي. وهؤلاء الكهنة على ثلاثة أصناف. وتعزف الألحان الحزينة بمصاحبة المراثي، التي يلقيها هؤلاء الكهنة، حيث ورد في أحد النصوص من مدينة "ماري" ما يلي:

كاهن المناحة يرنم برفقة طبل. وفي نص آخر: كاهن المناحة يرنم أنشودة، كاهن المناحة ينشد بإطراء السيادة العليا، كاهن المناحة ينشد بمصاحبة القيثارة.

وكان الموسيقيون الذي يعزفون على الناي والقيثارة كثيراً ما يظهرون في المشاهد المصورة على الأختام الأسطوانية، التي تمثل الولائم الجنائزية. وبالإضافة إلى الكهنة هناك بعض الكاهنات يشتركن في المآتم ووردت الإشارة إلى اشتراك كاهنتين في مراسم الحداد الخاصة بالشخص المدعو "نانا".

يا "نانا"(**) عسى أن تسر روحك ويستقر قلبك. عسى الإله "أوتو" سيد العالم السفلي العظيم بعد أن ينور الأماكن المظلمة، أن يحكم قضيتك "بعطف" عسى الإله

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص٢٩٣.

(**) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص١٤٠ - ١٤١.

"نـــنا" أن يقرر مصيرك (برحمته) في يوم النوم. عسى "نركال" الذي هو (إنليل) العالم الأسفل.. عسى الموكلون بالطعام أن ينادوا باسمك..

* * *

عسى السقاة أن يرووا ضماك بالماء المنعش

عسى جلجامش أن.. قلبك بالقوة

عسى "نيدو" و"إيتانا" أن يكونا شفيعيك

عسى آلهة العالم الأسفل أن يرفعوا الدعوات لك

عسى أن يقول إلهك الشخصي كفى، عسى أن يقرر مصيرك برحمته

عسى إله مدينتك...

عساه أن يمحي عهودك وديونك

عساه أن يغفر إثم العائلة من الحساب

عسى الأرواح الصالحة أن يحموك

عسى الأطفال الذين أنجبتهم أن يحظوا بالقيادة

عسى كل بناتك أن يتزوجن

عساه أن يلف الشر المخطط ضدك..

عسى أن يكون الذين تركتهم وراءك سعداء

عسى أن تمكث زوجتك براحة ويتكاثر أقاربك

عسى أن يحظوا بالثروة والنعم يوماً بعد يوم

عسى أن لا تنقطع الجعة والشراب وكل الأشياء

الطيبة عنك

عسى أن يضم دعاء عائلتك إلى دعاء إلهك الشخصي

وأشـــار الباحث والعالم الأثاري د. نائل حنون إلى المرثية المهمة والخاصة بـــ "نـــورتم" زوجـــة "لو – دنكرا" لأنها تضيء نوعاً جديداً له صلة مع المواطن العادي، وتقـــدم كشـــفاً عن شعائر الحزن وتقاليد الندب، ووجدت الدراسة بأن هذه المرثية مختلفة، لأنها مكتوبة عن المرأة، والمراثي عن النساء قليلة ونادرة.

لقـــد أطلق – كما قال الباحث نائل حنون – سكان العراق القدماء مصطلح (شـــقو) عـــلى الحداد وهو مصطلح آكدي قريب من كلمة "الشقاء" العربية، ولعل المقصـــود مـــن إطلاق هذا المصطلح على الحداد، الإشارة إلى الحالة التي يكون عليها الحزانى في فترة الحداد. حيث يغمر الألم نفوسهم وتملأ الحسرة صدورهم، وتتم طريقة الإعـــلان عـــن الحداد بترك الشعر أشعث أو بنتفه تعبيراً عن الحزن، والنواح بأصوات عالـــية واللطـــم عـــلى الوجه، وإلقاء اليدين على الأرض وتمزيق الثياب، كما وردت الإشـــارة في حوليات الملك (سرجون) في معرض وصف حزن العراقي عند وفاة أحد معارفـــه بأنـــه كان: يلقي بنفسه على الأرض ويمزق ثوبه، ويجرح نفسه بسكين وهو مســـتغرق في العويـــل. ومن طرق الإعلان عن الحداد عند سكان العراق القدماء أن يـــرتدوا ثياباً خاصة، وينشروا الطين على رؤوسهم. ويبقوا طيلة أيام الحداد مطأطأي الرؤوس، كما يتضح من نص (شاهد قبر أدد – كبي).

وبالنسبة لشعائر الحداد على الموتى، من الملوك أو الشخصيات المهمة في الدولة، تســـتمر فترة الحداد الرسمي لمدة سبعة أيام يتوافد في أثناءها من مختلف المدن وكذلك

الملـــوك والحكـــام من الدول الأخرى. ولم يكن جثمان الملك المتوفى يدفن بعد موته مباشرة. وإنما كان يمدد على سريره في قصره الخاص، حيث يتجمع حوله أفراد أسرته للـــبكاء علـــيه في حـــين يـــتجمهر أهل مدينته حول القصر، وهذا ما يوضحه النص الســـومري المعـــروف باسم (موت أور – نمو) وكذلك من إحدى الرسائل الآشورية الموجهة إلى الملك الآشوري "سرجون" تطمئنه على الامتثال لأوامره بأن يعرض جسد سلفه لمدة ثلاثة أيام، ثم ينقل إلى مدينته أربيل ليعرض يوماً واحداً فيها.

وحينما يكون جسد الملك مسجى على سريره(*) تستمر عملية تحضير الضريح للدفـــن وإنشاد الترانيم الجنائزية – كما ورد في إحدى الرسائل الآشورية عن المراسم الـــتي أقيمت بعد انتحار (شمش – شوم – أوكن) بعد فشل ثورته في بابل على أخيه الملـــك أشور – بانيبال حيث تذكر الرسالة: (لقد بنينا الضريح، ورقد مع سيدة قصره بسلام، لقد انتهت الترانيم والمراثي وأحرقت القرابين، كما تمت مراسم المسح بالزيت وأقيمـــت مراســـم الانتهاء في بيت الاستحمام وبيت التطهير وتلاوة التعاويذ وإنشاد التراتيل الجنائزية.



شكل (٨): الملك آشور ناصر بال الثاني

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص٣٠١.

٥. رثاء الزوجة

كنا قد أشرنا – قبلاً – عن أهمية مرثية "ناورتم" وتميزها بالكشف والإيضاح، عــن طقوس الموت وشعائر الندب والحزن، ونعتقد بأن لهذه المرثية جانب آخر، يتمتع بأهمية بالغة، لأنه رثاء عن امرأة عادية والنصوص في هذا المجال قليلة جداً.

يوم الشؤم على الزوجة...(*)

عــلى الســيدة الجميلة، الزوجة العطوف، العين الشريرة وقعت على العصفور وعلى عشه وقعت الشبكة.

الأم الولــود، الأم الكثيرة الأبناء، وقعت بالفخ على حين غفلة البقرة الصغيرة الزاهية، البقرة الوحشية المخصبة، سقطت محطمة مثل إناء (كاكول).

"ناورتم" البقرة الوحشية المخصبة، سقطت محطمة مثل إناء "كاكول"

وهي التي لم تقل أبداً "إنني مريضة" و لم تقلق

وهي التي لم "تدس" الموضع القدسي

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، وزارة الثقافة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٩٧.

كأنه موضع راحتهم، اندفعوا.. و لم تكن..

لقد غمرت "نفر" العتمة، وفي المدينة

أطلق كل الناس صرخة الحزن..

وغمرهم العطف على نهاية حياتها القاهرة،

وتأملوا لتمددها كتمثال ذهبي،

فمن الذي ينظر إليها ولا يتملكه الحزن

النساء الباكيات "رددن" أروع ترانيم الشعراء ذات الكلمات

العذبة. والتي أطلقت في كل مكان ندباً ورثاءً

لأن .. عاد .. أنشدوها حزناً عليها

لأن التي "لم تزل" صغيرة

.... حجر..

لأن أيامها في حضن زوجها لم تطل، لم ينقطع البكاء

لأن من .. لم يرجع الإله "ننورتا" صيحة البهجة

لأن محبوبتها كاهنة الـ "إينتو" لم تدخل الـ "كيبار"

لم يقبل الحمار، الذي اختار الفرس له، كقربان،

لأن... جلب إلى النهاية بجنبه

بسمو وعطف أطلق مرثية لأجلها، لأمها التي أنجبتها.. لأجلها

وجاءت أرواحهم قدامها، وتمزقت أجسادهم الشريرة

... العاملون والأقارب..

لأن ... من الركبة..

لم يقفوا...

كل حسناهم كن..

....

مثل رجال غاضبين، الأحجار ... مرض

الثور في مدينتها من العلى... لم يزدد

وحينها "كان" زوجها الحبيب وحيداً في مدينته "نفر"..

"لو – دنكرا"، زوجها الحبيب "كان" وحيداً

في مدينته، في "نفر"..

دنا منها بقلب جريح في... موضع السكن العظيم

أخذوا يده وقلوهم مفعمة بالحزن

... قطع الغذاء... ونفسه مكظوم

وأطلق العويل كالبقرة و لم "يرتد" ثياباً...

إنه يتألم ويندها: "أواه! أين "أنت" الآن أندبك

أين الآلهة "ميمي" الآن والروح الفاتنة! إنني أندبك

أين الفم العطوف الآن. الفم الساحر، الفم الكريم! إنني أنعاك

أين سلاحي البهي الآن، الكنانة الزاهية! إنني أنعاك

أين "أنت" الآن. إشراقتي البهية! إنني أنعاك

أين الأغاني العذبة التي تبهج القلب الآن! إنني أنعاك

أين سلاحي البهي الآن، الكنانة الذهبية التي تنير الروح!

إنني أنعيك.

أين رقصي، رقص "اليد المرفوعة" والمرح! إنني أنعاك

عسى أن لا يمحى ذكرك في الحياة، وعسى أن يذكر

اسمك في الأيام القادمة.

وعسى خطيئة عائلتك أن تمحى. وعسى ديونك أن توفى.

عسى زوجك أن يبقى طيباً، وعساه أن يفعل الخير ككل رجل

عسى أن يبشر أطفالك بمصيرهم السعيد، وعسى أن يكتب

لهم المستقبل السعيد.

عسى عائلتك أن تتقدم للأمام وعسى أن يكون

مستقبلها زاهراً

عسى الإله "أوتو" أن يجلب عليك النور من العالم الأسفل

هو الذي "يرعاك"

عسى الإله "ننكرا" أن يطلق كلمة لأجلك. عساها أن ترفع عالياً.

لأن الريح العاتية قد هبت ضدك، عسى أن يرجعها الأفق

وعسى اللعنة القاسية أن تطلق على الشيطان الذي مدّ يده ضدك

ولأنــك الــزوجة العطــوف، قد تمددت مشرقة كالنور، فهذي مرثية مريرة لأجلك.



الشكل (٩): الإله شمش وبيده الحلقة المدورة وعصا القياس



شكل (١٠): ختم أسطواني من مدينة أور

٦. رثـــــاء أور

يعتـــبر "رثاء أور" من أقدم المراثي التي عرفها العراق القديم وبلدان الشرق. وبها تأسس جنس خاص في الكتابة. وللأهمية التي يتمتع بها هذا النص الشعري، والذي حاز على خصائص الشعر السومري القديم، سنُحاول التعريف به بشكل متكامل، والإشارة إلى أهم ما يتوفر عنه في التداول. ولهذا سنقدم في هذه الدراسة ترجمة د. عوني كرومي عـــن الألمانية والإفادة من آراء العلماء والخبراء الذين درسوها، وكذلك الإشارة لآراء حديـــثة عـــن "رثاء أور" مع تدوين لمقاطع منها. وهذا التوسع وتسجيل الملاحظات ســـيقودان الدراسة نحو المراثي اللاحقة التي عرفها الشرق، وحصراً الرثاء التوراتي مع إشـــارات لعناصرها وخصائصها. والفروقات التي لحقت بها. وسيكون اهتمامنا برثاء أور متأت من أسباب عدة. أهمها:

لإنه النص الأول الذي عرفته الحضارة العراقية القديمة، وتأسس به لون كتابي، تكـــرس أكثر في حضارة العراق. وذلك بسبب تحقق الكثير من الويلات والدمارات/ بســـبب الكـــوارث الطبيعـــية والحروب التي شهدتها دويلات المدن. لسبب ديني أو سياسي.

وكمـــا تلاحق الدراسة – عبر ذلك – التأثر التوراتي بالأدب العراقي القديم، وهـــذا مـــا أشـــرنا له كثيراً في عدد من دراساتنا(*). وتأكيد الدور التأثيري وفاعلية الحضارة العراقية القديمة.

إن نـــص "رثـــاء أور" والـــذي يعود إلى مرحلة قديمة جداً، يمثل إرثاً إنسانياً وبالإمكـــان الاشـــتغال عليه عبر عدد من المجالات الفكرية والفنية وتوظيف عناصره الأساسية في العديد من الأعمال الأدبية والفنية، ولذا كان لنص الذي ترجمه د. عوني كـــرومي مثيراً للانتباه، باعتباره نصاً مسرحياً، وهذا ما توضحه وتؤكده عناصر النص الفنـــية. كـــان الـــرثاء جنساً أدبياً، عرفه الأدب العراقي القديم. وعلى الرغم من قلة النصـــوص الخاصة بالرثاء، شكل هذا الجنس حضوراً في تاريخ الأدب العراقي، وتميز بمكانة مهمة ولافتة للانتباه. ويعتبر رثاء أور من المراثي الأولى. وتكرس حول غزو هذه المدينة وتدميرها من قبل العيلاميين / والسوباريين الذين أسهموا مع الأموريين في إنهاء حكـــم السلالة الثالثة المشهورة جداً في حكم العراق القديم، والتي انتهى مجال سيطرتها عـــام "٢٠٠٢" ق.م وحدد الأستاذ طه باقر في كتابه "مقدمة في أدب العراق القديم" فـــترة نظم هذه المرثية في الألف الثاني ق.م وخلال العصر البابلي القديم. ويرقى زمن أقـــدم نســـخ لنصوصها التي وصلت إلينا إلى عهد حكم الملك السابع من سلالة بابل الأولى "١٧٤٩ – ١٧١٢" ق.م وجمع نصها الكامل عن نحو (٢٢) لوحاً وتضمنت زهاء ٤٣٦ بيتاً، وانتظمت في إحدى عشرة قطعة، غير متساوية في عدد أبياتها.

وأول مـــا يشير إلى الخراب المرتقب، انتقال الآلهة المقيمة فيها، باعتبارها مركز عبادتها. وأول هذه الآلهة، الإله "إنليل" وكان لهذا الإله مع الإله "آنو" دور واضح في قـــتل وإبادة سكان المدينة وتخريبها،ولم يخفف الإلهان (إنليل – آنو) من غضبهما بعد

(*) ناجح المعموري، الأسطورة والتوراة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠٢.

توســـلات الآلهة (ننكال) وهي إلهة المدينة، والتي تطوعت لاستعطاف الإلهين (إنليل + آنو) نيابة عن زوجها "نانار".

اهـــتمامي برثاء أور، هو السبب الذي دفعني لدراسة الرثاء التوراتي، ومحاولة الإمساك بالمجال المتشاكل بين الخطابين، العراقي والتوراتي. لأن العراق ظل فترة طويلة، حاضـــنة للـــيهود في فـــترات تاريخية معروفة، واستفادوا فيها من العقائد والطقوس والشعائر والنصوص الشعرية الكثيرة، بحيث وصل تأثرهم لدرجة التطابق الكلي.

وشـــغلني نـــص "رثاء أور" باعتباره نصاً ملحمياً، تنوعت العناصر الفنية فيه، وكان للبشر دور مهم وحيوي، بالإضافة إلى الآلهة.

ولابـــد من إشارة بسيطة، لها صلة بالمستوى الفني للترجمة ووضوح التباين بين النصين المترجمين.

وعـــلى الرغم من ذلك فإني ميال لهما معاً. وسيساعدان المتلقي والمهتم بتاريخ الحضارات على رسم صورة مهمة عن الندب العراقي القديم وبالذات المراثي.

٧. المرجع التاريخي للنص

لقد تمثل النص مجموعة من المرجعيات التاريخية وقدمها بهذا الشكل الفني الرفيع. وتتبدى في النص مرحلة من أهم المراحل السياسية، التي تميزت بها السلالة الثالثة، التي حكمت مدينة أور، وحصراً الفترة التي حكم فيها الملك "أبي – سين" عندما هوجمت هذه المملكة ودمرت.

والذي حدث، هو أن المدن سقطت(*) واحدة إثر أخرى حتى تمكن البدو الرحل في النهاية "١٩٥٠ ق.م" أن يحتلوا المدينة ويأسروا ملكها. فعندما سقطت هذه المدن، ضعفت سلطة عاصمة المملكة السومرية،و لم يعد الأمراء يقدمون القمح إضافة إلى هجمات البدو والفلاحين، فضلاً عن تكاليف الحروب وما رافقها، كان سبباً في تمزق الحالة الداخلية، كانت في خارج العاصمة الهجمات شرسة. وقد انفصل أحد الأمراء عن السلطة المركزية لمدينة أور، وهو نفسه حررها بعد سقوطها بيد العيلاميين.

إن الصراع بين مدن المملكة السومرية التي كان لكل منها إله(**) أو آلهة خاصة بها، قد انعكس في النص وعلى شكل صراع بين الآلهة وانتصار الآلهة الجديدة. ذلك

(*) د. عوني كرومي، رثاء أور – الأقلام – ٦ – آذار ١٩٧٠.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص٩.

لأن صراع الآلهة وما يرافقه من كتابة أدبية أو درامية، ما هو إلا انعكاس للواقع. لهذا نجـــد في هـــذا النص كشفاً دينياً لشخصيات النص، إنليل + آنو + الآلهة الكبيرة التي كانت غاضبة على الإله ننكال والإله ناناز. وفي تلك الفترة حاول الملك "أبي – سين" أن يعقـــد(*) اتفاقـــية صلح مع العيلاميين، لكن الاتفاقية لم تدم. وما حدث هو سجن وأسر الكثير من أفراد الشعب. إلا أن تدمير وتحطيم أور لم يدم طويلاً، بل أعيد بناؤها وتشـــييدها مـــن جديد. وربما – كما قال العالم "ميتشل" – تكون فترة كتابة النص الدرامي هي فترة تشييد وتعمير المدينة، وضمن فترة الانتصار والعودة إلى المدينة. وربما – كمـــا قال ميتشل أيضاً – بأن تقديم هذا النص كان بمناسبة إعادة بناء معبد ننكال وناناز أو بمناسبة تحرير أور.

وصـــار نـــص رثـــاء أور، نصاً دينياً / وسياسياً، ولعب دوراً مهماً في صياغة طقوس دينية وشعائر ثابتة في مملكة أور. مثلما ساهم ببلورة ذاكرة مرتبطة بحياة الناس وتـــاريخ المديـــنة لأنه – النص – لعب دوراً وبفاعلية متميزة في إثارة الناس لحظتما تـــتعرض مملكة أور إلى الدمار أو السقوط، حيث يكون للنص فاعلية حركية وبلورة متصاعدة للمشاعر، من أجل اليقظة والنهوض، لمقاومة السقوط، والمحتل.

ومـــن خـــلال الأحـــداث التاريخية، ظهر لنا(**) بأن مدينة أور قد تم تدميرها وتخريـــبها مرات عديدة، وثم إعادة بنائها وتعميرها. فرثاء أور كنص ساعد السومريين مـــن أجـــل تفهـــم سبب دمار المدينة، كما سيساعد شعب أور على العمل لتحرير مدينتهم، فيما إذا سقطت تحت سيطرة الأعداء.

ووجـــود الآلهـــة المركـــزية في المرثية، دليل على تكرس هذه الآلهة واعتمادها كالآلهـــة الرئيسة في العراق ومدنه وممالكه. وقد لعب الآلهة دوراً – مهماً – في حياة

(*) د. عوني كرومي / سبق ذكره، ص٩.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص٩.

المـــدن ودويلاقمـــا، وتميز هذا الدور سياسياً / ودينياً، وسنلاحظ صعود هذا الدور في المـــراثي التوراتـــية، حيث حصل اختزال لأدوار الآلهة العراقية القديمة. بشخصية الإله اليهودي / اليهوي، وهذا ما ستكشف عنه مراثي إرميا والتي سندرسها لاحقاً.

لقد استمر الإلهان "إنليل + آنو" بالتعبير عن غضبهما الكاسح على مدينة أور. وظلت الآلهة "ننكال" مستمرة وساعية بكل قوهّا الدينية من أجل إيقاف الدمار الكلي / الشـــامل. وتقدم الآلهة ننكال أنموذجاً للعلاقة بين الألوهة المؤنثة والمدن / الممالك، لأنهـــا تطوعـــت مكتفـــية بذاهّا / من أجل إيقاف الدمار، وموت الناس، ويبدو هذا الموقف واضحاً بسبب صفة الألوهة وصلتها مع الأمومة / والتعالق الموجود مع الخلق. ولهذه الصفات، حاولت الإبقاء على الحياة والانبعاث.

نشر رثاء أور عن النسخة الألمانية له فوائد عديدة، لم يوفرها النص المترجم عن الإنكلـــيزية، وأول تلـــك الفوائـــد مســـرحة النص والمحافظة على عناصره الداخلية والخارجـــية. وهـــذا ما يؤكد دقة الرأي الذي أشار إلى أن النص يقدم في المناسبات السياسية والدينية في أور القديمة بعناصر الحياة الأساسية أو ما يشير لها في مملكة (أور). إلا أن الدمـــار اســـتمر، و اتســـعت مساحة الإبادة وكان الخراب كلياً، داهم المدينة كالإعصـــار (وامـــتلأت الطرقات والأبواب بجثث الموتى وتكدست بها. وتعالى أنين الجـــرحى وصراخهم، ولا من يغيثهم ويسعفهم. لقد هلك الأقوياء والضعفاء جوعاً، ومات كثير من الناس في حرائق بيوهّم، وجرفت المياه الأطفال والرضع. وأنكرت الأم طفـــلها وتخلـــت عنه. هجرت الزوجة ونُبذ الطفل والتهمت النيران المخازن والأهراء وعملـــت الفؤوس الضخمة في المعبد / ذلك الطود الشامخ / المنيع. لقد امتهنه ودنسه العيلاميون والسوباريون الذين أحلوا الدمار والخراب في المدينة).

هـــذا ما انطوت عليه رثائية (أور) مضافاً إلى عدد آخر من المجالات الأخرى / فكرية / وفنية.

٨. نص رثاء أور(*)

المقدمة:

رئيس الجوقة	عن معاقله وخلف أسواره توارى
الجوقة	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات
رئيس الجوقة	الثور الوحشي خلف حضائره وأسواره توارى
الجوقة	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات
رئيس الجوقة	سيد البلدان عن معاقله وخلف أسواره توارى
الجوقة	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات
رئيس الجوقة	زوجة "ننليل" خلف الأسوار توارت
جوقة النساء	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات
رئيس الجوقة	الإله عن أسوار معبدها-كيور توارى
الجوقة	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات
رئيس الجوقة	نانار الأوري خلف الأسوار توارى
الجوقة	والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

(*) د. عومي كرومي، رثاء أور، سبق ذكره.

رئيس الجوقة الإله سن وراء معبد أكشنوكال توارى

الجوقة والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

رئيس الجوقة زوجة الإله نيكال خلف الأسوار توارت

جوقة النساء والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

رئيس الجوقة الإله نيكال من معبد أنيونكوك توارى

الجوقة والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

رئيس الجوقة سيد مدينة كنيرشاك خلف الأسوار توارى

الجوقة والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

رئيس الجوقة تموز خلف معبد كنير شاك توارى

الجوقة والعاصفة تزمجر عاتية في المجارات

رئيس الجوقة وسيد مدينة كوابي توارى

الجوقة والعاصفة تزمجر عاتية في المدارات

المشهــد الأول:

رئيس الجوقة العاصفة تجثم في تخوم المعاقل تصخب هادرة في المدارات

رئيس الجوقة البقرة التي تحس العاصفة هجرت حضيرتها، ومنازل النبلاء مبعثرة في العراء "تصاحبهما الألحان

نانار أواه أيتها المدينة أرثي نفسك مر الرثاء واهمري الدمع

الجوقة البكاء مرير على خرائب المدن، البكاء مرير على أور الدمار

نانار بكـــاؤك مرير.. إلام يرثيك سيدك الحزين بمر البكاء، إلام يبكيك نانار الحزين عظيم البكاء.

رئيس الجوقة أوواه يا أسوار أور احزني واهمري الدمع الغزير. آه أيتها المدينة التي حملت اسم إلهها وانتزعت معه من الأرض. أوواه أيتها المدينة تلك أسوارك التي حمتك طويلاً، ورفعت إلهك هاهي تنتزع من الأرض

رئيس الجوقة أوواه يا مدينتي أنت نعجة حزينة سلب حملها.

أوواه يـــا أور الجليلة أنت نعجة انتزعوا جنينها من الأحشاء. أوواه أيـــتها المدينة تهاوت مقدساتك المتلألئة واستحالت ضيعاتك فيما بينها أعداء.

نانار بكاؤك مرير. إلام يبكيك سيدك المفجوع أمر البكاء إلام يبكيك نانار الحزين عظيم البكاء؟

المشهـــد الثـــاني:

رئيس الجوقة إلام البكاء ضارب على خرائب المدن، فاجع البكاء ضارب على أور الدمار "ترافقها الألحان"

رئيس الجوقة تراكم الحزن على المدينة. من نانار اغتصبت الأرض وعصف بأور الـــرثاء، وســـيدة المـــدن الشرعية ترثي أور الحبيبة. الآلهة ننكال مضطربة البال.

المعلق هـــاهي نـــنكال تقترب من المدينة، تبكيها مر البكاء. وعند سيد المعبد الخرب تدفق نواحها المرير تبكي معبد مدينة الدمار، السيدة تضع آلة النواح الناي على الأرض وتأخذ في الصراخ.

ننكال شردني عويل العاصفة، أنا التي يؤجج داخلي إعصار الرياح. الريح تعصف بوجهي طوال النهار.

ارتجف خوفاً مشلولة في قبضة الأيام.
عاصفة البؤس هذه حملت أسيادي الأحزان
يعصف فيّ عواء الرياح
ارتعب خوفاً من وحشة الليل، مشلولة في قبضة الريح
الرياح طرحتني بعيداً في ليل المعسكرات فاقدة الحياة
وفي أتونها اكتشفت الصراع والكفاح
لا.. لا قوة تسلبني إرادة النضال
شردت من بلدي، لكني أرفض الانحلال
الفقر والبؤس اجتاحا بلدي كطاعون وأنا أجهد
كبقرة ترضع وليدها خلف الأسوار
لا.. ولن أسلم بلدي إلى الطغاة
الفقر والبؤس اجتاحا وطني كطاعون
وأنا كطائر فوق مدينتي يخفق في السماء
وفي الصحراء صرخت بها غضبي
إلى الوراء أيتها العاصفة إلى الوراء
والأسفاه الهزال يهدني في مقارعة هبوب الرياح
أنا امرأة سيدها راعي معبد أنو المقدس
الذي لم يعمر طويلاً في الحكم

أغرقوني مع معبدي ومدينتي بالدموع والرثاء
أين أنت؟
أواه أيها الشعب ذو الرؤوس السوداء
لقد قرعوك باحتفالات طافحة بالحزن والغضب
أواه أيتها العاصفة الشريرة، أنت تحرمينني من
رؤية معبدي الشرعي الخرب وأججت في دخلي
مرارة النوح
معبدي الشرعي الذي شاده السيد
تماوى نوكال. بيتي الحقيقي
بيتي الملكي غرق بالحزن والدمع
استحال خراباً ورماداً
وإعادة تشييده أمر عسير
هكذا القدر أرغمني في هذا المصير
معبدي دفعته العواصف في برزخ قفر
ككوخ هشيم تنهشه عواصف المطر
أواه يا معبدي
أواه يا أور يا مدينتي الغنية
أور ملكي رحابها تغرق

نهبوا غلالها واكتسحت كحضيرة راع رميمة

المشهـــد الثالـــث:

المعلق أور غارقة بسيل الدموع "يرافقها اللحن"

الجوقة عندما حلت العاصفة كحاكم متجبر

وأودت بالمدينة وسيدها في الحضيض

ننكال طردت من أرضي، تركت مدينتي

ولأنني عزلاء من السلطة والنفوذ

وأمام أور سكبت الدموع

توسلت إلى "إنليل" الإله

قلت لهم مدينتي لن يمسها الخراب

أور لن يمسها الدمار

شعبي لن تقهره الرياح

لكن آنو لم يوقف الأخطار

و لم يستطع "إنليل" وآلهته

أن يشفوا قلبي من الحزن المرير

وثانية في الإجتماع في المكان العالي الرفيع

جلس آنو مهيمناً يؤدي الواجب الإلهي

بسطت ساقي وذراعي ممدودة شاكية هكذا

الجوقة أمامهم سكبت الدموع، توسلت إلى شخص "إنليل" قائلة

ننكال مدينتي لن يمسها الدمار

شعبي لن تقهره الرياح

لأن آنو لم يوقف الإعصار

و لم يستطع "إنليل" وآلهته

أن يشفوا قلبي من الحزن المرير

وصدر للعواصف أمر إلهي

أوامر قاطعة لتخريب أور

أوامر قاطعة لقتل شعبها الكبير

كأنني حددت لهم الموعد القريب

شردوني من مدينتي، سلبوا مني أور

لا رغبة للإله آنو بتغيير القرار

ولا رغبة للإله "إنليل" بتغيير القرار

المشهـــد الرابـــع:

رئيس الجوقة الإله إنليل استعان بكيبك وأنادي

على الريح السماوية الهائلة

صرخ "إنليل" بالعاصفة أمراً

أعطى لها صلاحية الدمار الرهيب

العاصفة الشريرة نادت على الرياح المدمرة
حملت بيدها المخطط الرهيب
العاصفة الشريرة تزمجر في السماء
العاصفة البغيضة تهدر في الفضاء
العاصفة الشريرة طردت رياح سومر الطيبة
طردت روح البلاد
الرياح الشريرة لا يمكن صدها كموج عات
تهجم سفينة المدينة
تدفع بها ممزقة إلى القرار
الشعب عند الأفق يجمع شتاته
وأمام العاصفة يتناثر كالنيران
العواصف والزوابع الإلهية
تطرد بالنار المطر
تقصف الأرض لهيباً

رئيس الجوقة الريح تعصف بالشعب ذي الرؤوس السوداء
وعلى سومر يهجمون بالعصى الغليظة
حجزوا الشعب داخل الأسوار الشاهقة
انقضوا عليه يلتهمونه

ننكال　العاصفة الشريرة لا يطردها الرجاء
العاصف البغيضة قيدت الشعب
شيدت على الأرض العبودية
تحركت العاصفة دوالياً
تهتك أعراض النساء
الجوقة　سلط الرعب على الشعب كنار حارقة
عاصفة "إنليل" البغيضة
اقتحمت المدينة من الشباك
صبت الوباء على المعابد والأسوار

المشهـــد الخامـــس:

المعلق　هجمت العاصفة الهادرة
صبت غضبها على المدينة
واستحالت أنقاضاً رميمة
الجوقة　مدينة نانار الرب
تحولت إلى ركام بغيض
طردت من البلاد الريح الرحيمة
الشعب مبعثر في البراري الرحيبة
رئيس الجوقة　في أسوار المدينة حدثت ثغرة كبيرة

الجدران أصبحت بوابة مفتوحة وحيدة

جرجروا الشعب إلى ساحة الاحتفال

وفجأة ظهر القدر أفعى حثيثة

تساقطت الجثث في الساحات ثكلى غزيرة

إلهة النار تدفع بكتل الأجساد

في مصهر الرصاص والنحاس

ذائبة كشحم الخراف على أتون الشمس النارية

المعلق الذين ألقوا بفؤوس القتال بعيداً

أصبحوا كخرقة بالية

مثل غزال مصاب الساق

مرغوا أفواههم بالتراب

والمصابون بالرماح

لم يسعف أحد تلك الجراح

كنّ يصرخن كصراخ الولادة

كصراخ أمهات في احتضار

الذين ألقوا بأسلحة الآلهة جانباً لم ينالوا الرحمة ولا الطعام

وقبل تجرع الثمالة

سقطوا صرعى على الأرض

ضحايا السلاح، هم الموتى العزل

أما الرجال الأحياء فوقفوا بصمود شامخ

ضد هدير العواصف الهوجاء

الجوقة في أور سحق الجوع الضعفاء والأقوياء

اقفلوا البيوت على الآباء والأمهات

الصغار مستلقون في أحضان الأمهات

سبحوا في عرقها كما يسبح السمك في الماء

رئيس الجوقة الحراس الأقوياء فقدوا القوة

سيد البلاد أصابه الخراب

حاكم البلاد سقط في القرار

أشاحت الأم بوجهها عن الأطفال

هرب الآباء عن الأبناء

الجوقة على أرصفة المدينة مرغوا الأزواج على التراب

على أرصفة لمدينة ضربوا الأطفال

وفرضت الضرائب وانتهكت الأملاك

هرعت الوجوه السوداء مذعورة

تبحث عن مأوى في سائر الأرجاء

رئيس الجوقة هربت سيدة المدينة مثل طائر آفاق ننكال هربت من المدينة كطائر

آفاق

ننكال هربت من المدينة كطائر آفاق

رئيس الجوقة	يد الخراب هدّت البلاد
	وشبت النيران في الغلال
الجوقة	وهدّ جيبيل الرجل الباهت اللون القنوات
	بفؤوس قاضية
المعلق	العلاميون والبرابرة حصلوا على ثلاثين قطعة نقود
	جزاء وحشية الأفعال
رئيس الجوقة	سلطوا على المعابد الشرعية آلات الدمار
	أحالوا المدن إلى خرائب حقيقية
	وتصرخ السيدة من خلال الدموع
ننكال	آه يا مدينتي، آه معبدي
رئيس الجوقة	ننكال تصرخ حزينة غارقة بالدموع
ننكال	آه يا مدينتي، آه يا معبدي
	أنا امرأة مدينتي خراب
	وبيتي ركام
	آه يا نانار شعب أور قتيل وشريد
	آه يا نانار مدينة أور في دمار

المشهـــد الســـادس:

رئيس الجوقة	النساء تنوح خلف البيوت والأسوار

العاصفة الشريرة دمرت المدينة "أناشيد"

رئيس الجوقة	دخلت إلى المدينة ننكال كعدو خلسة

وناحت على مقدسات المعبد بالصراخ

ناحت على مقدسات أور بالخراب

ننكال	سلط آنو اللعنة على مدينتي

وحلّ الخراب

"إنليل" اغتصب معبدي

وسلط الدمار

معلق	ومن تحت الأسوار قذف المدينة بالنيران

ننكال	آه يا مدينتين لقد هدها الخراب

المعلق	ومن الذرى قذفها الإله إنليل بسيل النيران

ومن خارج الأسوار قذفها بسعير النيران

ننكال	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ

المعلق	ومن الجوف حطمت النيران المدينة

ننكال	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ

المعلق	ومن الجو حطمت النيران المدينة

نتكال		آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ

منازلي في المدينة استحالت إلى دمار

آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ

منازلي في ضواحي المدينة استحالت إلى قفار

آه يا أور يتحتم عليّ الصراخ

امرأة (١)		مدينتي لم تعد كأم حنونة

الجوقة		آه يا مدينتي لم تعد أماً حنونة

كنعجة توارى عنها راعيها الأمين

المرأة (٢)		أبقاري هربت من حضائرها

واختفى بعلها الحنون

المرأة (٣)		أغنامي هربت من أسوارها

رئيس الجوقة		واختفى راعيها اليافع الرحيم

رجل (١)		غمر المطر قنوات مدينتي

مملوءة كالقبور

رئيس الجوقة		اختفى وجف فيها سيل الماء العليل

رئيس الجوقة		اختفى الفلاح

نتكال		و لم تعد حقولي تنتج القمح

حقولي يغمرها الموت

يملؤها مغشوش العشب

حدائقي العامرة بالعسل والخمر

تملؤها الآن عناقيد الشوك

جنائني الطافحة باللذائذ

استحالت مصهراً يقذف الموت

اختفى الرجال

كطير سقط من السماء جريح

نكال — آه يا رجالي لقد هربتم في منحدر

ومنحدر عميق

وهكذا يتحتم عليّ القول

آه يا قومي، لقد تلاشيتم في الحضيض

هكذا يتحتم عليّ القول

تعبثرت حليّ ومجوهراتي الثمينة

آه قومي، هكذا يحتم عليّ القول

المعلق — جهلة لا يفقهون نادر المعادن

رمدوا بها الأجساد

نكال — طيوري الحبيبة هربت من أقفاصها

آه يا مدينتي هكذا يتحتم عليّ القول

فتياني هربوا باكين

آه أحبتي هكذا يتحتم عليّ القول

نانار ويحي أبنائي يحملون إشارات مدن غريبة

المرأة أبطالي سكان عدن

في الغربة وفي السجن قابعون

نانار ويحي مدينتي استحالت سراباً

وضاعت مني سلطتي

المرأة آه يا نانار

أور فقدت الوجود

وأضعت فيها سطوتي

آه يا نانار

معبدي تحول خراباً

مدينتي تحولت إلى الدمار

نانار يا سيدتي الكبيرة أنا من يبني لك مدينة

غيّر هذا المعبد

ننكال لكن مدينتي تحولت قفاراً

ومعبدي هده الدمار

نانار لا لا يبنى لك معبداً آخر

ننكال غيّر هذا المعبد

ننكال ويحي لقد تحطمت المدينة

واستحال المعبد إلى خراب

آه يا نانار

لقد هوت مقدسات أور

وذبح البرابرة الشعب

ويحي أين ألجأ، أين أذهب؟

ويحي واأسفاه

لن تبنى مدينة ولا معبد يقام

نانار سيدتي

لا معبد ولا مدينة غيرها تقام

ننكال يشيد هنا في الرحاب

لقد تشرد القوم عن مدينتي

وعن جنائن عدن الخضراء

يا أبناء وطني هكذا يحتم عليّ الصراخ

الجوقة تشرد القوم من أور الحبيبة

آه يا معبدي

المعلق المرأة تستغيث من محمومة

آه يا مدينتي... آه يا مدينتي

ننكال: تنتزع الشعر من الأقحاف

المعلق عيناها مليئتان بالدمع

تنوح بأصداح الناي

ننكال ويحي لن تبنى مدينة أخرى

لن يشيدوا معبداً في الرحاب

نانار لسيدتي الكبيرة يشيد معبد آخر

ننكال ويحي مثلي كبقرة أضاعت الحظيرة

ويحي أنا السيدة الكبيرة

مثلي كراع تهاوى

من ذرى الأسوار جريحاً

ويحي فقدت الأمل وراحة البال

طردوني من المدينة

ويحي أنا السيدة لا يحتضنني مأوى

أهيم كغريب في مدينة غريبة

آه كنت أحيا هينئة

أما الآن فأسكن بؤس القفار

المعلق لأتفه بكلمة حول سيدة البلاد

في هذه اللحظات تقترب إلى نانار

ننكال — أواه يا أسوار أور

الغارقة في السيل العارم

أواه يا معبدي الخاوي

أواه يا مدينتي الصامتة كميناء مهجور

نانار — أنت تقبعين في الركام

كثور طريح جريح

ننكال — ويحك هل إعادة تشييد المدينة

أمر عسير

نانار — أواه أيتها المرأة

أواه يا مدينة أور

أواه أيتها المقدسات

دم القرابين في جفاف

أواه يا أنكولوك يا معبدي الطهر

كنت تميد بالحشد

واليوم يملؤك صفير الرياح

أواه يا مدينة الضياع

أواه يا مدينتي الغارقة في القرار

أواه يا مدينة الاحتضار

أواه يا مدينة عصفت بها شر الرياح

أواه يا معبد سين في أور

إن خرابك مر

المشهـــد السابـــع:

المعلق آه يا مدينتي، آه معبدي

"أناشيد"

نانار سيدتي ستقيمين هنا

كما يحلو لك المقام

آه يا ننكال ستقيم هنا

كما يحلو لك المقام

آه يا سيدتي الشرعية، لقد دمرت المدينة،

والآن عامرة تتألق بضوء النهار

نانار آه يا ننكال، يا من عصفت بالمدينة هباباً

أما الآن فأحيا كما يطيب لك المقام

مدينتك هدها الطوفان

أما الآن فتشع بالضياء

وبعد غرق المعبد

أعيد شامخاً البناء

مدينتك كانت غريبة

أما الآن فهي عامرة الأرجاء

هذا هو معبدك الذي أغرق بالدموع

أما الآن فانعم بظليل الأرجاء

مدينتك كانت غريبة

واليوم تتألق بالبهاء

مدينتك كانت ركاماً

وأنتم مشردون في البراري القفار

أما الآن فانعموا بالراحة والاستقرار

معبدك الذي شيد من الحجارة شاهقٌ

جموع الشعب بحاجة إليه

فاخرجوا راقصين باحتفال

لست بحاجة إلى مذبحة

كالتي وقع فيها شعب الرؤوس السوداء

لم تعودي بحاجة إلى المذبحة الشنعاء

نضبت على الأرض الدموع والتوسلات

الأرض أنجزت الوعد وأخرست الأنين على الأفواه

مدينتك كانت أنقاضاً
والآن تتألق بالبهاء
معبدك كان هشيماً
أما الآن فينعم بالرفاه
أور المقدسة، كانت تنهشها الرياح
أما الآن فهي زاخرة بالأفراح
بشيشو لم يعرف التألق
والآن ينعم بالضياء
السيدة: لم يحافظ على جيبار سالمة
أما الآن فينطلق بالقناعات
سارق المقدسات يرجعها ثانية
إلى شعبك ذوي الرؤوس السوداء
الأب نانار ويعيد الجنائن المقدسة
وسيدي العظيم في كيكون لم يعد متلفلفاً
لم يعد متلفلفاً في خرقة من قماش
والسيد الشرعي الحبيب
الآن، يحيا باسماً في أشنيكار
والسيد الأعظم جذل لم يغادر الأسوار

المعلق	الزينة لم تنجز في (أهو) مقام الاحتفالات

و لم يبدأ النقارون ولا الضاربون الاحتفال

وشعبك ذو الرؤوس السوداء لم يغسل الأدران

كقيعان الأواني السوداء

أما الآن تنعم الهيئة بالبريق والجمال

نانار	أما أغانيك الحزينة فلتصبح طروبة تصدح في الآفاق

ننكال	ليتم تنفيذ الأمر سريعاً

المعلق	موسيقى الشعب النائمة تحولت إلى الأفراح

الجوقة	أبقارك عادت إلى حظائرها

وستنعمين بالألبان

أغنامك عادت إلى حظائرها

وستنعمين باللحم والأصواف

وعمال الحظائر الذين لم يقدموا العطاء

أما الآن فينتظرون الإشارة

والرعاة الذين لم يجلبوا رضائع الأغنام

أما الآن فيمتثلون لصاحبة المقام

والسماكون الذين جفت أنهارهم

الآن ينتظرون مشيئة الأرباب

والصيادون الذين أصابهم الكفاف
هم الآن طوع سامية المقام
ومياه أنهارك الناضبة
الآن عامرة بمواكب السفن
تروي حقول الزنبق والأقحوان
دروبك المليئة بعناقيد الشوك
تمخر رحابها العربات
مدينتك تنتظر كأم حنون
عودة ملكة التخوم
أور تبحث في الأرجاء
كطفل هائم يبحث عن أمه الحنون
معبدك يمد اليد إليك
كلهفة رجل يحتضر
أسوار المعبد الشرعي تنادي
أين أنت ... أين أنت
سيدتي.. لقد أحببت شعبك
هل تعتزمين الرحيل عن المدن
الأم ننكال كبقرة في الحظيرة المعلق

الأم تنكال كخروف في الحظيرة

الإله الأكبر أنت معنا كبقرة في حظيرتك القديمة

أنت هنا كبقرة في حظيرتك القديمة

أنك امرأة يافعة في مخدعها الوثير

إنك قديسة في معبدك القدير

"آنو" سيد الآلهة ملزم منك

بانتزاع قناعة الرجوع

"إنليل" ملك البلاد ملزم

أن يقرر المصير

مدينتك الشرعية الشامخة

يعود الإله إليها في سلطانه العظيم

أور الحبيبة الشامخة

يعود الإله إليها في سلطانه العظيم

المشهـــد الثامـــن:

المعلق لقد تغير قدري

- أناشيد -

رئيس الجوقة آه أيتها العاصفة البغيضة

لقد دحرك شعب البلاد

عواصف السماء الهائلة

زمجرت في ضروب الزمان

زرعت الألم في أرجاء البلاد

الجوقة   دحرها شب البلاد

رئيس الجوقة   العواصف التي هدّت المعابد والمدن

الجوقة   دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة   العواصف دمرت شاهق الأسوار

وأطلقت عباب المياه

الجوقة   دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة   العواصف التي نالت بالأيدي القذرة محارم المقدسات

الجوقة   دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة   العواصف التي أجهضت الطيب في البلاد

الجوقة   دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة   العواصف التي شردت الشعب ذوي الرؤوس

السوداء

الجوقة   دحرها شعب البلاد

"أناشيد"

٩. شخصيات النص(*)

يمكن تقسيم الشخصيات المتصارعة في النص إلى:

الآلهة التي دمرت مدينة أور وهي / إنليل / آنو / مونليل:

أمـــا الشخصيات الأخرى التي كافحت من أجل المدينة: الآلهة ننكال ونانار / وشـــعب أور. ونجد من خلال الأخبار في نهاية النص، أن مواقع الصراع تتغير ويصبح الإله الغاضب راعي المدينة وحامياً. وبهذا يحقق فعل التحول في بنية الشخوص، خلال الصـــراع. مثال ذلك الإله "إنليل" الذي هو في النص كبير الآلهة، مثلما هو حقيقة في مجلـــس الآلهة "البانثيون" العراقي، قد حطم المدينة مع جماعته، وكذل أعيد بناؤها بأمر منه. لكن هذه الشخصيات ليست واضحة وضوحاً درامياً / وتاريخياً(**)، لذا نرى أن "إنليل" في الأصل هو إله العاصفة / أو الريح، وهو رئيس مجلس الآلهة عند السومريين / والآكديين، وهو الأقوى والمسؤول عن كل شيء وباستطاعته أن يقوم بكل الأعمال الخـــيرة والشريرة، ونانار ابن كبير الآلهة إنليل ونليل ويقابله عند الآكديين الإله "سين"

(*) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص٩.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص٩.

ونانـــار هـــنا إله القمر وزوجته ننكال – كما تقول الأسطورة – وقد خلقوا الإله – أوتو – إله الشمس.

أن الإلهـــين الـــزوجين كانا إلهي مدينة أور، وبالرغم من أن هناك شواهد على أنهما – في بعض السلالات – كانا إلهي مدن أخرى.

إن الشخصيتين المركزيتين "ننكال ونانار" يمثلان بعضاً من وظيفة الآلهة "أنانا / عشـــتار" إلهة الرغبة والحب وكذلك الإله دوموزي / تموز، ولهذا أعتقد ميتشل ونوح كريمـــر مـــن أن النص يعود للإله دوموزي / تموز وطقوسه المعروفة. واستناداً إلى هذا الافـــتراض نستطيع أن نعود بأذهاننا إلى عروض الزواج المقدس، وما تطورت عنه من نصـــوص درامـــية، مثلما تطورت دراما موت تموز عند البابليين بمأساة الإله "بعل / مردوك".

نعـــرف من خلال نص "رثاء أور" أن الشخصيات الرئيسة للدراما هي الآلهة، وأنصـــاف الآلهـــة / والشـــعب. ويؤكـــد الأستاذ "ميشل" بأن سبب هذا الاختيار للشخوص، يعود لاعتقاد السومريين من أن الإله رمز لظاهرة مهمة وحاسمة في الطبيعة مـــثل الـــنار / المـــاء / الريح، التي كانت تلعب دوراً أساسياً في حياة المجتمع القديم، والســـبب الـــثاني، هـــو أن لهذه الآلهة ممثلين على الأرض حاولا أن يمنحوهم صفات الألوهـــة وخاصة الملك، ومن هنا يمكن أن نقول أن الصفة الدرامية للشخصيات هي تكثيف لرموز الصراع في الحياة.

عـــندما قـــرر الآلهة تدمير مدينة أور وبلاد سومر عطلوا العمل تماماً بالنواميس الإلهية المعروفة بالمي (ME) والتي كان عبرها تدار شؤون الحياة والكون، وبعد حصول الدمـــار وجفـــاف الحقول وجدب النهار، تعطلت علاقة الإله نانار بمدينة أور، وسمح

للأغراب بدخولها واحتلالها وأخذ ملكها (أبي – سين) أسيراً إلى بلاد عيلام، و لم يعد منها – كما قال العلامة طه باقر.

إن نـــص "رثـــاء أور وبلاد سومر"(*) مختلف عن المرثيات الأخرى، في شكله الخـــاص ومحتواه. وقد انتبه مؤلف الرثاء إلى أهمية المفردة وانتقائها لتعبر عن محنة المدينة وحزن الناس العميق. لذا ظل المتلقي في صلب النص، مأخوذاً بقوته المأساوية وصعود عناصـــره الدرامـــية. ويشعر المستمع بكآبة وضيق صدر، تثقله رتابة النواح وتكراره وتنشد هذه المرثية، في مناسبات اللوعة والبكاء على ماضي ليس ببعيد، كانت تنعم فيه بلاد سومر ومدينة أور بازدهارها وبمجدها.

ويـــبدوان ســـبب طغيان نبرة الحزن والتفجع المرتفع، هو المصير الذي آل إليه الملـــك (أبي – ســـين) وهو حفيد الملك "شولكي" وترك مصيره في الأسر حزناً كبيراً وهمومـــاً واضحة في نفوس الناس. ولهذا السبب كانت المراثي، وخصوصاً هذه المرثية الطويلـــة، المشحونة بالحزن والتفاؤل والانبعاث أيضاً. وتضمن هذا النص – كما قال طه باقر – أسماء الكثير من المدن السومرية التي اجتاحها الخراب والدمار، وبلغ عددها أكثر من أربعين مدينة ابتداء بمدينة كيش / وأريدو / أور / وسومر.

وأكـــثر الأصوات إثارة للمشاعر والتكافل، صوت الآلهة الأم / السيدة العظيمة – نـــنكال – الـــنادبة لمدينتها العظيمة أور / وهلاك أهلها، ويشتد حزنها وهي ترى الخـــراب يكتسح مملكة أور وبلاد سومر كلها. لذا ارتفع صوت الأم العظيمة بالبكاء والعويل.

(*) قاســـم الشـــواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، الآلهة وابشر، قدم له: أدونيس، دار الساقي، ١٩٩٧، ص٢٨٣.

ويقف مواجهاً للأم العظيمة ننكال، الإله المتغطرس "إنليل" الذي يحتفظ بتاريخ معـــروف في الويلات وتسبيب الطوفان والأوبئة، يقف ضداً للأم ننكال، حيث رفض وبعنف توسلات الإله "نانار" وتضرع الأم "ننكال" واكتفى بمراقبة ما يجري من دمار / مـــوت وانتهاء كامل للحياة. ويستمر إنليل برفضه لتوسلات الإله "نانار" واستغاثاته المتكررة من أجل إنقاذ مدينة أور، والحفاظ على معبده فيها. و لم يكتف (إنليل) برفض الطلــب، وإنمـــا أسمعه قاسي الكلام ووبخه على تشفعه لمدينة أور / التي كتب عليها الدمـــار في مجمـــع الآلهـــة، وهو قرار لا يبدل ولا يرد. فإنّ أور استوفت نصيبها من الملوكـــية. وينبغي نقلها إلى مكان آخر، لأنه لم يقدر أن تدوم الملوكية في بلد واحد. وأمـــر "إنلـــيل" إلـــه المدينة أن يتخلى عن مدينة أور. قال الأستاذ / العلامة طه باقر: فهجـــرها على عجل ومعه زوجته – ننكال – وبقية آلهة المدينة. وعندئذ أسلمت أور إلى أعدائهـــا، فاعملوا فيها الدمار والقتل والنهب، وأضاف الأستاذ – باقر – وسلط على من بقي منهم حياً القحط والمجاعة واستسلم المدافعون عن المدينة وفتح أبوابها إلى العيلاميين.

وفي المشـــاهد الأخـــيرة، يضيء النص لنا مأساة مملكة أور، وما عاشته الآلهة ننكال، وهي ترى بعينيها خراب المدينة واكتساح معبدها.

إنها بكائيات "ننكال" / الأم في أور وهي ترى انهيار كل شيء.

وفي المشاهد الأخيرة، تتضح قوة المرثية وصدمتها وفجيعة الإلهة الأم وخسارتها. إنه مشهد درامي مثير، لا تقوى النفس على ضبط إيقاعها وهي تقرأ هذه الأناشيد.

ويرتفع رثاء الأم العظيمة / السيدة التي تكلمت(*) بحزن عن مدينتها والأسباب التي دفعت إلى تحطيمها، ويشتد تأسي الشعب، وتصاعد الأزمة العامة سياسياً / ودينياً.

(*) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص١٠.

فالنســـاء يبكين أمام "ننكال" التي تأثرت وارتفع فعلها المأساوي، حيث تهاوت القوة التي استهدفت المدينة. ويتجسد الفعل المختلف حيث الأم "ننكال" ومن خلال مأساتها تحــث شعب أور على الوقوف أمام هذا القدر. ويوحي النص بأن مأساة الأم العظيمة "ننكال" ستتغير حتماً. بعدما يبدأ الإله "نانار" بحاله التكافلي مع الأم العظيمة، والسيدة "ننكال" وتقترب من الإله "نانار" مثل شخص يشتكي لشخص أكبر منه. ويبلغ النص في هذا ذرته السببية / الدرامية.

ويدخل شعب أور طرفاً مهماً بالمشاركة مع الإله نانار، ويرثيان حتى الآلهة التي أخطــأت وغادرت المدينة المهدمة والتي اجتاحها الوباء، وخيم عليها الخراب الكامل وتلعب الأم دوراً جديداً، ومهماً متمثلاً بصرختها للآلهة كي ترجع إلى أور، ومن أجل إعادتهـــا لحظيرتها الأولى / السياسية / والدينية، ويعاد البناء والإعمار ويعالج كل الذي دمره الخراب.

وفعـــلاً يـــتحقق فعل العودة / و لم يكن فعلاً مجرداً، وإنما متزامناً مع الإصلاح والتشـــييد، وعودة السكان إلى مدينتهم وهم يمارسون طقوس الاحتفال والنصر ثانية وسط مدينة لن تنسى أبداً ما حصل لها، حتى لا يتكرر ذلك مرة ثانية.

* * *

سنقدم بعضاً من مقاطع "رثاء أور" وبترجمة مختلفة لأنها تميزت بشعريتها العالية، والغرض من ذلك توفير فرصة أخرى للمتلقي في تعامله مع نص مثل "رثاء أور"

من حظيرته ولّى وغاب، في حرمه(*)
تنفخ الريح
الثور، من حظيرته ولّى وغاب

(*) قاسم الشواف،/ ديوان الأساطير، سبق ذكره، ص٢٨٣.

في حرمة تنفخ الريح

سيد كل البلاد، ولّى وغاب

في حرمه تعصف الريح

الإله إنليل من معبده في نفر

ولّى وغاب، في حرمه تنفخ الريح

المجموعة:

معبد الإله مُدَمَّر مدينته

أغرقتها الدموع

عند ذلك أيها الإله نانا، الناس

في بلدك تمّت إبادهم

وأور ضاعفت تفجعاتها

الآلهة، السيدة المقدسة، لكي

تنوح علي مدينتها أور

ديوان الأساطير / ص٣٩٤

* * *

في ذلك اليوم، عندما أصابت

العاصفة قلب الإله القمر "نانا"

المدينة، أمام سيّدها، تم تخريبها

في ذلك اليوم، عندما أحزنت

العاصفة قلب الإله

وعندما أصدر الأمر بدمار مدينتي بكاملها

عندما أصدر الأمر بدمار مدينتي بكاملها

عندما أصدر الأمر بدمار أور بكاملها

وعندما أعطى الأمر بإبادة شعبها

في ذلك اليوم، أنا، من أجل

إنقاذ مدينتي، لم أتراجع

عن بلدي، أنا، لم أحول قدرتي

أمام "آنو" سكبت دموعي

أمام الإله "إنليل" أطلقت

شخصياً تفجعي

يجب ألا تهدم مدينتي، قلت لهم

يجب ألا تهدم (أور) قلت لهم

يجب ألا يباد شعبها

ولكن "آنو" لم يستجب لهذه الكلمات و

والإله "إنليل" عندما قال "حسناً، حسناً"

لم يشف غليل قلبي

وللمرة الثانية، عندما عقد اجتماع

المجلس الموسع

وعندما اتخذ "الأنونا" الإلهيون أماكنهم

وهم الذين تصبح بواسطتهم

كلمات الآلهة ارتباطاً

* * *

أصدروا قرارهم بتدمير المدينة

بتدمير أور، أصدروا قرارهم

ولشعب "أور" قرّروا الإبادة

ديوان الأساطير / ص٣٩٩ — ٤٠٠

* * *

أيتها السيدة، هذا ما يشعر به قلبك

هذا ما آلت إليه حياتك

أيتها الآلهة.. هذا ما يشعر به قلبك

هذا ما آلت إليه حياتك

أيتها السيدة المقدسة، أنت التي هدّمت

مدينتها، مثل ما نحن ننشد، هكذا أنت أنشدت

أيتها الآلهة ... أنت التي دُمرت بلادها

هذا ما شعر به قلبك

بعد تهديم مدينتك، مثل ما نحن ننشد
هكذا أنت أنشدت
بعد تخريب معبدك، هذا ما شعر به قلبك
مدينتك أصبحت مدينة غريبة، ومثل ما نحن
ننشد، هكذا أنت أنشدت
معبدك أصبح بيتاً للدموع
هذا ما شعر به قلبك
ما عدت سيدة مدينتك
التي حُولت إلى أنقاض
ما عدت تستقرين كساكنة في معبدك المقدس
الذي هدّمه الفأس
ما عدت تقودين كعاهلة
شعبك الذي اقتيد إلى المذبحة
ما عدت تملكين دموعك
بلا دموع، وبلا ميراث
أصبح في بلد غريب ساكنوه
شعبك وكأن الكلمات أتعبته
أبقيَّ فمه مغلقاً

ديوان الأساطير / ص٤١٤ — ٤١٥

* * *

يا للبؤس! يا للمصير! أريد أن أصرخ
مرّ هو مصير مدينتي
أنا السيدة، آه يا عبدي المهدم، أريد
أن أصرح، مرّ هو مصير معبدي
آه! يا جدار أور، يا جداري الذي هُدّم
جداري الذي أصيح به!
يا معبدي المقدس، يا مدينتي التي تحوّلت إلى خراب
في أنقاض معبدك المقدس والمهدم
تمددت بالقرب منك "يا مدينتي"
مثل ثور مذبوح
عن جدرانك لا أستطيع الانسلاخ
يا للكارثة! بناؤك كان خداعاً
ومرير هو خرابك

المشهـــد التاســع:

الجوقة — العواصف التي تجهل مكانة الآباء
دحرها شعب البلاد
رئيس الجوقة — العواصف التي تجعل رابطة الأزواج
الجوقة — دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي تجهل رابطة الأزواج

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي تجهل حنان الأخوات والأخوان

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي تجهل بؤس الفقراء

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي تجهل سمو العقلاء

الجوقة دحرها شعب البلاد

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي اجتثت الأطفال والأحياء

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي زرعت بغيض الأفعال

الجوقة دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي فجرت العنف في البلاد

دحرها الشعب

الشعب ذو الرؤوس السوداء

السيد أيها الأب نانار

تحطيم العواصف الهوجاء حتمي كالضياء

ونوقف تشريد شعبك ذوي الرؤوس السوداء

ونمنع هبوب العواصف

كمطر من السماء

وليعم الحب السماوي على الشعب

ولنـــزل أحداث الحزن

في تلك الأيام

وتغلقها كبوابات الليل الكبيرة

ويجب إهمال ذلك الضرب من الأيام

وتعليقها على خطاف خارج بيت – إنليل – الجليل

المشهـــد العاشـــر:

الجوقة لقد ولت أيام العاصفة المريرة

والمستقبل يبدأ بعد الانتصار

"أناشيد"

الجوقة البلاد شيدت منذ زمن قديم

وعبّد الشعب يا نانار دربك بالقرابين

وضمخ الطيب الشعب ذا الرؤوس السوداء

الذي يكن لك عميق لحب والاحترام

مدينتك التي كانت ركاماً

ترفع إليك قدسية الابتهال

آه يا نانار

المدينة المشيدة

تعود إليك الآن شامخة ساطعة

تقترن بك بشكل أزلي

الجوقة	ملكة المدينة المشردة

توسل إليك كقرابين ضارعة

الملكة	أيها الرب

أيها الملك العظيم

يا من تحمل أقدار المدن

هاأنذا أتحرر طليقة من مرارة الحزن

المعلق	الإلهة الأم استحوذت على حقه

ستملأ قلبها الطمأنينة

الملكة بحاجة قصوى إلى عطفك الإلهي

وفي وجهها الذي حمل التضحية دوماً

تجد الصدق

الملك	آه يا نانار

إن نظرتما تعيد الأمل في قلوب الجموع

ويشفي شعاعها الألم المرير

وتحيا أزلية في القلوب

آه يا نانار. يا نانار العظيم

مدينتك شيدت شامخة

تلهج لك خاشعة

بثناء الشكر والمديح

١٠. رثاء الأصدقاء

عرفـــت التوراة المرثية الفردية مع تميزها الواضح بلغة شعرية عالية، متماثلة مع بعـــض الأسفار الشعرية التي عرفتها التوراة ومرثية شاول ويوناثان تمثل نموذجاً للتركيز والمحافظة على البنية الأساسية للغرض الذي كتبت من أجله. وانطوت هذه الرثائية على عناصر لم تبتعد كثيراً عن عناصر رثائية الملك جلجامش لصديقه إنكيدو. وتكاد رثائية داود تـــتطابق مـــع رثائية إنكيدو المشهورة، والتي صاغت بعضاً مهماً وفاعلاً في نص مـــلحمة جلجامش المعروفة. ولابد من الإشارة لأهم العناصر المشتركة بين الاثنين ولو بشكل سريع:

١. كلاهما ملكان "جلجامش / داود"

٢. ارتبط كل منهما بصداقة حميمة جداً مع الآخر.

٣. الـــتزم كـــل مـــنهما بميثاق مع الآخر في رحلة العمر الطويلة المحفوفة بالمخاطر والأهوال.

٤. طلـــب جـــلجامش من الصناع والصفار إعداد تمثال لصديقه ووضعه في مدينة أوروك تخلـــيداً له ولـــبطولاته الطويلة. أما الملك داود، فقد أمر بأن يتعلم "بنو يهوذا" مرثية شول ويوناثان.

٥. لقـــد حقـــق إنكـــيدو أكثر من انتصار لمدينة أوروك متعاوناً مع صديقه الملك / جلجامش

ونادى صناع المدينة وصاح بهم:

أيها الصفار والصائغ والجوهري

ونحـــات الأحجار الكريمة اصنعوا لي تمثالاً. لخلي ثم نحت لصديقه تمثالاً جاعلاً صدره من اللازورد وجسمه من الذهب ونصب منضدة من الخشب القوي

وإناء من اللازورد مملوءاً بالزبد

وقرب ذلك إلى "شمش"

وشرع يندب صديقه ويرثيه

الملحمة / ص١٢٧

"ورثى داود شاول ويوناثان ابنه بهذه المرثية وأمر بأن يتعلمها بنو يهوذا".

صموئيل ٢: ١: ١٧

٦. لعـــب الـــدور السياسي / والديني مجاله الواضح في تحقق فعل القتل / الاغتيال. حيـــث قرر الإله "إنليل" ولوحده في مجلس الآلهة اغتيال إنكيدو. وأصيب الملك شـــاول ويوناثـــان في حـــرب انهزم فيها الجيش وقتلا في النهاية. ولموتهما سبب سياسي / ديني / وعسكري.

٧. كـــان للإلـــه إنليل – كما قلنا – دور فاعل وأساسي في اغتيال إنكيدو. وحتماً كـــان للإله اليهودي دور هو الآخر في الذي حصل ومثلما تشير الأسفار للصلة بـــين يهـــوه والوقـــائع الحاصلة. فكل الذي يتحقق من انتصار وهزائم، خراب ودمارات، كلها بإيعاز من الإله اليهودي.

٨. تدخـــل الذات الملكية / المقدسة والرجال في وظيفة الندب والبكاء على الخسارة الكبيرة والفجيعة التي حلت

يا إنكيدو إن أمك ظبية وأبوك حمار الوحش

وقد ربيت على رضاع لبن الحمر الوحشية

لتندبك المسالك التي سرت فيها في غابة الأرز

وعسى ألا يبطل النواح عليك ليل نهار

وليندبك شيوخ أوروك، ذات الأسوار

الملحمة / ص١٢٥

ليبكك من عظم أسمك في أريدو

ومن مسح ظهرك بالزيت المعطر وسقاك الجعة

ولينح عليك من أطعمك الغلة

ولتبكك الأخوة والأخوات

الملحمة / ص١٢٦

اسمعوني أيها الشيبة وأصغوا إلي

من أجل "إنكيدو" خلي وصاحبي، أبكي

وأنوح نواح الثكلى

الملحمة / ص١٢٦

فجس قلبه فلم ينبض

وعند ذاك برقع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبؤة التي اختطفت منها أشبالها

وصار يروح ويجئ أمام الفراش وهو ينظر إليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورماها، كأنها أشياء نجسة

الملحمة / ص١٢٧

فأمسك داود ثيابه ومزقها، وكذلك فعل

جميع الرجال الذين معه. وناحوا وبكوا وصاموا إلى

المساء على شاول ويوناثان ابنه

صموئيل ٢: ١: ١٢

يا بنات إسرائيل أبكين على شاول

كان يكسوكن الحُلل القرمزية

ويرصع ثيابكن بُحلي الذهب

بسقوط الجبابرة في القتال

يوناثان قتيل على روابيك

صموئيل ٢: ١: ٢٤

٩. كل من إنكيدو ويوناثان بشري / إنسان

١٠. للملك جلجامش علاقة مثلية "جنوسة.. مع صديقه إنكيدو وللملك داود علاقة مماثلة بيوناثان

والمرثـــية في نص ملحمة جلجامش تضيء المستوى الفكري / الفلسفي الذي تتمـــتع به البنية الذهنية والأسطورية في العراق القديم، وتكشف أيضاً موقف العراقي القديم في قضية الموت وصلتها كطرف ثان في موضوعة الخصب وعقائد الحياة، والقوة الانبعاثية الكونية. و لم يكن الموت بالنسبة لجلجامش ظاهرة ا عتيادية / عابرة وإنما فتح في نـــص الملحمة مداراً للصراع الحيوي والفاعل، الصراع المجسد لفاعلية النظرة للحياة والتي بلورت جانباً من حياة الإنسان الملاحق بالاندثار، وظل إلى الأبد ملاحقاً بالقوة الميتافيزيقية في الكون. ولذا حاول الملك جلجامش مقاومة الموت، والمصير المحتم له من أجـــل تحقـــيق خلوده الأبدي، و لم يستطع على ذلك، وأدرك بأن الموت قوة مداهمة للإنسان، والفقدان المفاجئ يمارس ضغطه في تعطل الفرد، لكنه لا يستطيع إيقاف القوة الانبعاثية في الحياة والكون.

أما المرثية التوراتية فإنها تتمحور حول الإحساس الآني بفجيعة الخسران ودراما الغـــياب و لم تكن سبباً من أجل البحث ومحاولة حيازة الخلود، والذي تبدى في قناعة جـــلجامش وســـعيه من أجل خلود سياسي / اجتماعي، لأن خلود الآلهة الذي يريد، صعب ومستحيل.

ويتضح من خلال القراءة السريعة، الموقف الديني وعلاقة ذلك بالموت، كذلك إمكان الإحالة إلى ما هو أعمق ضمن مجال الهموم الميتافيزيقية، وهذا ما يؤكد انشغال

الإنســان في العراق القديم بما هو داخلي / أعمق في النفس الإنسانية، ولذا كان للدين فســحته الظاهرة في كل الممارسات، حتى الاجتماعية، لأن ما يمارسه الإنسان ويتواتر على تقديمه، ياتي بالمحصلة النهائية في المحيط الديني، إذا لم يكن مركزاً له. لأن الدين في العــراق القــديم، ومــنذ مراحله الأولى / المبكرة، صاغ نظام الحياة الأول. ومن ثم السياســي / الاجتماعي / الاقتصادي، وظلت الهيمنة له على كل مجالات الثقافة، لأنه هو الذي صاغها وبلورها.

ولهــذا لم يكن فعل الموت / وحصراً موت إنكيدو ظاهرة عابرة، وإنما هي في الحقــيقة مــزدحمة بعقــائد وطقوس وشعائر، بالإمكان الاطلاع عليها في النصوص الأســطورية الكثيرة. لكن بالإمكان الإشارة للطقوس والعقائد التي انطوى عليها رثاء إنكــيدو والتعامل وإياه باعتباره مرآة تقدم لنا ممارسات الإنسان العراقي القديم. لحظة الوفــاة، ومــن تلــك الطقوس، محاولات استعادة التاريخ الشخصي / البطولي للفرد المــتوفى، والــتغني بأمجــاده، حتى ولو كانت نسبية. وهذا ما ظل إلى الآن مستمراً في الوجــدان الشــعبي. حيــث نجحت المرأة في توصيف لحالات عامة، تتوزع في المحيط الاجتماعي الواسع. وتشكل بما يشبه الخزين، يمكن العودة إليه لحظتما اقتضت ضرورة الندب والرثاء.

وعــبر هذه العقائد / والطقوس، حاول الإنسان[*] وما زال الاقتراب من مسألة المــوت عــن طريق ابتكار مجموعة من الرموز عبرت عنها الأسطورة في القديم. وتعبر عــنها أحلامه في الزمن الحديث. وبدراسة ما أنتجه فكر الإنسان عبر العصور، نجد أن المــوت لم يكــن أبداً مرحلة نهائية من شأنها وضع حد لوجود الفرد بجميع صوره بل

(*) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥، ص٢١٩.

اعتـــبر دوماً بمثابة عملية تؤمن عبور الإنسان لحالة أخرى من الوجد، تختلف في كليتها عن الحالة التي ألفها في حياته على الأرض.

وســـواء أكانـــت هذه الحالة أفضل من سابقتها أم أسوأ فإن وجودها في فكر الإنسان وخيالاته ولا شعوره كان دائماً مترافقاً مع وجود فكرة الموت. ولا نجد مطلقاً في أي نتاج إنساني / فكري، أن فكرة الموت تقوم وحدها، باعتبارها النقطة التي ينتهي عـــندها مسار الإنسان. وعلى هذا فإن الخوف من الموت لم يكن أبداً خوفاً من العدم، بل كان خوفاً من المجهول، من مغادرة وضع نعرفه ونألفه إلى أخر نحن به جاهلون.

تتجسد في مرثية إنكيدو معرفة العراقي القديم بالدورة الكونية للحياة – الموت والـــولادة – حيث صاغت هذه المرثية بنية مركزية في العقائد / والطقوس / والشعائر .. بيـــنما نجدهـــا في مرثية داود مجردة تماماً ومكتفية بتسجيل المشاعر الإنسانية لحظة المواجهة الآنية للفجيعة.

مرثية شاول / يوناثان(*):

مجدك يا إسرائيل قتيل على روابيك

فيا لسقوط الجبابرة!

لا تحكوا عن ذلك في جت

وفي ساحات أشقلون لا تعلنوه

لئلا تفرح بناتُ الفلسطينيين

لئلا تطرب بنات غير المختونين

(*) الكتاب المقدس / صموئيل الثاني – ١: ١٩ – ٢٧. وللاطلاع أكثر يراجع كتابنا، الأسطورة والتوارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠١.

يا جبال جلبوع

لا يكن فيك ندى ولا مطر

ومهجورة حقولك تبقى

لأن أبطالنا سقطوا هناك،

ترسُ شاؤلَ سقط في التُّراب، و لم يُمسح

بزيت

عن دمِ القتلى وشحم الجبابرة

قوس يوناثان لم تَرتدّ إلى الوراء

وسيف شاؤل لم يرجع خائباً

شاؤل ويوناثان محبوبان مُحَّببان،

معاً في الحياة، معاً في الموت،

أسرع من النّسور هُما وأقوى من الأسودِ

يا بنات إسرائيل أبكين على شاؤل

كان يكسوكنَّ الحُللَ القرمزية

ويرصِّعُ ثيابكن بحُلي الذهب

يا لسقوط الجبابرة في القتال

يوناثان قتيلٌ على روابيك

يا أخي يوناثان يا أعزَّ صديق

مليئاً بالألم والحزن أبكيك

لأن صداقتك لي أولى من حبِّ النساء

كيف سقطَ الجبابرة

إلى الأبدِ سقطوا

* * *

تمثل مرثية داود للملك شاول وابنه يوناثان نصاً مهماً ضمن المراثي التوراتية، واختلاف الترجمة، يساعد القراءة على تجميع الملاحظات الخاصة بالملك داود وصفاته الاجتماعية ونزواته الجنسية وميوله اللوطية التي يشف عنها هذا النص، كاشفاً ميوله وتخيّلاته الحلمية كما قال جان بوتيرو الذي درس هذه المرثية ومن خلالها قدم وصفاً دقيقاً وجريئاً عن الملك المدوّخ بالعواطف واللذائذ الحياتية ويبدو لي النص التوراتي منفتحاً أكثر في كتاب جان بوتيرو ولدرجة تقترب من الوضوح المؤكد لملاحظتنا عن العلاقة الشاذة بين الاثنين ولتعزيز هذه القراءة سأقدم النص مرة أخرى وبترجمة منقولة عن الفرنسية، من أجل أن يتمكن المتلقي من صياغة مفهوم محدد عن ميول ونوازع الملك الماجن / والفاسق، والذي لم يخجل من اعترافه بالشذوذ.

واحسرتاه ! المجد لإسرائيل(*)

الظبي يا إسرائيل مجدّل على روابيك

كيف تصرّعت الجبابرة؟ لا تخبروا في جتّ

ولا تُبشِّروا في أسواق أشقلون. لئلا تفرح بنات الفلسطينيين

(*) جان بوتيرو، ولادة إله التوراة والمؤرخ، ت: عبدالهادي عباس وجهاد الهواش، دار الحصاد، ودار الكلمة، دمشق، ١٩٩٩، ص٤٨.

وتطرب بنات الغلف. يا جبال الجلبوع

لا يكن فيكن ندىً ولا مطر

ولا حقول تقاوم

لأنه هناك

طُرح مجنُّ الجبابرة

مجنُّ شاول كأنه لم يُمسح بدهن

عن دم القتلى وعن شحم الجبابرة قوسُ يوناثان

لم تنكص إلى الوراءوسيف شاوول

لم يرتدُّ خائباً

شاول ويوناثان محبوبان شهيّان

في حياهما وفي مماهما لم يفترقا

أسرع من النسور وأشد من الأسود

يا بنات إسرائيل

ابكِيْنَ على شاوول الذي كان يكسوكنَّ القرمز ترفاً

ويُرصّع لباسكنَّ بحلي الذهب

كيف تصرعت الجبابرة في وسط الحرب؟

يوناثان مجدَّلُ على روابيك

قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يوناثان

لقد كنت شهياً إليّ جداً

وكان حبك عندي أولى من حب النساء

وقد أحببتك حبَّ أم لابنها الوحيد

كيف تصرعتِ الجبابرة وبادت آلات الحرب(*)

صموئيل الثاني: ١: ١٩ — ٢٧

وأشار العالم الأثاري المعروف جان بوتيرو إلى داود واعتبره ذلك المعلم المحبَّب، الكبير القلب، كان شهماً "ميكافيلياً" وفي الوقت نفسه، كان شجاعاً إلى مالا نهاية في الحـــرب. كان مستعداً لمقاومة كل شيء إلا أهواءه الحارقة بما في ذلك شهوات الحب ممـــا كان يجعله أقرب إلى الناس. كان يتمتع بكل ما يجعله من أصحاب تخيُّلات الحلم، كل شيء حتى النفس الحساسة والشاعرية. وتظهر شخصيته الجذابة بكاملها في الأغنية المأســـاوية الــتي ألفها عندما علم بموت صديقه القديم... شاول ويوناثان الذي كان يعتبره أخاً له ويحبه حباً جماً.

(*) ويلاحـــظ التناص بين النص التوراتي وملحمة جلجامش لما يؤكد التأثر والتطابق الذي وصل لمستوى النقل: وقبل أصحابي قدميه... / أحببته وانحنيت كما أنحني على امرأة / الملحمة ص٨٦: وأما أنك أحببته فانحنيت عليه كما تنحني على امرأة / فمعناه أنه سيلازمك ولن يتخلى عنك / ص٨٧ يا أمي رأيت رؤيا ثانية / في أوروك، المحصنة، رأيت فأساً مطروحة / تجمع أهل أوروك عندها وازدحم الناس حولها / أحببتها وانحنيت عليها وكأنها امرأة / ... إن الفأس التي رأيت رجل / وأما أنك أحببته وانحنيت عليها كما تنحي على امرأة / والتي سأجعلها أنا نظير لك / فتعتبره أنه صاحب قوي يعين الصديق سيأتي إليك / ص٨٧.

١١. مراثـــي إرميـــا

ومـــراثي إرمـــيا، هو السفر الرابع في مجموعة "لفائف"(*) وتعيد اليهودية هذا الكـــتاب للنبي إرميا. وهو بلغة العهد القديم "قينوت" القنوط في العربية، أي اليأس من الخـــير. أما الاسم الأصلي للسفر، أي (ءيكة) وهو الكلمة الأولى في الإصحاح الأول والمـــترجمة للعربية (كيف)، علماً بأن المفردة تستخدم أيضاً للتأوه، أي (آخ) بالعربية ويـــنظر لهذا السفر على أنه مرثاة لتدمير أورشليم أولاً على يد قوات بابل، ثم على يد القـــوات الرومانـــية. لذا فإن الاحتفال به يعتبر بالإضافة إلى رأس السنة المسمى (يوم كفـــور)، أي (يوم الكفارة) أو (يوم الغفران) أهم يام الصوم في تيار اليهودية السائد حالياً والمعروف بالفريسي وبمقارنة أسلوب النص في الأصل فإن هناك قناعة بأن السفر يعود لمجموعة من المؤلفين.

تقســـم المـــراثي إلى خمسة إصحاحات ويطلق على الأولى منها اسم (الأغاني الأبجديـــة) لأنهـــا مرتبة اصطناعياً وفق الأبجدية، أي "ءبجد / هوز / حطي" وتشكل الأحرف الأولى من كل جملة من النص الأصلي للإصحاح الخامس جملة قائمة بذاتها.

(*) زياد منى، جغرافية العهد القديم، بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٥، ص٥٧.

الأناشيد الخمسة التي في هذا السفر تتمركز حول بنية واحدة، إنها بنية الخراب والــتدمير، خــراب أورشليم أثناء اجتياح الجيش البابلي لها سنة ٥٨٧ ق.م وقد كان لدخــول الجــيش البابلي لمدينة أورشليم أثر مهم في إنها مملكة يهوذا التي كانت دولة مستقلة.

وتقــدم هذه الأناشيد الشعرية / الرفيعة في مستواها الفني، وازدحامها بالرموز والمجــازات، وتماثــلها مع سفر أرميا أيضاً صورة واضحة للحصار الذي تعرضت له أورشــليم وما رافق فترة الحصار الطويلة من مآس كثيرة وهذا ما تضيئه الإصحاحات (٢: ٢٠: ٤: ١٠، ١: ١١، ١٥، ١٩، ٢: ١١-١٢، ١٩، ٤: ٤ — ٥، ٩) وتكرس الطــريقة التي سقطت فيها المدينة وما رافق سقوط المدينة من أحداث، لا تختلف كثيراً عــن الوقائع المصاحبة لاحتلال أية مدينة في التاريخ (١: ٤ — ١٠، ٢: ٢-٩، ١٣: ٢٠-٢٢، ٤: ٢٠) وعــن الســبي والمنفى (١: ٣، ٥ — ٧، ١٨، ٢: ٩) وعن عزلة مديــنة أورشليم، حيث نفر عنها الجميع و لم تجد من يتضامن معها (١: ٢— ٩، ١٧— ٢١).

ولقد(*) نسب التقليد اليهودي، وبعده التقليد المسيحي المراثي إلى النبي، بناء لما جاء في (٢ اخ ٣٥: ٢٥) ولكن إذ كان أرميا هو كاتب المراثي أم غيره، فمما لاشك فيه، هو أنها كتبت في وقت قريب من الأحداث، لأن الشعب نشرها قبل الرجوع من

(*) الكــتاب المقــدس / جمعية الكتاب المقدس، لبنان، ١٩٩٥، وأرميا ابن حلقيا الكاهن من عناتوت وهو أحد الأنبياء العظام وتاريخه متضمن في سفر، ويظن أن نهايته كانت في أرض مصر، إذ أخذ قسراً إلى مصر (٤٣: ٥ -٧) حيث الحديث عن وجوده في مصر. دعي للخدمة النبوية وهو صغير، فاعتذر بصغره ولكن الرب شجعه وقــد بــدأت خدمــته في السنة الثالثة عشر من حكم الملك يوشيا سنة ٦٢٩ ق.م واستمرت لما بعد خراب أورشليم وقد دعي "النبي الباكي" إر ١: ١٣ وسفر المراثي دليل على ذلك. والنبوات في سفره غير مرتبة ترتيباً تاريخياً ولكن بحسب قصد الروح القدس "القاموس الموجز، للكتاب المقدس، ج. مورش، ١٩٨٣.

بـــابل سنة ٥٣٨ ق.م. كان وحده(*) و كاد يكون ضد جميع الشعب، لكنه ظل أميناً حتى النهاية للمهمة التي أوكلها الله إليه، وبهذا يشبه إلى حد بعيد الرسول بولس الذي عـــاش هذه الكلمات: قوّتي تظهر نتائجها كاملة حين أكون ضعيفاً "٢ كور ١٢: ٩" وتنبأ إرميا لمدة أربعين عاماً وفي أكثر الأوقات اضطراباً في تاريخ اليهود.

كانـــت إمـــبراطورية آشور تسيطر على منطقة واسعة جداً من الشرق. لكنها بدأت تتراجع أمام هجمات البابليين.

وعندما وصل البابليون إلى أورشليم عام ٥٩٧ بقيادة نبوخذ نصر، أخذوا عدداً من اليهود مع "يوياكين" الذي خلف أباه "يوياقيم" ونصبّوا ملكاً ضعيفاً اسمه "صدقيا" وحـــاول هذا الملك الخروج عن طاعة الإمبراطورية البابلية فكان رد فعل الملك نبوخذ نصـــر ســـريعاً، وحاصر المدينة لمدة سنة كاملة وأخيراً استطاع الدخول إليها في تموز ٥٨٧ ق.م واقتاد ملكها أسيراً وأحرق هيكلها، وأخذ إلى بابل عدداً كبيراً من السبايا. وبعـــد هروب عدد من السكان من يهوذا، لجأوا إلى مصر، وأخذوا معهم النبي أرميا رغماً عنه. وهناك مات في المنفى بعيداً عن أرضه.

إن إرميا الرسول الأمين والمضطهد يشبهون به يسوع فيما بعد"مت ١٦: ١٤" إرمـــيا الـــنبي الـــذي حدثنا عن العهد الجديد، يردد كلماته يسوع ليلة العشاء الربّاني فيقول: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يراق من أجلكم (لو ٢٢ – ٢٠ – أكو ١١: ٢٥).

(*) الكتاب المقدس / سفر إرميا.

١٢. نص مراثي إرميا

١. كيف جلست وحدها

المدينة الملأى بالناس

صارت كأرملة بغتة

وهي العظيمة في الأمم

السيدة في البلدان

صارت تحت الجزية

تبكي بكاءً في الليل

ودموعها على خدّيها

لا معزّي لها

من جميع محبيها

كل خلانها غدروا بها

وصاروا لها أعداءً

سبيت يهوذا من البؤس

وشدة العبودية

سكنت بين الأمم

ولا تجد راحة

يحيط بها أعداؤها

ولا مهرب لها

طريق صهيون في نواح

لا أحد يحضر أعيادها

جميع أبوابها مهجورة

وكهنتها يتنهدون

صباياها متحسرات

وهي في مرارة

صار خصومها أسياداً

وأعداؤها في ثراء

الرب هو الذي أذلها

لكثرة معاصيها

صغارها ساروا إلى السَّبي

أمام وجه العدوّ

زال عن بنت صهيون

كل بهائها

رؤساؤها كأيائل

لا تجد مرعى

هربوا ولا قوة لهم

أمام وجه الطارد

أورشليم تتذكر الآن

في أيام بؤسها وضياعها

جميع ماعز لها

منذ أيام القدم

وقعت في يد الخصم

وما أنجدها أحد

خصومها نظروا إليها

فضحكوا على سقوطها

خطئت أورشليم كثيراً

فصارت كشيء نجس

جميع مكرميها ازدروها

لأنهم رأوا عورتها

أما هي فتنهدت

وغطت وجهها خجلاً

نجاستها علقت بأذيالها

وما فكرت في مصيرها

سقوطها كان رهيباً

ولا معزي لها

انظر يا رب إلى مذلتي

لأن العدو انتصر

بسط العدو يده

على كل عزيز لها

رأت الأمم يدخلون

إلى هيكلها المقدس

وكنتَ أمرتَ أن لا يدخلوا

في مجمع لك

كل شعبها ينوحون

وهم يطلبون طعاماً

يقايضون ما عز لهم

بما يسدُّ الرمق.

أنظر يا رب وتأمل

كم أنا ذليلة

ويا عابري الطريق

انظروا أنتم وتأملوا

هل من كآبة ككآبتي

هذا الذي أصابني

رماني به الرب

في يوم حدّةِ غضبه

من العلاء أرسل ناراً

إلى عظامي فسرت فيها

مدّ لرجلي فخاً

فأوقعني إلى الأرض

جعلني مهجورة عليلة

نهاراً وليلاً

شدَّ ذنوبي نيراً

وبيده حبكها

فثقلت على عنقي

وهدّت عزيمتي

وضع الرب على الأيدي

فلا أقوى على النهوض

أبطال شعبي جميعاً

تهكم عليهم الرب

دعا عليَّ جيشاً

ليحطم به شُباني

وداس كما في معصرةٍ

على العذراء بنت يهوذا

فها أنا أبكي

وعيناي تسكبان الدموع

المعزّي الذي ينعشني

ابتعد كثيراً عني

بنيّ فقدوا كلّ شيء

والعدو تغلب عليّ

بسطت صهيون يديها

ولا معزي لها

أمر الرب على بني يعقوب

عداء من كل صوب

فصارت أورشليم بينهم

كشيء كله نجاسة

الرب إله عادل

لكني عصيت أمره

اسمعوا يا جميع الشعوب

وانظروا إلى كآبتي

فتياني وفتياتي

ذهبوا على السبي

استنجدت بأحبائي

فرفضوا نجدتي

كهنتي وشيوخي

ماتوا في المدينة

وهم يطلبون طعاماً

ليسدّوا رمقهم

انظر يا رب إلى محنتي

أحشائي امتلأت مرارة

وقلبي مضطرب في صدري

لأني تمردت عليك

إن خرجت قتلني السيف

وبقائي في البيت أشبه بالموت

اسمعوا أني أنوح

فما عزاني أحد

جميع أعدائي فرحوا

لنكبتي التي أنزلتها بي

أين يوم وعدت به

أن يصير أعدائي مثلي

أحضر كلّ شرهم أمامك

وافعل بهم كما فعلت بي

جزاء جميع ذنوبي

نواحي طال فقلبي عليل

٢. عقاب أورشليم

كيف غطّى غضب الرب

بنت صهيون بالظلام

ورمى من السماء إلى الأرض

بأمجاد إسرائيل

فلم يذكر موطئ قدميه

في يوم غضبه

أفنى الرب بلا شفقة

مساكن بني يعقوب

وفي غيظة دكَّ الأرض

حصون بيت يهوذا

وعلى المملكة ورؤسائها

أنزل الربُّ لعنته

حطم في حدَّة غضبه

ما لإسرائيل من قوة

رد يمينه إلى الوراء

من مجابهة العدو

وأشعل في بني يعقوب ناراً

ملتهبة أكلت ما حولها

شدَّ قوسه كعدو

وسدد بيمينه سهامه

وأتلف كل شيء لنا

تشتهيه العيون

وفي مساكن بنت صهيون

صبَّ غيظه كالنار

صار الربُّ كعدو

وسحق إسرائيل سحقاً

جميع قصورها دمّرها

وخرب لها حصونها

وفي بيت يهوذا

أكثر النواح والأنين

أزال سياج جنته

وقوض دعائم هيكله

أنسى الربُّ شعبه

العيد والسبت في صهيون

ونبذ الملك والكاهن

في حدة غيظه؟

سئم الرب مذبحه

وتخلّى عن بيته المقدس

سلم أسوار قصورها

إلى يد العدو.

فهتفوا في بيت الرب

كما في يوم عيد

قصد الربُّ أن يدمِّر

أسوار بنت صهيون

مدَّ الخيط وما رد يده

عن أن يمحقها محقاً

فأبكى الأبراج والحصون

حتى ذُبلت جميعاً

غاصت في الأرض أبوابها

دمّر وحطم أقفالها

ملكها ورؤساؤها في الغرب

ولا شريعة هناك

حتى أنبياؤها لا يرون

رؤيا من عند الرب

شيوخ بنت صهيون

يقعدون على الأرض صامتين

ألقوا رماداً على رؤوسهم

واتزروا بالمسوح

وعذارى أورشليم يحنين

رؤوسهن إلى الأرض

كلّت من الدموع عيناي

وأحشائي امتلأت مرارة

كبدي انسكبت على الأرض

لخراب بنت شعبي

الأطفال أغمي عليهم

في ساحات المدينة

يقولون لأمهاتهم:

"أين الخبز والماء"

أغمي عليهم كالجرحى

في ساحات المدينة

أو فاضت أرواحهم

في أحضان أمهاتهم

بماذا أصفك وأشبهك

يا بنت أورشليم؟

من ينجيك ويعزيك،

يا عذراء بنت صهيون؟

خرابك كالبحر لا حدَّ له

فمن الذي يشفيك؟

أنبياؤك رأوا لكِ

رؤى الكذب والباطل

وكشفوا عن إثمك

ليردّوا عنك سبيك

كانت رؤاهم عبثاً

وأكاذيب وأوهاماً

يصفق عليك بالكفين

هزءاً جميع العابرين

يصفرون ويهزون رؤوسهم

على بنت أورشليم

أهذه أجمل المدائن

وبهجة الأرض كلها

جميع أعدائك يفتحون

أفواههم عليك تهكماً

يصفرون ويقلبون شفاههم

ويقولون: "ابتلعناها

هذا يوم كم انتظرناه

والآن نلمسه ونراه"

فعل الرب ما قصده

وتمم ما أوعد به

منذ قديم الزّمان

هدم بغير شفقة

فاشمت بك العدوّ

وأعلى شأن خصومك

اصرخي عالياً إلى الربِّ

يا أسوار بنت صهيون

أسيلي دموعك كالنهر

نهاراً وليلاً

لا تعطي نفسك راحة

ولا تغمضي حدقة عينيك

قومي رنمي في الليل

في ساعات الظلام الأولى

اسكبي قلبك كالماء

قبالة وجه الربّ

ارفعي إليه كفيك

وتضرّعي لحياة أطفالك
أغمي عليهم من الجوع
في رأس كل شارع
أنظر يا ربّ وتأمل!
هل فعلت بأحدٍ هكذا؟
أتأكلُ الأمهات ثمرهن:
أطفالهن الذين حضنهنّ؟
أيقتل الكاهن والنبيّ
في مقدِسِكَ؟
انطرح الصبيُّ والشيخ
على الأرض في الشوارع
فتيتي وفتياني جميعاً
سقطوا بحدِ السيف
قتلتَ في يوم غضبك
وذبحت بغير شفقة
دعوت الربّ من كلّ صوب
كما في يوم عيد
في يوم غضبك من ينجو؟

من يبقى على قيد الحياة؟

الذين حضنتهم وربّيتهم

أفناهم عدوّي

توبـــة ورجـــاء:

أنا رجل رأى البؤس

تحت عصا غضبه

قادني وأدخلني ظلمة

لم يكن فيها نور

يمدُّ يده عليّ

ويعيدها نهاراً وليلاً

أتلف لحمي وجلدي

وهشم لي عظامي

حاصرني وأحاطني

بمرارة ومشقة

أسكنني في الظلمات

كالموتى من قدم

حبسني لئلاّ أخرج

وأثقل قيدي عليّ

اصرخ واستغيث

فيصدُّ صلاتي

سدَّ طرقي بالحجارة

وعوج مسالكي

يكمن لي كالدّب

ويختبئ كالأسد

أضلّ طرقي ومزقني

وجعلني وحيداً

شدَّ قوسه ونصبني

هدفاً لسهمه.

خرق كليتيَّ خرقاً

بسهام جعبته.

صِرت ضحكة للشعوب

وأغنيةً نهاراً وليلاً

جرعني مرارات

وأرواني علقماً.

هشم بالحصى أسناني

ومرغني في الرماد

بعدت عن السلامةِ
ونسيت طعم الهناء
فأقول: "زال عنفواني
ورجائي في الربّ
ذِكّرُ بؤسي وضياعي
مرارة لي وعلقم
طالما تذكر نفسي
فتنحني في داخلي
وأردّد هذا في قلبي
فأستعيد رجائي
رأفة الربّ لا تنقطع ومراحمه أبداً لا تزول
هي جديدة كلّ صباح فما أعظم أمانتك!
فما أعظم أمانتك!
الرب حظّي فأرجوه
هكذا قالت نفسي
الربّ صالحٌ لمن ينتظره
للنفس التي تشتاقه
خير له أن يحمل

نيره منذ صباه

يجلس وحده ويسكت

عندما يضع نيره عليه

ينحني بفمه على التراب

آملاً أن يجد الرجاء

يعطي خدّه لمن يلطمه

ويقبل أن يشبع تعييراً

الربّ لا يتخلى

دائماً إلى الأبد

فهو ولو عاقب يحنو

بحسب كثرة رأفته

لأنه من كلّ قلبه لا يذلّ

ولا يعذب بني البشر

إذا انسحق تحت الأرجل

جميع أسرى الأرض

أو حرف أحُد حقه

أمام وجه العليّ

أو حكم عليه ظالماً،

أفما يرى الرب؟

ومن الذي قال فكان

من دون أن يأمر الرب؟.

أما من فم العليِّ

يخرج الشرُّ والخير؟

فلماذا يتذمر الأحياء

إذا عوقبوا على خطيئةٍ؟

لنمتحن طرقنا ونختبرها

ونرجع إلى الرب

لنرفع قلوبنا وأكفّنا

إلى الله في السماوات

نحن عصينا وتمردنا

وأنت يا ربّ ما غفرت

تسترت بالغضب وطردتنا

قتلتنا بغير شفقة

سترت بسحابة كثيفة

لئلا تسمع الصَّلاة

جعلتنا أوساخاً وأقذاراً

بين جميع الشعوب

أعداؤنا جميعاً فتحوا

أفواههم علينا هزءاً!

حلَّ الدّمار والخراب

عيناي تسيلان أنهار دموعٍ

على انسحاق بنتِ شعبي

إصطادني أعدائي كعصفور

وأبغضوني بغير سبب

طرحوني حياً في الجبِّ

ودحرجوا على شجراً

فاضت المياه فوق رأسي

وقلت في نفسي "هلكت"

دعوت باسمك يا رب

من أعماق الجبِّ

اسمع ولا تحجب أُذنك

عن نداء استغاثتي

اقترب يوم أدعوك

وقل لي: "لا تخف

خاصمت معي يا ربّ

وافتديت حياتي

رأيت يا ربّ ظلامتي

فاحكم بإنصافي

رأيت انتقامهم كلّه

وجميع نياهم عليّ

سمعت تعييرهم يا رب

وجميع نياهم عليّ

كلام المعتدين وأفكارهم

عليّ نهاراً وليلاً

في قعودهم وفي قيامهم

تراني أغنية لهم

جازِهم شراً يا ربُّ

بحسب أعمال أيديهم

اجعل على قلوبهم غشاوة

وأنزل بهم لعنتك

أطردهم بغضبك وأبيدهم

من تحت سماواتك يا ربُّ

أورشليم بعد سقوطها:

كيف أغبرَّ الذهب

ونغيّر النضار الخالص

وانهالت الحجارة المقدسة

في رأس كلّ شارع

بنو صهيون الكرام

وهم الموزونون بالإبريز

كيف يحسبون آنية

صنعتها يدا خزاف

حتى بنات آوى

تعطي ثديها لصغارها

أمّا بنت شعبي فقاسية

مثل النعام في البرّية

يلصق لسان الرضيع

بحنكه من العطش

والأطفال يطلبون خبزاً

ولا من يعطيهم كسرة

الذين يأكلون الطيبات

ماتوا جوعاً في الطرقات

والذين تربّوا في الحرير

ينبشون الطعام في المزابل

عقاب بنت شعبي

أين منه عقاب سدوم

تلك التي انهدمت في لحظة

على يد الله

كان شبانها أنقى من الثلج

وأكثر بياضاً من اللبن

وأزهى أجساماً من المرجان

ولون بشرتهم كاللازورد

وجوههم اسودّت أكثر من السواد

فلا يُعرفون في الشوارع

جلودهم لَصِقت بعظامهم

ويبست كالخشب

كان القتلى بالسّيف فيها

خيراً من القتلى بالجوع

أولئك ماتوا بطعنةٍ

من فقدان ثمار الحقل

حتى النساء الحنونات

طبخت أولادهنَّ

فكانوا لهن طعاماً

في نكبة بنت شعبي

حقق الربّ غيظه

وصبَّ حدّة غضبه

فأشعل ناراً في صهيون

أكلت أُسسها

ملوك الأرض لم يصدقوا

ولا سكان العالم

أن الطغاة والأعداء

يدخلون أبواب أورشليم

فأنبياؤها خطئوا

وكهنتها ارتكبوا الآثام

سفكوا دمَ الأبرار

في وسط المدينة

تاهوا كالعميان في الشوارع

وتلطخوا تلطيخاً بالدم

فلم يتحمل أحد

أن يلمس ملابسه

نادوهم: حيدوا أيها الأنجاس

حيدوا، حيدوا لا تلمسوا

فهربوا وتاهوا بين الأمم

حيث لم يسكنهم أحد

وجه الرب شتتهم

ولا يعود ينظر إليهم

فلا إكرام للكهنة

ولا رأفة بالشيوخ

كلّت عيوننا عبثاً

من انتظار العون

من أبراجنا ترقبنا

نجدة أمةٍ لا تُنجد

أعداؤنا ترصّدوا خطوتنا

لئلا نسير في شوارعنا

اقتربت عاقبتنا وتمّت أيامنا

لأن أجلنا وافى،

كان الذين طاردونا

أخفّ من نسور السماء

تتبعوا خطواتنا على الجبال

وكمنوا لنا في البرّية

مَلِكُنا الذي اختاره الرب

أوقعوه في حبائلهم

هو الذي قلنا: "في ظله نحيا

بين الأمم"

ابتهجي وافرحي يا بنت أدوم

أيتها الساكنة في أرض عُوصَ

عليك أيضاً ستمرُّ الكأس

فتسكرين وتظهرين عُريك

زال إثمك يا بنت صهيون

فلا يعود يسبيك الرب

لكنه يعاقب إثمك يا بنت أدوم

ويكشف عن خطاياكِ

طلـــب الرحمـــة:

أذكر يا ربّ ما أصابنا

تطلع وانظر عازنا

تحولت أرضنا إلى الغرباء

وبيوتنا إلى الأجانب

صبرنا يتامى لا أب لنا

وأمهاتنا أرامل

بالمال نشربُ مائنا

وندفع ثمن حطبنا

بالنير على أعناقنا نُساق

نتعب ولا نُعطي راحةً

إلى مصر مددنا اليد

وإلى آشور لنشبع خبزاً

آباؤنا خطئوا وزالوا

ونحن نحمل آثامهم

عبيد تسلّطوا علينا

ولا أحد ينقذنا منهم

بأرواحنا نكتسب خبزنا

لأن السيف في البرية

جلدُنا محترق كالتنور

من شدة حرارة الريح

يغتصبون النساء في صهيون

والعذارى في مدن يهوذا

بأيديهم يشنقون الرؤساء

ولا يحترمون وجوه الشيوخ

أرهقوا الشبان بالطحن

والصبيان رزحوا تحت الخشب

انصرفَ الشيوخ عن باب المدينة

والشبان عن أغانيهم

انقطع السرور من قلوبنا

وانقلب رقصنا مناحة

سقط التاج من رأسنا

ويل لنا لأننا خطئنا

لذلك اغتمت قلوبنا

وأظلمت منا العيون

وها جبل صهيون مقفر

والثعالب تتجول فيه

أنت يا رب باقٍ

وعرشك ثابت مدى الأجيال

لماذا تنسانا على الدوام

وتخذلنا طول الأيام

أعدنا إليك فنعود

وجدد أيامنا كالقديم

وإلا تكون نبذتنا نبذاً

وغضبت علينا كل الغضب



الشكل (١١): ننخرساك، الإلهة السومرية الأم. وتدعى أيضاً ننماخ وننكال

١٣. الأم الكبرى وخسارة الأبناء

إن الإلهـــة "نـــنكال" التي لعبت دوراً مركزياً في النص، تستعيد حيوية الألوهة المؤنثة في التاريخ، وتقوم بدورها الأمومي العظيم باعتبارها أماً كبرى، لها وظائف دينية / وحياتـــية وعبر الأثنين يشف دور سياسي خفي وضمني. ولذا فإن دورها المتميز في الـــنص، يمـــثل مسعاها الواعي / الذكي والجديد للقيام بدور مهم، غابت عنه، بعدما ســـيطرت السلطة البطرياركية وأزاحتها عن مركزها الديني / الحياتي / وتشكل المجال السياســـي الـــذي دفع بها بعيداً وارتضت الاكتفاء بدورها / الهامش في الحياة الدينية. ولأن الآلهـــة نـــنكال مدركـــة وعارفة بالأسباب التي دفعت بملكة أور وبلاد سومر للانهـــيار، وهـــي أسباب لها صلة مباشرة بالذكورة وخطابها العنيف والصراعات التي نشـــأت وتضاعفت بين الممالك، ومضافاً لذلك العدو الخارجي والتفتت من الداخل، هـــذا كله وغيره من الأسباب، هو الذي أنتج مأساة أور وبلاد سومر، أي أن السلطة البطرياركـــية ظاهرة وراء الخراب وكامنة فيه أيضاً، لهذا أخذت الأم العظمى دور الأم العراقـــية الأولى وابتدأت نشاطها الفعال في الحوار مع الأب / الملك / إنليل، المستبد / والطاغـــية الذي كثيراً ما مارس عنفه في الإبادة / والحروب، والدمارات وكأنه بذلك يعلن عن خصائصه ويؤكد عناصره التي عرف بها في مجلس الآلهة العراقي.

تلك العناصر وتبدياتها العنيفة / والدموية هي التي أقنعت اليهود، وحازوا عليها وألصقوها بالإله اليهودي / يهوه وصار نموذجاً قريباً للإله إنليل، وسطا على الكثير من وظائفه وسلوكاته / وتصرفاته. وليس بعيداً عن النبي إرميا (إن كان هو كاتب المراثي) نـص رثـاء أور، والاسـتفادة من التماثل الذي حصل لمدينة أور من دمار وخراب وعكسـه عـلى أورشليم، واختصار كل الآلهة — في نص رثاء أور — بالإله اليهودي يهوه.

والاختلاف بين النصين واضح والتشابه قائم، وسبب الاختلاف محاولة الكهنة والأحبار تذويب الشخصية العراقية ومسح ملامحها وإبدالها بالشخصية اليهودية. لكن هـذا كله لم يغيب الهوية الأولى للأصل المنتج والذي صاغ رثاء أور والمراثي الأولى، والعـراق هو البلد الأول الذي أسس هذا الجنس الأدبي، المرتبط مع النشوء الحضاري، ولـولا النشـوء المـبكر المكرس بالجهد الكبير لما وجد العراقي القديم ضرورة إبداع المراثي، ليدوّن بها ومن خلالها علاقته مع المكان.

اسـتطاعت الأم العظيمة "ننكال" في دورها ونجحت بأخذ مجالها الحضاري / الديـني الأول، واستقطبت كل الطاقات في مدينة أور، وليس صعباً على الأم الكبرى مـن الـنجاح بذلك لأن الأبناء، سرعان ما يستجيبون لدعوتها. وما حققته الأم بعد خـراب أور، يمثل نموذجاً فريداً في النصوص الأسطورية حيث انتظار الأم لفرصتها في أيـة لحظة، كي تأخذها دورها ومجالها الوظائفي / الديني، وبكاء ننكال وندبها، تعبير عن مرثيتها للأبناء الذين ولدتهم الأم العظيمة وقادهم الأب / الملك / السلطان الطاغية / إنلـيل إلى الدمـار، فهو الذي استهدف الأم العظمى بأبنائها كثيراً وهذا ما تؤكده النصوص الأسطورية العراقية. لذا فإن ننكال تمثل قطباً معارضاً / ومختلفاً، لم يستجب لهـا إنليل في البداية. لكنها ظلت في مسعاها من أجل كبح إنليل وممارسة الضغط عليه

مـــن خلال الآلهة الذكور. أي توسيع مجال الضغط عليه عبر السلطة القضيبية الضاغطة والتي تتمكن حتماً لأسباب التوحد الذكوري، تحت لواء سلطة واحدة.

وكشـــف "رثاء أور" مستويات الصراع العميق جداً بين الأم العظيمة / ننكال وبـــين الآلهـــة القضـــيبية، والمستوى الداخلي لهذا الصراع، قد تمثل بانتصار السلطة البطرياركية وهزيمة السلطة الماترياركية وتعطليها عن وظائفها الإخصابية / والأمومية، وتحـــول القضـــيب الإنليلي إلى عصا ممثلة رمزياً لسلطة الإله القامع، وإيقاف دوره. وبالـــتالي دور الأم في الإنجـــاب والإخصاب / والانبعاث لأن العملية الإخصابية ثنائية المجـــال ولا تتم بشكلها البايولوجي اعتماداً على قطب واحد، وإن ظهرت العديد من الأســـاطير حـــول تخصـــيب بدون الاتصال الإدخالي، ومثل هذا التخصيب له أسبابه الفكـــرية / والمعرفية التي تبلورت في المراحل الحضارية المتأخرة، وهكذا تخصيب يعني استقلال الأم العظمى وجزعها من السلطة التي تمركزت حول قضيبها الذي تحول أيضاً إلى صـــولجان سياســـي، فغادرت الأم العظيمة واعتمدت على قواها وطاقاتها الخلاقة السحرية(*).

إن اتساع النشاط الأمومي أثناء ابتداء الدمار والخراب هو احتجاج على العصا الأبويـــة / القضـــيب الإنليـــلي الـــذي بطش بأور وبلاد سومر، تلك العصا الملوكية والصـــولجان السياسي، الذي فوضه مردوخ بالسلطة بعد انتصاره وانهيار الدور الأول لـــلأم العراقية الكبيرة "تيامات" وأمام هذا الانهيار والصعود البطرياركي، تحققت للأم فـــرص قليلة جداً، لكنها وفي كل تلك الممنوحات لها، لم تستطع حيازة دورها الأول واكتفت بالثانوي الذي يمثل مركزاً في العلاقة الإخصابية الموجودة في الحياة / والكون.

(*) درسنا هذا النمط من الاتصال في مخطوط "تأويل النص التوراتي: الاتصال الرمزي إنموذجاً".

وحيوية ننكال ذات هيمنة وحازت على دعم الألوهة المذكرة لها، وهذا الانحياز، اعتراف بالدور الذي كان لها سابقاً وعطلته هي عبر صرع مرير، قاد الذكورة إلى قتل الأم الأولى لكن سلطة الألوهة الذكورية، استعانت بجسدها ودمها (عنصرها الحيوي في التكوين) وخلقت البشر. وبهذا تعلن بشكل رمزي عن اعتراف بمجالها وطاقتها الإخصابية / الانبعاثية، والهيمنة التي تبدت لنا — في نص أور — تقود القراءة إلى مستوى تأويلي أعمق، وهو أن ننكال استعادت عبر مجزرة مملكة أور والإبادة الجماعية، صورة المجزرة التاريخية الأولى في إبادة الأم الأولى واستمرار استهدافها بالعصا / القضيب الإنليلي الذي استعار خاصية رمزية غير التي حددتها الوظائف الإلهية المنضبطة والهادئة. العصا / والفأس التي علم إنليل الإنسان صناعتها من أجل العمل صارت — الفأس — وسيلته في تخريب مدينة أور،

"ما عدت تستقرين كساكنة في معبدك المقدس

الذي هدّمه الفأس

ما عدت تقودين كعاهلة

شعبك الذي اقتيد إلى المذبحة"

لعنة الألوهة المؤنثة / ننكال واضحة ومريرة، لعنة لاحقت الأصل التكويني للحياة من خلال العصا / الفأس بعدما تغيرت وظائفها الإيجابية ومنحتها الألوهة الذكورية / والأبوية وظيفة أخرى ودموية.

يا للبؤس! يا للمصير! أريد أن أصرخ

مرّ هو مصير مدينتي

أنا السيدة، آه، يا معبدي المهدم، أريد

أن أصرخ مر هو مصير معبدي

آه! يا جدار أور، يا داري الذي تهدّم

جداري الذي أصيح به!

يا معبدي المقدس، ويا مدينتي التي تحوّلت إلى خراب!

في أنقاض معبدك المقدس والمهدم

تمددت بالقرب منك "يا مدينتي"

مثل ثور مذبوح

عن جدرانك لا أستطيع الانسلاخ

يا للكارثة! بناؤك كان خداعاً

ومرير هو خرابك

هـــذه المواجع الصادقة دليل ضمني وصريح عن الدور الموكول للأم في الديانة العراقـــية القديمة، دور صاغته البنية الذهنية الأسطورية وتمركز في المراحل الحضارية / المختلفة وصار مثابة في الديانات الشرقية المجاورة.

والنصوص المشحونة بإحساس صادق / وأمومي بالخسارة تمثل — أيضاً — تجلياً لـــلأم في واحـــدة من وجوهها ومراياها العديدة التي كونت مدارها الثقافي / والديني الخـــاص بـــه والذي احتفظت به بعد انهيار سلطتها وتعاملت معه باعتباره نتاجاً لها، وميراثاً للأجيال يتجسد في الكثير من الممارسات والعقائد. و لم تستطع سلطة الذكورة — لحظـــتما قـــادت الخطـــاب — من إلغاء كامل للمتداول من متروكها العقائدي / الطقوسي / والشعائري.

والثابـــت علمياً أن التحول في العبادات الماترياركية التي(*) قُدّست فيها ألوهة الإلهـــة الأم العظمـــى إلى العبادات الباترياركية المذكرة في أرجاء المنطقة الشاسعة من العالم القديم التي عرفت باسم الشرق الأدنى، كان تحولاً تدريجياً طويل الأمد نشأ أصلاً من اختراع الزراعة وتطور الجماعات البشرية على عباب ذلك الاختراع من نمط حياة الرعي إلى نمط الحياة الزراعية والعيش المستقر في قرى ثم في مدن انبنى اقتصادها.

وبالتالي تنظيمها الاجتماعي، على الفلاحة وحتى الطعام بدلاً من الرعي وجمع الطعـــام(**) وفي بداية ذلك التحول ظلت للإلهة الأم قداستها المعلاة من خلال امتداد قـــدرة منح الخصوبة جنسياً للبشر والماشية إلى قدرة منح الخصب زراعياً. وهكذا فإن الـــتحول من الماترياركية إلى البترياركية عندما بدأ فيما بات معروفاً باسم "الحضارات العلـــيا" في الشرق الأدنى القديم، بدأ في المجتمعات التي كانت تعبد لأزمنة طويلة الإلهة الأم العظمى بوصفها خالقة للعالم ومن فيه وما فيه، وبوصفها أيضاً السلف الأسطوري لشعوب تلك المجتمعات.

و لم يشر إرميا في مرثيته للأم الكبرى بشكل صريح وإنما اكتفى بشفرات تشير إليها وتعنيها. كما أن نصوص المرثية تقود القراءة للاقتراب تماماً مع الإلهة الأم في رثاء أور وفي ديانات الشرق الأدنى القديم.

وأعتقد بأن إلغاء اسم الأم الكبرى، يدخل ضمن مساعي اليهود في الإبتعاد عن الســـحر. لأن منح الإنسان رجلاً أو امرأة كنية، يعني تحقق الطاقة السحرية الكامنة في اسمـــه، بحيـــث يكون قد امتلك قوة التأثير. ويرى الأستاذ شفيق مقار بأن العبادة التي صاغها حول الوثن القضيبي يهوه، فبجانب الرغبة المفهومة من جانب موسى في طمس

(*) شـــفيق مقّار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨، ص٢٦٩.

(**) شفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، سبق ذكره، ص٢٦٩.

الــبعد الآخـــروي الـــذي كـــان كفيلاً بالكشف عن منابع ما اختلس لمعبوده، كان للاجــتهاد في طمس كل وجود للآلهة الأم العظمى دور بالغ الفعالية في إخلاء عبادة يهوه تماماً من البعد الآخروي.

وهنا تكمن محاولة موسى في التخلص من تأثيرات الديانة المصرية التي تشبع بها. حيث كان المجال الحيوي فيها هو للأم الكبرى، على الرغم من انهيار سلطتها وصعود السلطة البطرياركية.

وكمـــا هـــو واضح(*)، وبصرف النظر عن "غيرة" يهوه المشهورة، كان هناك تـــناقض أساسي بينه وبين الإلهة المؤنثة. فهو وثني قضيبي. والإلهة الأم العظمى عبدت بوصـــفها الـــرحم الكوني الذي وُلد منه الكون وكل المخلوقات، والكهف "القبر — الـــرحم"الذي يبتلع كل المخلوقات، أي بوصفها المنشأ والمآل. وكما هو ملاحظ في العـــبادة الـــتي صـــاغها موسى حول ذلك الوثني القضيبي حلت تلك العبادة تماماً "أو بالأحـــرى أخـــلي كـــل ما اختلس لها من الديانة المصرية القائمة على مفاهيم الخلود والبعـــث" من بُعد المآل، واقتصر دور المعبود فيها على كونه "المنشأ" وهو — التفكير التشبيهي — دور القضيب في عملية الإخصاب، ذلك الدور الذي ينتهي بقذف المني في الرحم — في قمة هياج العاصفة — هزة الجماع التي يبلغ فيها التهيج الجنسي ذروته — يقذف منيه الخالق للحياة في رحم الأرض.

وإدارة الظهـــر للعناصر المركزية / المهيمنة في الديانة المصرية، يعني تأشير قطيعة كلـــية، لكـــن موسى لم يستطع نهائياً تأسيس تلك القطيعة، ولذا نجده في بداية شتات سيناء منقاد نحو الراسب المصري في الذاكرة ومع كل محاولات موسى ورجاله، ظلت الديانة المصرية متشظية وموزعة في الخطاب الديني / التوراتي.

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة..سبق ذكره، ص١٠٤.

١٤. عتبة أخيرة

لقد تأكد للدراسة استفادة اليهود من المراثي العراقية القديمة، وكانت متمثلة في أول استفادة عبر مرثية شاول ويوناثان ومن بعد ذلك في مراثي إرميا حيث كانت مرثية شاول ويوناثان، مرثية للأفراد وهي كثيرة في الأدب العراقي القديم، وأهمها مرثية جلجامش لصديقه إنكيدو. أما رثاء المدن — أور — فقد تبدت في رثاء أورشليم، على الرغم من الفروق الكثيرة بين أور / وأورشليم، من حيث قدمها التاريخي وعناصرها الحضارية وجاءت مرثية أور مشحونة بالفجيعة المعبر عنها بتعدد الأصوات واختلافاتها الواضحة، وقدمت مرثية أور نموذجاً فريداً من خلال مشاركة العديد من الآلهة وطغيان صوت الأم الكبرى "ننكال" التي أضفت طابعاً تراجيدياً على دورها الفكري / والفني، ويكاد يكون صوتها فاعلاً وقد لعب دوراً في إعادة الموقف الإلهي — إنليل — إلى دوره الأول والطبيعي وما كانت مرثية أور لولا غضب الإله إنليل عليها الذي كثيراً ما ساهم بشكل أساسي بدمارات كثيرة كالطوفان والأوبئة وسقوط المدن والممالك. كانت مرثية إرميا بعد سقوط أورشليم. هذا الانهيار الذي حصل مادياً / واقعياً بسبب محاصرة الجيش البابلي لها وتدميرها عام ٥٨٧ ق.م وإنهاء الدور السياسي للملكة يهوذا.

ويمثل سقوط أورشليم هزيمة عسكرية أما الشخوص في مرثية إرميا، في أحادية – كمـــا هو معروف – تمركزت بشخصية إرميا فقط. لكن هذا لا يمنع من الإشارة لوجــــود شـــخوص أخرى / مغيبة داخل النص، مثل الإله اليهودي يهوه مع إشارات ضمنية للأم اليهودية الزاحفة من حضارات الشرق.، لكن لم يظهر لهما دور في المرثية الخاصة بأورشليم.

ووفـــرت الشخوص المتعددة لمرثية أور فرصة بلورة المستوى الدرامي لها، لهذا اتصفت بسمات مسرحية واضحة وهذا هو سبب الاهتمام بها في الحاضر وتقديمها عبر عروض مسرحية.

وبســـبب المـــرحلة الحضارية ونوع الديانة السائدة كان للآلهة دورها في النص وغيابها في نص إرميا، لأن اليهودية ديانة موحدة وإن انحدرت مرات عديدة نحو الإلهة الوثنـــية التي عرفتها الحضارات المجاورة. ولكن ظلت تلك المعرفة محدودة في الكثير من العقائد والطقوس.

صـــعدت مديـــنة أور نحو مجالها الحضاري مرة جديدة وهذا ما يؤكده المشهد العاشر من رثاء أور:

الجوقة لقد ولت أيام العاصفة المريرة
والمستقبل يبدأ بعد الانتصار
البلاد شيدت منذ زمن قديم
وعبد الشعب يا نانار دروبك بالقرابين
وضمخ الطيب الشعب ذا الرؤوس السوداء
الذي يكن لك عميق الحب والاحترام

مدينتك التي كانت ركاماً

ترفع إليك قدسية الابتهال

آه يا نانار

المدينة المشيدة

تعود إليك الآن شامخة، ساطعة

تقترن بك بشكل أزلي

الملك آه يا نانار

إن نظرتها تعيد الأمل في قلوب الجموع

ويشفي شعاعها الألم المرير

وتحيا أزلية في القلوب

آه يا نانار / يا نانار العظيم

مدينتك شيدت شامخة

تلهج لك خاشعة

بثناء الشكر والمديح

أما مدينة أورشليم، فقد ظلت خراباً واكتفى اليهود بصمتهم انتظاراً لما سيقوم به الإله اليهودي / يهوه... و لم يأت منه الإنقاذ، بل جاء من الخارج / بلاد فارس:

خير أن ينتظر الإنسان

خلاص الرب بارتياح

وخير له أن يحمل

نيره منذ صباه

يجلس وحده ويسكت

عندما يَضعُ نيره عليه

ينحني بغمه على التراب

آملاً أن يجد الرجاء

مراثي إرمیا ۳: ٢٦ — ٣٠

توزعت مرثية أور على عشرة مشاهد، وإرميا على خمسة مشاهد، في مرثية أور مجموعـــة مـــن الأنســـاق، تضافرت مع بعضها لتكوّن النص ومنها، الإنسان / الإلهة المذكرة، والإلهة المؤنثة / المجاميع ومراتبها المتنوعة / الأم الكبرى / المعلق الخارجي

بينما نجد إرميا لوحده، هو السارد الوحيد في مرثيته وتوفرت خصائص فنية في رثـــاء أور وهـــذا ما توصلت إليه الباحثة "روزن كارتن" وتعتبر هذه الخصائص بمثابة النتائج الأخيرة وهي:

١. إن هـــذا النص يشابه في بنائه وشخصياته وقصته مسرحيات إغريقية مهمة جداً، مثل مسرحية الفرس (اسخيلوس) ومسرحية أجاممنون.

٢. الجوقـــة وأهميتها في النص، لها ذات الوظيفة التي عرفت بها الجوقة الإغريقية. فهي هـــنا تتحدث وترتل وتغني. جوقة تمثل العمل وتفسر. تصف أحياناً أداء الممثلين وتسلط الضوء على الأحداث ومستقبلها وتعلق على مستقبل الشخصيات.

٣. إن النص السومري مثل النص الإغريقي يعرض نتائج تاريخية وأفعال وسلوك وحياة الآلهة من خلال سلوكية البشر(*).

٤. الصلاة والدعاء، لم يكن لهما وظيفة دينية بقدر ما هما خاتمة للمسرحية والفعل الدرامي وبهذا حصل تشابه – أيضاً – بالشكل والبناء.

٥. النص السومري، نص أدبي بشكله الأساسي.

٦. إلى جانب الأغاني والأناشيد يصاحبها عزف على الآلات الموسيقية، كما أن العرض تخلله فعاليات صامتة تلعب دوراً مهماً في تجسيد قصة النص، كما نجده واضحاً بالأفعال والعزف الذي تؤديه الإلهة ننكال.

- تميزت مرثية أور بشعرية عالية، تبدت في الانزياحات والرموز الكثيرة. كذلك مراثي إرميا.

- تهيمن على نص أور بنية كلية للخراب كذلك نص إرميا ويوحد نص أور نظام ديني / وثقافي واحد، وهذا ما وفر له وحدة وتكاملاً واتصالاً. بينما نلاحظ في نص إرميا وجود توقفات / وانتقالات ذات مواضيع خارج كلية الخراب والدمار. وهي ذات صلة بالإله يهوه وإسرائيل وترديد الشكوى.

- مرثية أور مشحونة بالحنين إلى المكان المزدهر والحضارة وأنسقاها العديدة التي ساهم الإنسان العراقي القديم بإنتاجها وتكريسها، أما نص إرميا، فإنه يطفح بالعدوان والكراهية للأعراق الأخرى، وكأنه امتداد للعدوانية والإبادة التي عرفتها الأسفار الأخرى. والعرقية والعلّية التي انطوى عليها نص إرميا، يقدم لنا

(*) لم يكن النص السومري مماثلاً للإغريقي وإنما العكس هو الصحيح. ويلاحظ في نتائج "روزن كارتن" الانحياز إلى المركزية الغربية واعتمادها أصلاً. والتعامل مع الآخر باعتباره هامشاً. وقراءة "روزن كارتن" مغالطة لا تقبل النقاش والاختلاف بسبب العمق التاريخي، الزمني لنص أور.

الشخصية اليهودية مكبرة لأنها ومع هزيمتها وانكساراها وضعفها، ظلت تنظر للشعوب الأخرى نظرة الحقد وانتهاز الفرصة من أجل الإبادة. فالشخصية اليهودية وإن لم تتوفر لها فرصة التدمير / والقتل فإنها تحن لهما.

- كتب الكهنة رثاء أور تحت موجهات البنية الذهنية الأسطورية ومشاركة العلاقات الاجتماعية بها أيضاً. أما نص أرميا، فهو – كما يبدو – نتاج شخصية واحدة فقط ويقدم رثاء أور في المناسبات الدينية والأعياد والاحتفالات استعادة لكارثة حصلت في زمن مضى. وتقديم هذا النص وغيره من النصوص والملاحم في الطقوس، يعني رغبة الشعب الحي لاستذكار تاريخه والتذكير به، كما أن عرضه في الطقوس يمنحه تحييناً – كما قال مارسيا الياد – لكن نص إرميا، مكتف باعتباره مدوّنة شعرية حازت على عناصر سرد دقيقة وذكية عبر الاختزال والانزياح والاستعارة والإكثار من الرموز والشفرات التي اختصرت المؤثرات الدينية وانساقها. وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالإخصاب / والعذرية. وبالإمكان قراءة "مراثي إرميا" باعتبارها امتداداً تكميلياً لسفره المعروف باسمه. ويبدو بأن مراثيه، مستلّة من السفر الأول، اعتماداً على وحدة الموضوع، مع الإبقاء على ما يومئ للأصل.

- تتحكم المرجعية التاريخية بالنصين. وتبدت المرحلة الحضارية وأشكالها الشعرية التعبيرية واضحة، في نص أور وأهمها، التكرار / التركيز / واستعادة المقاطع / والعناية بالشكل المدوّر، مما يؤكد كوّن هذا النص – وقبل أن يدوّن – مروية أيضاً. ويمكن اعتبار نص أور نصاً مؤسساً في آداب الشرق. أما مرثية إرميا فقد تبدّت فيها عناصر الإنشاء الذي عرفته الحضارات المجاورة. لما يؤكد مرحلته التاريخية / المتأخرة، حيث تخلصت النصوص من الظواهر الشعرية الأولى وعندما كانت نتاجاً للعقل الشفاهي.

- يعتبر نص أور أصلاً في المراثي التي عرفتها آداب الشرق أما نص إرميا فإنه لاحق ونـــص نقلي، امتدت إليه أنساق عراقية / وأوغاريتيه واضحة. واللحظة التاريخية لمدوّنة أور لحظة عراقية واضحة، أما مرثية إرميا فإن لحظتها خارج المكان الخاص بالمرثية.

- المنـــتج / الكهـــنة لـــنص أور أحـــرار في مدينتهم والصراع الحاصل بين الآلهة والســـكان. ومن الممكن أن تكون مرثية إرميا نتاج السجن — ظل إرميا سجيناً لفـــترة من الزمن — أو الغربة في مصر وهي تجسيد لصراع بين بابل كإمبراطورية واسعة وقوية وبين المدينة.

- ظـــل المقـــدس ناشطاً في نص أور، ولذلك لعبت الآلهة دوراً - ننكال — بارزاً ومهماً وكان للقداسة مجالها الواضح من خلال المعابد كمقرات للآلهة. أما مرثية إرميا فلا وجود لمكان مقدس فيها بداً، على الرغم من أن اليهودية استقرت ديانة توحيدية، كذلك يمكنا الإشارة إلى أن نص أور، تحول من شفاهية ومرويات إلى مدوّنة ثابتة، لكن نص إرميا ظل شفاهياً وخضع للتغيرات الكثيرة. ولهذا لم يكن هـــناك تـــأثير على نص أور باستثناء المجال التاريخي / الواقعي / والجغرافي، بينما اتســـع نـــص إرمـــيا لإضافات متتالية وهذا ما يؤكده النص، من خلال ضعف الوحـــدة العضـــوية، لمـــا يؤكد حصول شطب وإضافة في المراحل التدوينية التي عرفـــتها الـــتوراة. ولا يخـــتلف هذا النص عن غيره من النصوص التوراتية والتي انطوت على إشكالية الاختلاف / والتناقض / والتزوير.

- رثـــاء أور، يضيء مرحلة حضارية / دينية ويكشف عناصرها ونظمها السياسية. أي أنهـــا مدوّنة عن لحظة تاريخية معروفة وبتفاصيل دينية، ذات صلة واضحة مع البنـــية الذهنية الأسطورية السومرية. وقد كرست الآلهة — التعدد — هذا النص وصعد في مرات متأخرة كمرثية نفر / وبابل / أما رثاء إرميا فإن الهزيمة والعرقية

هي التي كرسته نصاً في كتاب حاول اليهود إضفاء القداسة عليه. وامتد نص أور في جغرافـــية، هي التي أسسته وكرسته. وحاز على عناصرها فقط. أما رثاء إرميا فإنـــه ممـــتد كالشـــليلة نحـــو فضاءات — الشرق القديمة، وتلك هي التي بلورته وصاغته.

مراجع الباب الأول

١. الكتاب المقدس.

٢. أ د. نـــائل حـــنون، الكشاف المختصر للنصوص الأدبية العراقية، المشهد الثقافي الجديد، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب، النجف، ٢٠٠٠.

ب) عقـــائد ما بعد الموت في حضارة بلاد النهرين القديمة، وزارة الثقافة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.

٣. طه باقر / ملحمة جلجامش، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٠.

٤. د. ســـامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠.

٥. ناجح المعموري، الأسطورة والتوراة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠١.

٦. د. عوني كرومي، رثاء أور، مجلة الأقلام — العدد — ٦، آذار، ١٩٧٠.

٧. (أ) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، الآلهة والبشر، قدم له أدونيس، دار الساقي، ١٩٩٧.

(ب) أخبار أوغاريتية، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٩.

٨. فراس السوّاح / مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥.

٩. د. زيـــاد مني، جغرافية العهد القديم، بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٥.

١٠. ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، القاهرة، ١٩٨٣.

١١. شـــفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨.

١٢. جان بوتيرو، ولادة إله التوراة والمؤرخ، ت: عبدالهادي عباس وجهاد الهوّاش، دار الحصاد ودار الكلمة، دمشق، ١٩٩٩.

١٣. الأختام الأسطوانية منقولة من رسالة ماجستير "الكتابة على الأختام الأسطوانية غير المنشورة في المتحف العراقي" وهي رسالة ماجستير غير منشورة، ريا محسن عبدالرزاق الحاج يونس، كلية الآداب، قسم الآثار، ١٩٨٧.

الباب الثاني

١. تأويل النص التوراتي

كانـــت الوصـــايا العشـــر بداية حقيقية للعلاقة بين الإله اليهودي وشعبه. في الشتات. حيث مثلت نظاماً جديداً وسط الصحراء. وكما تكشف الوصايا العشر عن ظهور واتساع علاقات سلبية / وسيئة بين القبائل اليهودية، وصارت ظواهر أخلاقية، تمركـــزت عبر التداول. لهذا كانت تعبيراً عن نشوء منظومة للعنف والقوة الرادعة من أجل الانضباط والتقيد. وقراءة الوصايا وحدها كافية للإشارة إلى الظواهر التي عرفتها القـــبائل وصـــارت سلوكاً لها. وأسباب نشوء تلك الممارسات هو الشتات والضياع والســـكن الـــرعوي والـــتجاور وانعدام العازل الكامل بين العوائل والأُسر، لذا نشأ الاخـــتلاط ومعه ممارسات جنسية لم تؤسس لها ضابطاً وتحريماً. وكل الوصايا الحادة / الآمـــرة / والصارمة هي تجسد لنشوء مظاهرها الحياتية السلبية: فالعلاقات الصحراوية والمجاعـــات والانـــتقال المستمر، ساهم بإيجاد مثل ممارسة الزنى والسرقة والقتل. وقد اعترفت النصوص التوراتية ببعض الأخطاء وأشرتها بشكل صريح، وهذا ما سنتحدث عـــنه لاحقـــاً. وخضـــعت الوصـــايا في إنتاجها وصياغتها، لطبيعة المرحلة الدينية / الاجتماعـــية / الاقتصـــادية. وقـــد تبدت من خلالها كل تلك العوامل والصراعات الداخلـــية، والـــتي عرفتها القبائل اليهودية، بحيث لم يستطع موسى قمعاً لها، وتحديداً

لاتســـاعها، على الرغم من قسوته ودمويته، حتى أنه لم يعد قادراً على مراقبة الحشود، وما يحصل بينهم. ولم يتمكن من حسم مشاكلهم اليومية / الحياتية، لكثرة الاختلاف فـــيما بيـــنهم، للأسباب التي أشرنا لها، لذا اضطر إلى تعيين القضاة، وهي مرتبة قبلية أيضاً، أوكلت لها مهمة التدخل في حسم الاشكالات والقضايا التي بينهم، لأنه ما عاد قادراً على تلبية حاجات الحشود في حسم القضايا، ووجد موسى، بأنه سيظل مكرساً للمشاكل فقط، ويترك الجانب الروحي / الدين،ي وهو أمر في غاية الأهمية، وعليه أن يولـــيه اهتماماً استثنائياً، لا سيما وأن الديانة ما زالت في بدايتها، وواجهت الكثير من المشـــاكل والتذبذبات، لذا قرر تحديد واختيار القضاة كي يحسموا ا لأمور والمشاكل التي تحدث بينهم.

"وجلس موسى في اليوم الثاني ليقضي للشعب فوقف الشعب أمامه من الصباح إلى المســـاء، فـــلما رأى يثرون كل ما كان على موسى أن يفعله للشعب قال له: ما هذا؟ وما بالك جالساً وحدك لتقضي لجميع الشعب وهم واقفون أمامك من الصباح إلى المســـاء؟ فأجابه موسى: يجيء إليّ ليعلموا إرادة الله. إذا كانت لهم دعوى يجيئون فأقضـــي بين الفريقين وأعرفهم فرائض الله وشرائعه. فقال يثرون لموسى: لا خير في ما تعمـــل. فأنت تتعب نفسك وتتعب هذا الشعب معك. لأن الحمل أثقل من أن تحمله وحدك. والآن اسمع نصيحتي فيكون الله معك:

.... اخـــتر من الشعب كله رجالاً أكفاء يخافون الله وأمناء يكرهون الرشوة. وولهم على الشعب رؤساء ألوف ومئات وخماسين وعشرات. يقضون للشعب في كل وقـــت ويرفعون إليك كل أمر خطير ويحكمون هم في كل أمر صغير فيحملون الحمل معكم ويخففون عنك. "

سفر الخروج ١٧: ١٣ – ٢٣

يضـــيء هذا النص مستوى العلاقات الاجتماعية الموجودة بين القبائل وأفرادها وتردي الأصول التي أخذوها معهم عندما خرجوا من مصر. ويؤكد هذا النص العوامل التي أشرنا لها وهي الاجتماعية / الدينية / الاقتصادية، التي كانت وظلت وراء المشاكل الحاصـــلة بينهم. وكانت المشاكل ذات طبيعة اقتصادية / واجتماعية، أما الدينية فهي إضـــافة مـــن الكتـــبة الذين دوّنوا التوراة، من أجل تلطيف المأساة الحاصلة وتخفيف حدتها، عندما وزعت المشاكل على ما هو ديني أيضاً.

ولكـــن الحقيقة التي يقدمها سفر الخروج متعلقة بالعلاقة الموجودة بين العوائل والـــتجمعات الأوسع، وكذلك اجتماعياً واقتصادياً. حتى أن موسى لم يعد قادراً على أن يكون وسيطاً ممتلكاً لسلطة الحسم الفوري.

لذا استعان بالقدرة الإلهية / اليهوية من أجل وضع الضوابط القادرة على كبح الحشود وترويضها وتأديبها أيضاً. لهذا أنزل الإله اليهودي / اليهوي وصاياه بعد ثلاثة أشـــهر من مغادرتهم مصر. ونزول الوصايا كفيل لبيان مستوى العلاقة القائمة وسط صـــحراء لا يملك فيها اليهود كل شيء. وعرفوا عبرها المجاعة / والأمراض / الأوبئة / السرقات / الاغتصابات، وممارسة المحارم المتنوعة وستضيء دارستنا الاختلاف الحاصل بـــين المراحل التي استدعت الوصايا العشر في المرة الأولى (في سفر الخروج) وفي المرة الثانـــية (ســـفر التثنـــية)بحيث تبدت خصائص كل مرحلة من المرحلتين وإن كانت الاختلافات بسيطة، إلا أنها كشافاً للمتغيرات الحاصلة.

ويـــبدو الارتـــباك واضحاً على موسى، بحيث لم يستطيع معالجة تلك الأمور وكيفية حسمها، عبر الاستعانة بالجماعات الواعية، القادرة على إصدار القرار والحكم. وكان يثرون منقذاً لموسى من تلك الفوضى، التي لو ظلت مستمرة لخلقت له كثيراً من المصـــاعب والمتاعـــب. ولأن مقـــترح يثرون مصيباً وجد صداه سريعاً واستجاب له موســـى. وكانت استجابة ممثلة لمنقذ لم يكن في تصور موسى. وكان اختياره للقضاة

معبراً عن متاعب ومصاعب وصراعات مرحلة الابتداء في المغادرة والدخول إلى سيناء. وتعـــيين القضاة، أشر – أيضاً – استحالة إمكان الفرد في قيادة كل القبائل والسيطرة عليها والتحكم بتصرفاقما، وسلوكها اليومي، ومراقبة طقوسها وطرق تنفيذها لعقائدها الجديـــدة / والقديمة المنقولة معها عند الخروج. ومرحلة نزول الوصايا العشر، معقدة ومضــــطرمة بســـبب العامل الاجتماعي/ والاقتصادي، لهذا كان الإله ينبه إلى ضرورة التقيد بالأوامر والوصايا. حتى كان كلام الإله يهوه لنبي إسرائيل في سيناء هادئاً ومرناً ومعبراً عن مغامرته ومجازفته من أجل إنقاذهم.

"والآن إن سمعـــتم كلامي وحفظتم عهدي، فإنكم تكونون شعبي الخاص بين جميع الشعوب. فالأرض كلها لي وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة. "

سفر الخروج ١٩: ٥-٧

واســـتطاع الإله اليهودي النجاح في خطابه الموجه لبني إسرائيل حيث حضي بالقبول والانصياع له والاستجابة لكل ما قاله ونقله لهم موسى. عندها حصل تغيّر في الخطـــاب الإلهي / اليهوي، واختلفت لغة الحوار حيث أراد تحضيراً لوصاياه وتهيئة لبني إسرائيل، نفسية وجسدية.

"قـــال له الـــرب: اذهـــب إلى الشعب وقل لهم: طهروا نفوسكم اليوم وغداً واغســـلوا ثـــيابكم، واستعدوا اليوم الثالث. ففي اليوم الثالث أنزل أمامكم على جبل سيناء. "

سفر الخروج ١٩: ١٠-١٢

تـــبدو واضـــحة لغة الإبلاغ والطلب إلى موسى أن يهيئ بني إسرائيل روحياً (نفســـياً) وجسديا، لأنه يعرفهم جيداً من خلال المشاكل التي حصلت وما أثاروه من

اضطرابات وانتفاضات، كسرت حاجز المهابة الإلهية الذي كان موجوداً عبر علاقتهم مع موسى. وما أبلغه إلى موسى يمثل محاولة من الإله اليهودي للتمهيد من أجل خطابه الإلزامي الذي سيطلقه موجهاً لبني إسرائيل وملزماً لهم به.

"فـــترل موسى إلى الشعب وأمرهم أن يطّهروا نفوسهم ويغسلوا ثيابهم وقال: كونوا مستعدين لليوم الثالث ولا تقربوا امرأة".

سفر الخروج ١: ١٤ — ١٥

كلام موسى واجب التطبيق، لأنه إلهي / يهوي، بدون أن يقدم حلاً لأزمة الماء في الصحراء وشكواهم من العطش، وحصول انتفاضاتهم المشهورة في سيناء. كما يقدم الـــنص إشـــارة إلى قذارة بني إسرائيل وتراكم الأوساخ عليهم. ولعل أمر الإله بعدم تقربهم لامرأة يعني عدداً من المشاكل التي بالإمكان الإشارة لها وأهمها:

- تـــزايد ممارســـة بني إسرائيل للمحارم فيما بينهم لذا اشترط عليهم عدم التقرب لامرأة وبدون تحديد لما تعنيه المرأة في هذا النص (وسندرس ذلك ضمن الوصايا).
- وضـــع هذا الشرط محاولة من الإله لجس مستوى استجابتهم لطلبه، وانصياعهم لأمره الإلهي.
- إرسال شفرة يهوية عن أهمية وخطورة اليوم الثالث وقداسته، بحيث تحول التثليث إلى مبدأ حيوي في الديانة اليهودية، وهو مبدأ فيه قداسة ارتحلت إليه من ديانات الشـــرق القديم، لقد انتقل لهم من مصر كجزء من ثقافة غادرت معهم وتعاملوا معها باعتبارها جزءاً من إرثهم الثقافي وانطوت هذه الشفرة على وجوب التحقق كفعـــل إلهـــي لابد منه ولا يمكن له أن يتأخر لليوم الرابع مثلاً. وفي ذلك إضفاء

القدرة الخلاقة والخارقة على يهوه الذي لوحده يحدد ما سيكون وسيحدث بحيث يقول له كن فيكون.

- أول إشـــارة مهدت للعلاقة مع المرأة التي صارت تابواً. مثلما عبرت عن كونها دنســـاً، لأن الاقتراب منها وإقامة اتصال ثنائي جنسي وإياها يعتبر خرقاً لناموس الإله يهوه الذي هيئ له وسيلعن عنه لاحقاً.

- ومن هذا النص، ابتدأ التابو الأنثوي يخترق حياة بني إسرائيل وتؤسس حوله عزلة، لــتفقد / المرأة بعضاً من خطاها، وتظل أسيرة الخطاب الذكري. وتحقق لها العزل في الحياة الاجتماعية والدينية. وإشارة الإله لضرورة تعطل الاتصال مع المرأة، تعني أيضـــاً تـــبلور موقف ديني جديد، مثلما تحسد اتساع مساحة ممارسة المحارم بين الجماعات. لذا كان طلب الإله – المشار له – تعطيلاً لفعل ممارسة المحارم.

وستكشف لنا الوصايا هذا التابو وتؤكده باعتباره ظاهرة أخلاقية شائعة جداً.

وعلى يهوه أن يظهر جبروته وقوته وعظمته قبل أن يرسل وصاياه من أجل أن يضمن الاستجابة لها والقبول بها والالتزام بتنفيذها. لأنه يدرك جيداً همجية بني إسرائيل ووحشـــيتهم وأخلاقهـــم الصحراوية. وأكد جيمس برستيد على أن بني إسرائيل بدو رحـــل طبعـــت الصحراء الثقيلة أخلاقهم و سلوكهم بطابعها. وطغت عليهم القسوة والصـــلابة، عـــرف الإله يهوه بأن شفرة التهديد ضرورية جداً. وهذا ما حصل له في تجلـــية فـــوق جبل سيناء، لأنه كان تجلياً له وظيفة ردعية، وهو رأسمال رمزي للديانة الجديـــدة بـــه ومن خلاله يحصل ضبط بني إسرائيل. ولهذا لجأ موسى إلى تحشيد بني إســـرائيل عـــند جبل سيناء، كي يروا في اليوم الذي حدده الإله – الثالث – الرعود والـــبروق والســـحاب الكثيف على جبل سيناء، وصوت بوق شديد، أثار الرعب في الحشود. إنه الإعلان اليهوي وبطريقة الإله الخاصة للإمساك بالحشود وتحديد حركتهم

وتقليص تمرداتهم لأن الإله اليهودي، كثيراً ما واجه المتاعب مع نبيه بسبب الانتفاضات والثورات التي أربكت مسار الديانة الجديدة.

كـان إثـارة الرعب عند بني إسرائيل هو المطلوب من يهوه، عندها أخرجهم موسـى – لملاقاة الإله – لكنهم لم يتحركوا أكثر من حافة الجبل الذي يلفه الدخان، هذه الصورة السريالية الشتوية التي طبعت الجبل كانت بسبب نزول الإله فوقه والرعود والـبروق والأصـوات هـي تـبديات الإله المرافقة له لحظة نزوله فوق جل سيناء / حوريب، وهي ذاتها عناصر العديد من الآلهة في الشرق الأدنى القديم(*) وهذه العناصر ضـرورية للإله، أنها ساهمت بصياغة الموقف النفسي / الروحي لبني إسرائيل وموقفهم الجديد.

لقد اختفى الجبل بالسحب والدخان. وكأنه أتون مشتعل، وصوت الرعد يترفع وموسـى يتكـلم، لكننا لا نعلم بالذي قاله موسى مع الإله أو مع الحشود الموجودة أسـفل الجبل. ولا ندري كيف تسنت الفرصة لموسى في التحاور مع يهوه وسط تلك الفوضـى والضجة، التي كان الإله يعمقها بالتتالي الرعدي المستمر لقد نزل الإله فوق الجـبل، وبـني إسـرائيل وسط الدهشة والذهول والخوف. ولم يصعد إلا موسى في البداية، لأن الإله نادى عليه ويبدو بأنه لا يستطيع الحديث من على مسافة إلى موسى، لأنـه صـعد إليه بعد أن طلب منه ذلك. وقال له انزل واطلب من بني إسرائيل أن لا يقـتربوا مـن الجبل ولا ينظروا إليّ لأنهم يهلكون. السؤال، ألم يكن باستطاعة يهوه إخبار موسى بذلك، حيث يوفر عليه متاعب الصعود فوق الجبل والنزول ثانية لإبلاغ بني إسرائيل بالأمر اليهوي. لقد منع الحشود من الاقتراب إلى الجبل، وطلب من الكهنة / مؤسسـته الدينـية التخلص من وساختهم وملابسهم القذرة والتقدم إليه. وتحصل

(*) درسنا هذا في "كتابنا – أقنعة التوراة والصادر عن الدار الأهلية للنشر / عمان، ٢٠٠٢.

المفارقـــة أمام بني إسرائيل لحظة طلب الرب من موسى بالنزول مرة ثانية والصعود مع هارون. وربما هذا الصعود – لهارون – هو الذي ساهم بصياغة أصول الموقف الديني لهـــم بعـــد صعود موسى طويلاً فوق حوريب، والطلب إلى هرون صنع عجل ذهبي لعـــبادته. لأنهم عرفوا بالعلاقة التي يتمتع بها هارون عند الإله، و لم يكن طلبهم خروجاً على الرب وإنما تاصيلاً لقناعة وإيمان بشخصية هرون. و لم لا يأتمرون بهرون وهو على هذه الدرجة من الحضوة عند الإله يهوه؟

و لم يقـــدم الـــنص التوراتي تبريراً لصعود هرون. ووضع الحد على بني إسرائيل والكهـــنة؟ وهـــل كان هرون شاهداً على الحوار الدائر بين الإله وموسى؟ أم أنه – هارون – سيستلم مع موسى الوصايا العشر؟ وهذا أمر غير ممكن، لأن الوحي خاص بموســـى. وعلاقـــة يهوه معه فقط. هل أدرك الإله اليهودي / اليهوي ضعف شخصية موســـى، وحاجته إلى دعم معنوي وقوة رمزية، وسمح لهرون صعود الجبل كي يحترمه العبران ويخافون منه ويصير قوة مساندة لموسى.

٢. الخصوبة اليهودية المسروقة

لأن الإلـــه عـــرف موسى جيداً أمام انتفاضات بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، لم يأخذهم نحو حياة سعيدة وراحة واستقرار، وإنما قادهم نحو الجوع والعطش. وكـــان رد فعـــلهم قاسياً على موسى و على الإله وكان آنذاك أول تحدٍّ للإله يهوه. وكشـــف له ولموســـى بأن بني إسرائيل وضعوا أمامهم المتحقق في مصر، والموجود في سيناء، وأدركوا بأن وجودهم هناك — مصر — كان سعيداً، ويوفر لهم كل ما تحتاجه الـــنفس. أمـــا الشـــتات، فقـــد علمهم الجوع / العطش / الرشوة / الزنى / ممارسة المحـــارم...الخ. وجسدت انتفاضة بني إسرائيل خيبة موسى وإحساسه بالفشل وإمكان بقاء الثورات التي ستأكل كل شيء، وتبوء مهمته بالفشل. وعلينا أن نتصور شخصية موســـى وهو يحوز على البطولة مع النبوة عند إخراجهم من مصر وبواسطة الضربات المعـــروفة ويرتل نشيد نصره في سيناء، يواجه ذلك التمرد الموضوعي الذي وضع بني إســـرائيل أمـــام مواجهة جديدة وحادة جداً. لذا استجاب الإله لهم، استجابة أعادت صياغة أساطير الشرق الخاصة بمنظومة الخصب.

"... فـــألقوا اللّوم على موسى وهرون في البرية وقالوا لهما "ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، فهناك كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام حتى نشبع، فلماذا أخرجتمانا إلى هذه البري لتميتا هذا الجمع كله بالجوع".

سفر الخروج ١٦: ٢-٣

يمـــثل هذا الكلام رفضاً لما هو كائن، وتحدياً لهرون وموسى لأنهما يريدان قتل الجموع عبر الجوع، واعترف بنو إسرائيل بحياتهم داخل مصر، وكانوا يفضلون الموت بيد الرب على الخروج إلى سيناء، ويموتون فيها بالجوع.

"فقال الرب لموسى" الآن أمطر لكم خبزاً من السماء وعلى الشعب أن يخرجوا ليلتقطوه طعام كل يوم في يومه. بهذا امتحنهم، فأعرف هل يسلكون في شريعتي أم لا ويكون ما يلتقطونه في اليوم السادس ضعف ما التقطوه في كل يوم قبله."

سفر الخروج ١٦: ٤-٥

لقـــد تحققت أسطورة الإله اليهودي باستنـــزال الخبز مطراً من السماء ووضع ضـــابطاً لهـــم، ورادعاً ينظم علاقة الجائع مع خبز لم يروا مثيلاً له من قبل حتى يعرف سلوكهم والتزامهم.

"فأعـــرف هل يسلكون في شريعتي أم لا" ويبدو هذا الطلب غرائبياً ولا يصدر إلا مـــن إله أرعن، وقامع، لأنه يريد من الجياع أن تأخذ قليلاً وهي التي كادت تموت جوعاً.

ولأن المـــنّ أنقذهم وخلص الإله يهوه من قطيعة معه، وأسعد موسى من خلال أسطورة ما زالت مشهورة. أمر موسى هرون تقديم المنّ أمام تابوت الرب.

"وقـــال موسى لهرون: خذ جرة واجعل فيها ملء الغمرّ منّاً وضعه أمام الرب محفوظاً مدى أجيالكم فوضعه هرون أمام تابوت العهد محفوظاً كما أمر الرب موسى"

سفر الخروج ١٦: ١٣-٣٥

ظل المنّ محفوظاً في تابوت العهد ويأكل منه العبران خلال فترة شتاهم، يزودهم الإلـــه يهوه به حتى دخولهم كنعان. ولأول مرة يحدث في أسطورة دينية، تتداخل معها وقائع، بعضها تاريخي، أن يتغذى شعب كامل بخبز سماوي لمدة أربعين عاماً. تعبيراً عن رعويـــتهم وعـــدم تملكهم لأرض يمارسون عليها نشاطهم. لذا توقف خبز الرب بعد دخولهم إلى كنعان.

وفي نـــص لاحق، كان المنّ محفوظاً مع عصا اللوز في تابوت العهد علامة تشير إلى مرحلة من مراحل الشتات الصحراوي.

وأجد بأن أمر الرب الذي نقله موسى إلى هرون القاضي بوضع المنّ في تابوت العهـــد مع عصا هرون تعبير رمزي عن سعي يهوه لحيازة الطاقة الجنسية التي تقترن بها فاعلـــية الحياة. وأجد بأن المنّ هو ماء يهوه وطاقته الجنسية / الذكرية " المني" كعنصر مـــن عناصـــر منظومة الخصب التي عرفتها الديانة العراقية القديمة. لأن حيوية الطاقة وقدرتها على التخليق صفة الآلهة التي حازت صفة الخلق. وهذا ما سرقه يهوه من الإله السومري أنكي ومن دوموزي أيضاً في أناشيد الحب السومري.

أشـــار الأستاذ شفيق مقار إلى أن – الشرخ في ظل ذلك الاختلاس الأسطوري لألوهة المعبودات القضيبية لأخرى المنافس كهنوتها لكهنوت يهوه – ناجم عن التناقض الجذري بين الإصرار على اختلاس القدرات القضيبية لتلك المعبودات والإصرار – إبان عملـــية الـــتحرير والتثبيت بالنصوص التي تواكبت مع جعل يهوه إلهاً محتجباً أثيرياً لا مشـــخّص، ولا جنسي ورفعه إلى ما فوق الخلد. السومريون والبابليون، والكنعانيون،

الــذي جــرى ذلك الاختلاس منهم، لم يكونوا قد ابتلوا أنفسهم أو ابتلاهم صانعوا أســطورياهم بداء التطهرية المكذوبة العضال والذي ابتليت به عباده يهوه في الصياغة الكهنوتية بحكاية آدم وحواء "الخطيئة الأصلية" و لم يكونوا قد فصلوا في وعيهم الجمعي بين الدين ومتاعبه الجنسية، ولذا فإن كان بوسعهم أن يرنموا لــ "الأب إنكي"

وهو واقف بخيلاء كثور عارم

رافعاً قضيبه قاذفاً منيّه مالئاً دجلة بالماء

الزلال

ودجلة مستسلم له كبقرة برية لثور لا يغلب،

إنكي رافعاً قضيبه قاذفاً مهر عروسه

مفعماً بالنشوة مياه دخلة كثور فحل في لحظة

الإخصاب

مريقاً ماءه، نبيذه حلو المذاق،

منبتاً الغلال، الغلال الوفيرة ليقتات البشر،

وليملأ بيت إنليل بالخيرات

بإنكي إنليل يسرّ وتبتهج نفر

ولأن الحضــارة العراقية القديمة معنية بالحياة، واستمرارها وبقاء الخصب فيها شــرطاً، اهتم الآلهة بذلك، الآلهة المهمة في البانثيون وصار الخلق واحداً من وظائفهم وتنوعــت تلــك المــنظومة الخصبية في التعبير عنها والإشارة لها من خلال الكثير من النصوص والأناشيد والأدعية وكان "المنيّ" مفردة تعني ماء الحياة / قطرة الذكورة التي

لا تخــدش الـــذوق عند الاستماع لها، هذه المفردة ساهمت بتكوين وصياغة منظومة الأناشــيد الدوموزية الخاصة بالاتصال والحفاظ على ديمومة الانبعاث وعوده الأبدي. ولهــذا ارتحلت إلى الديانة اليهودية والفرق المورفولجي بسيط بين الاثنين "المنّ" و"المني" وكلاهما طعام للجسد، كي يحافظ على بقائه واستمراره و"المنّ" الذي صار خبزاً لبني إســرائيل، هــو غذاء الأرض النازل من السماء ليخصبها عبر استمرار علاقة التغذية للحشــود. والمنّ هو القذف السماوي / الإلهي نحو الأرض، ولا يختلف عن ماء الإله إنكــي وهــو يملأ دجلة بالماء الرقراق والمتدفق، كي يتم الحفاظ على الحياة ونسقها. ولأنه معجب جداً بعناصر ألوهة الخصب، اندفع وحاز عليها وأسقطها مطراً / خبزاً، يأكله بنو إسرائيل، تطرفاً في الحيازة وتبديها بتلك الوظيفة.

منــيه يتساقط ويصير خبزاً. ويظل فعل الخصب مالئاً للجرة لفترة أربعين عاماً. ويلاحــظ التــناغم بين الجرة (الرحم) وهي شكله الكامل وبين "المنّ" المخزون فيها، تعبيراً عن فعل الاتصال الثنائي بين الإله يهوه وبين أنثاه المجازية (الجرة) ونجد الكثير من النصوص العراقية القديمة حافلة بهذا التعبير المجازي ولعل أناشيد الحب السومرية أفضل دليل على ذلك.

وبمجــرد أن تدفــق من حضن الملك – ماء القلب –(*) فعلى جوانبه انبثقت الزروع، وعلى جوانبه نبت الحبّ.

وبقربه زخرت ينمو نباتها السهوب والمروج
بينما في بيت – الحياة، في القصر الملكي
ركنت قرينته إلى جانبه تملأ قلبها بالبهجة
في بيت – الحياة، في القصر الملكي

(*) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، أناشيد الحب السومرية، دار الساقي، لندن، ١٩٩٦، ص١٢٤.

بقيت إنانا إلى جانبه مكتملة البهجة
كان حبيبي قد قدم للقائي
فبلغ معي لذته وكنا سعيدين معاً!
كان أخي قد قادني إلى داره
وجعلني أتمدّد على فراشه الناعم المضمخ بالعطر!
وعند ذلك تمدد حبيبي العذب فوق قلبي
وبضربة لسان بعد أخرى، وبـــ "...." بعد آخر
ولكنه بعد ذلك، ويداه على خصريه
بعد أن أشبع شهوته، حبيبي العذب "قال لي"
دعيني أذهب يا أختاه، دعيني أذهب!
بل! أي أختي الحبيبة، أنا عائد إلى القصر

وســـنحاول إضاءة التشاكل الموجود بين الأصول السومرية الخاصة بالإله إنكي والإلـــه الـــيهودي / اليهوي في مجال الخصب ونظام الخلق، وستضيء كشوف القراءة تعلق يهوه بوظائف ليست له، ولم يذكر معها من قبل أبداً.

الترانيم السومرية(*):

١. أنا الرب وليس آخر.
٢. أنا من يأمر فلا يسأل ولا يرد له أمر.
٣. أنا من إذا مست قدمه الأرض فاضت ينابيعها.
٤. وإذا مرت قدمه قرب مروجها تكدست فيها الغلال وكثر القطعان.

(*) شـــفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨، ص٢٩٠.

العهد القديم – سفر إشعيا:

١. أنا أنا الرب وليس غيري "٤٣: ١١"

أنا الرب وليس آخر "٤٥: ٥"

أنا الرب وليس آخر "٤٥: ٦"

أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري "٤٥: ٢١"

٢. من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي، أفعل ومن يرد؟ "٤٣: ١٣".

لأني أنا الرب وليس آخر.. رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي. قد تكلمت فأجريه. قضيت فأفعله "٤٦: ٩-١١".

المزامير:

٣. تعهدت الأرض يا يهوه وجعلتها تفيض

تغنيها جداً، سواقي يهوه ملآنه ماء "٦٥: ٩".

٤. تبارك غلتها وآثارك "آثار أقدامك" تقطر دسماً، تقطر مراعي البرية وتنطق الآجام بالبهجة وتكتسي المروج غنماً " ٦٥: ١٠-١٣"

بهذه المقارنة المحدودة(*) يكون قول إنكي "أنا الرب وليس آخر، أنا من يأمر فلا يسأل ولا يرد له أمر" ركب دماغ إشعياء بشكل جعله يكرره تكراراً مفرطاً في الإلحاح ولم يخدم يهوه كثيراً بل عله يبدو كما لو كان مخلوقاً بشرياً" ربما كان إشعياء ذاته "مصاباً بعقدة نقص خطيرة، ثم – في النهاية – يتساءل، ليطمئن قلبه "أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري"؟

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة، سبق ذكره، ص٣٩١.

أمـــا قول ذلك المعبود السومري إذا مست قدمه الأرض فاضت ينابيعها وإذا مــرت قدمه قرب المروج تكدست فيها الغلال و كثرت القطعان، فإعلان سيادة إلهية في أســطوريات كـــل آلهة الشرق الأدنى القديم القضيبية التي اغتصبت – على غياب حلولها البطرياركي – وظائف الإنعام بالخصب والخصوبة على الأرض والبشر وسائر المخلوقـــات من الإلهة المؤنثة. وذلك إعلان سيادة إلهي بطرياركي نجده تاركاً بصماته بقوة لا تخطئها عين في التوراة وسائر العهد القديم، فيما يتعلق بقدرات عزيت إلى يهوه بالاخـــتلاس من الآلهة القضيبية الأخرى. ذات الكهنوت المنافس للكهنوت اليهوي، بشـــأن مـــنح المطـــر أو منعه والإنعام بالخصب (بفتح رحم) أنثى الإنسان والحيوان. والخصوبة، بقذف المنى الإلهي المخصب "ماء الروح، ماء الحياة، ماء السماء" في رحم الإلهـــة الأم / الأرض، أو الابـــتلاء بالقحط و"إقفال رحم" أنثى الإنسان والحيوان، والامتناع عن إمداد رحم الأرض بالمني الإلهي.



شكل (١٢): عشتار التي ترضع العالم... مصدر الأسطورة

٣. العصا علامة رمزية

وســـرق الإله اليهوي خاصية إلهة الشرق / الحضارة العراقية والمصرية ليعبر بها عـــن قوة مماثلة ومكانة مهابة، لكنه لم يكن عارفاً من أن تلك الخاصية بحاجة إلى نظام مـــتكامل تتوزع عناصره إلى الأرض / المياه / والبنية السياسية التي تتحول لاحقاً إلى مـــدار له حضوره في حاضنة الألوهة. لأن الملك امتداد للآلهة وممثل له فوق الأرض. الملك يحكم / ويقود الرعية. لهذا فإنه / الملك يحمل بيده عصا الإله، التي صارت عصا الملوكـــية، إشـــارة لرعيته وقد حاز الإله يهوه على صفة الملك أيضاً ومثلما كان ذلك للإله آنو في العراق القديم والإله أوزيريس.

وكانـــت عصـــا يهوه الموجودة في تابوت العهد (سنناقش ذلك لاحقاً) عصاه الـــرعوية مثـــلما قلـــنا، وهي علامته على غطرسته وجبروته، ووسيلته الرادعة — مع الظواهـــر الأخرى — لبني إسرائيل والشعوب الأخرى التي تتجاوز عليه وتوجه الإهانة لـــه. وعصـــا الإله يهوه الرعوية، ظلت لفترة طويلة ملازمة له و لم تكن العلاقة معها رمـــزية مثلما هو حاصل مع الإله والملوك لاحقاً، لأنه قضى فترة طويلة جداً هائماً في الصـــحراء مع بني إسرائيل وحيواناتهم ومواشيهم وهي فترة طويلة وصعبة وكان يهوه وموســـى يحـــتاجان للعصـــا. وهـــي / العصا الدالة، على السلطة المتنوعة / المختلفة

وســـأحاول تقديم توصيف تاريخي وتأصيل للعصا في الحضارات الشرقية وصلتها مع الدين والمرحلة الرعوية.

ولا يمكـــن لأي دراسة معنية بالألوهة والديانات البرية والتوحيدية أن تتجاهل وجود العصا كعلامة مرتبطة ارتباطاً أساسياً مع النبوة والشخص المعني بالدور القيادي في السلطة.



شكل (١٣): النبي إبراهيم مغادراً أور، رافعاً عصاه

كونـــت العصـــا بعضاً من تجسدات الآلهة والملوك. وهذا ما توضحه الأختام الأسطوانية والتماثيل المنتشرة على مساحة واسعة. وذلك لأنها تمثل رمزاً لنظام الخصب والنسق الخصوبي وصلة ذلك مع الإلهة الأم وهي – العصا – علامة مشهورة / معروفة / مـــتكررة كـــثيراً بهيئة عصا قضيبية في نهايتها: استدارة. وصار لها دور آخر مرتبط بتطور النظم السياسية والاجتماعية، وتبلور الصراعات بين دويلات المدن. حيث كان

دورهـــا آنـــذاك دفاعياً وصيانياً، وتطورت في العصر الآشوري المتأخر وحازت على عناصـــر عسكرية، ولذا صنعت من البرونز أو الحجر، وهي قصيرة وذات نهاية مدببة مثل نهاية الرمح كما كانت واحدة من وسائل اللهو والرياضة وإعداد الجسم. وعلى الرغم من امتداد العصا كعلامة سيميائية ومنذ ابتداء التاريخ وحتى الآن، فإنها اكتسبت عـــبر التداول معناها التداولي المتطور مع اختلاف الوظائف الخاصة بها وهيمنة لها في الحـــياة، من خلال الاستعمال الاجتماعي، لأن المؤسسة الاجتماعية أنتجت وظائف للعصا مختلفة عبر العصور والحقب، من أجل تحققات نفعية. لذا فعند توصيفنا لتطور العصا من خلال وظائفها، نتعرف على الفروق الموجودة فيها بين المراحل الحضارية. فمثلاً كانت العصا في زمن حمورابي أطول من قامة حاملها ومستوية من نهايتها وذات رأس صـــغير ومـــدوّر في بدايتها، ومثلها العصا الملكية الفارسية والرومانية، وظهرت العصا بعد زمن طويل علامة للأمراء في جزيرة ليديا.

وامتازت عصا العصر الكلدي بالطول والغلظة وتكاد تتساوى مع قامة حاملها، فهي ذات وظيفة رعوية ودفاعية عن النفس. وعرفت المرحلة الآشورية العصا الرمحية، ويـــبدو بأنهـــا أحد أسلحة المحارب. أما في وقت السلم والاستراحة فإنه يحمل عصا برونزية ذات نهاية رمحية مدببة وظهرت أيضاً العصا العكاز، ذات الرأس المدور بنصف استدارة.



شكل (١٤): أمير ليدي متباهياً بعصاه

وهـــي علامـــة عـــلى الألوهـــة في مصر القديمة ولها وظائف متنوعة دينية / واجتماعـــية / وطقوســـية. وبـــتطور النظم السياسية صارت لها خصائص سياسية وعســـكرية. لـــذا فإن الآلهة المصرية ظهرت في الرسوم والنقوش حاملة العصا، وهي رفـــيعة تماماً وطويلة وعصا الإله "رع" مختلفة عن عصا الملوك والآلهة الأخرى و عصا "رع" طويلة كما قلنا وتنتهي بأسفلها بنحت مماثل للرقم ثمانية وينتهي رأسها بمدوّرة صغيرة.

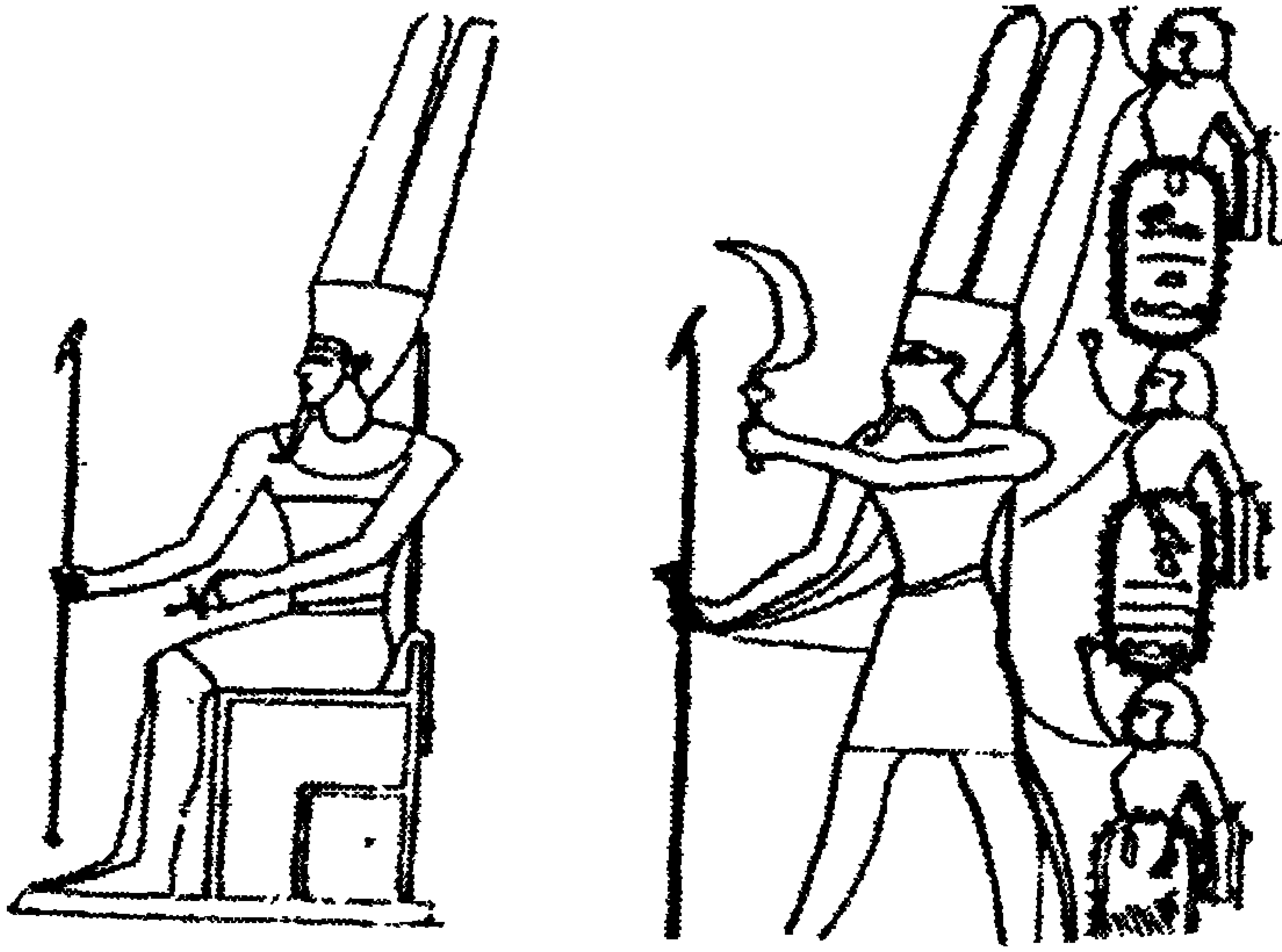
أما عصا الإلهة سخمت فهي قصيرة ومستقرة بنهايتها فوق الأرض وليس فيها التشكيل الخاص بالرقم ثمانية لكن بدايتها ذات رأس مدوّر.



شكل (١٥): الإله أنوبيس

وكانت المرأة المصرية في عهد الدولة الحديثة تحمل العصا بيدها مثل الإلاهات، ويـــبدو بأنها ذات وظيفة جمالية وتعويذية، وربما كانت من خاصيات المرأة في العائلة الملكية أو صفة لها وقد ظهرت كذلك من خلال النقوش والجدارية.

وظهر الإله موت الكنعاني حاملاً عصاه في أكثر من عمل فني.



شكل (١٦): الإله (آمنون) على اليمين، الإله (آمون — رع) على الشمال وفي كلا الحالتين يحمل عصا الملوكية المقدسة

أما العصا الإغريقية، فهي وسطية الطول، ذات نهاية نحيفة ومدببة وتنتهي برأس مدوّر وهي أكثر شبهاً بعصا الألوهة المصرية وأيضاً كانت لها وظيفة عسكرية باعتبارها سلاحاً قصيراً.

ووجد تمثال لسيدة ترتدي الزي الدوريسكي وتستند على عصا طويلة فوق الأرض، وتلف رأسها بيدها اليسرى وتلقي الرأس عليها.ويبدو أن بمكذا نوع من العصي له وظائف جمالية وإغرائية. وصارت للعصا في لحضارات الشرقية خاصية إيقاعية. ففي الأسطورة السومرية "إنانا" جلجامش وشجرة الخالوب" صنع الملك المعروف جلجامش من شجرة الخالوب كرسياً للآلهة أنانا / عشتار ومضرباً للطبل. ومن العصا — أيضاً — كان المزمار الذي عزفت عليه الآلهة المصرية "بس".

وفي الأسطورة السومرية المعروفة "نزول إنكيدو إلى العالم السفلي" وراء "البكو والمكو" نقرأ وصايا الملك جلجامش إلى صديقه إنكيدو(*):

أريد أن أقدم نصيحة، فأتبع نصيحتي

لا تلبس ثياباً نظيفة

"وإلا" فأهم سيصرخون بوجهك لأنك غريب

لا تتطيب بالزيت الفاخر من صندوق الطلاء

و"إلا" سيجتمعون حولك

لا تقذف رمحاً (؟) في العالم الأسفل

"وإلا" فإن الذين ضربوا بالرمح سيحيطون بك.

لا تأخذ عصا في يديك

و"إلا" فإن الأرواح سترتجف أمامك.

إن وصايا جلجامش لصديقه إنكيدو، هي مبّلغات ثابتة يتزود بها كل من نزل إلى العـــالم الأســـفل، ويـــبدو بأن للعالم الأسفل نظامه الخاص وطقوسه التي لا يمكن المساس بها، أو التجاوز عليها. وإن حصل هذا، فإن من قام بالتجاوز ستحّل عليه لعنة الآلهة المسؤولة هناك.

وورد في ملحمة البعل وعناة نص قصير(**):

(*) د. نائل حنون، عقائد ما بعد الموت. في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد،ط٢، ٩٨٦، ص٣٤٠.

(**) أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص١١٣.

أنت ثرت، بسبب كبريائك.. فأجاب

الظافر البعل....

عن كرسي سلطانك .....

لتنـــزلنّ على رأسك مطرقة السماء "القارعة"

وعلى هامتك "الطاردة"

والقارعة + الطاردة، سلاحان صنعهما كاشر وخاسس للبعل ليقهر بهما عدوه "يم" أما الأول فاسمه في لغة أوغريت "أيمر" وليس له عندنا تعليل لغوي. وأما الثاني فهو "يجـــرش" والجـــذر ســـامي مشترك: جرش بمعنى طحن. غير أن أكثر علماء أوغريت تـــرجموه "بالطاردة" وكنا نؤثر أن نسميه "الجاروشة" ويرمز إلى هذين السلاحين بيد البعل بالصاعقة والصولجان. كما في الشكل (١٧).



شكل (١٧): الإله بعل وهو يحمل الصاعقة بيده اليمنى والرمح بيده اليسرى

شكل (١٨): بلاد كنعان قبل ظهور قوم موسى

ولقــد قاتلــت عناة في أساطير أوغاريت – بالعصا والقوس فترة طويلة حتى وصلت إلى قصرها. وقد خاضت بدماء القتلى. وقد أخذ الإله يهوه كثيراً من صفات عناة التي كانت تتبرج وتكثر من العطور قبل دخولها المعركة.

في دم الجنود، وثيابها (أو أقراطها) تلطخت بنجيع(*) الجنود. بالعصي تطارد

الشيب (الشياب؟ السبي) قوسها مشدود على ظهرها

ها أن عناة تصل إلى بيتها

نزلت الآلهة في هيكلها

و لم تشبع بعد من القتل في الوادي

....

....

حاربت عناة كثيراً، ونظرت إلى الخراب

ففرحت عناة

وابتهج (انتفخ) كبدها، وبالضحك امتلأ

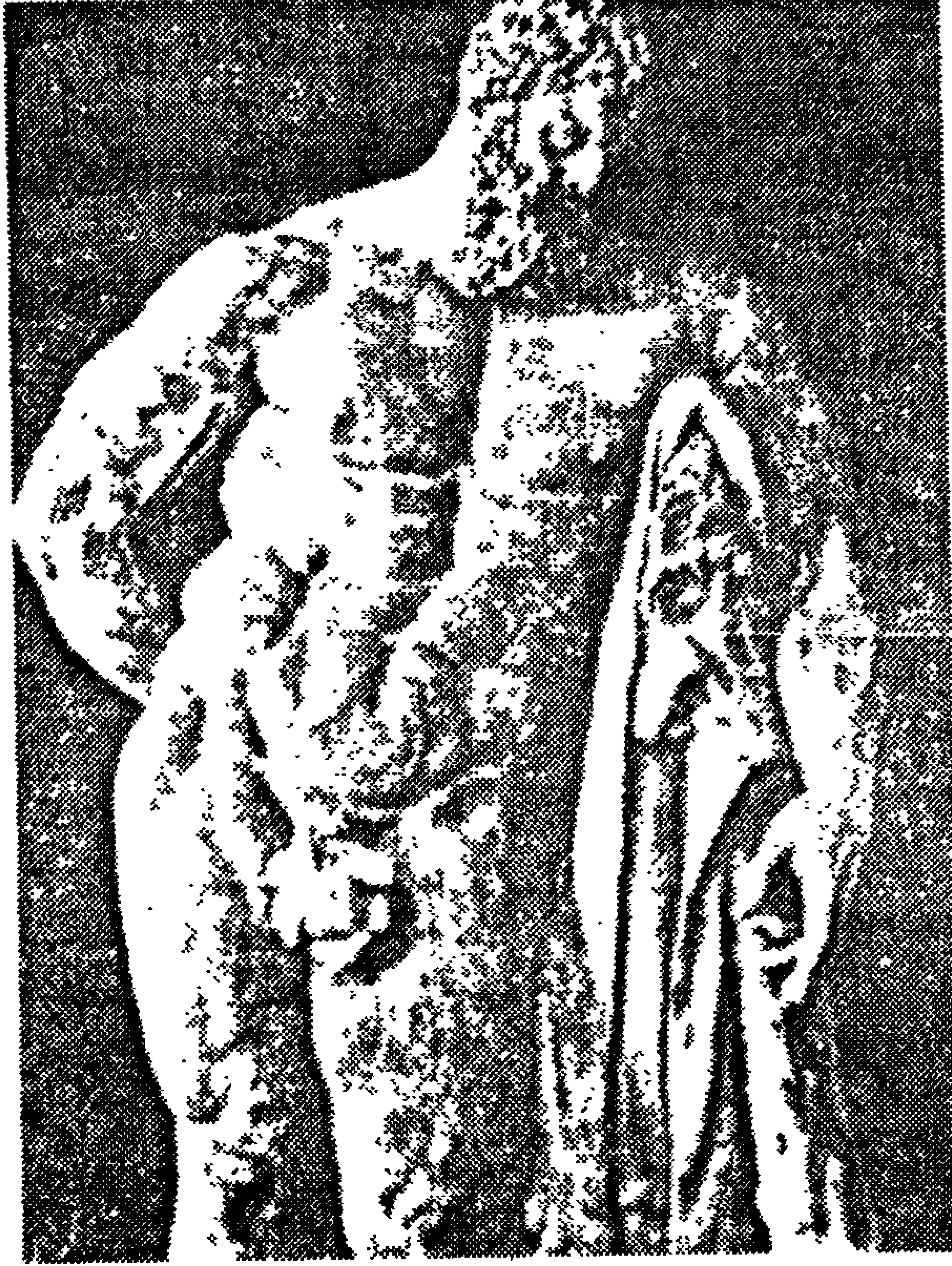
قلبها وبالفرح (امتلأ) قلب عناة



شكل (١٩): الآلهة عناة ومعها رمحها. وتقف على أسدها

(*) أنيس فريحة، أساطير وملاحم من أوغاريت، سبق ذكره، ص١٩٢.

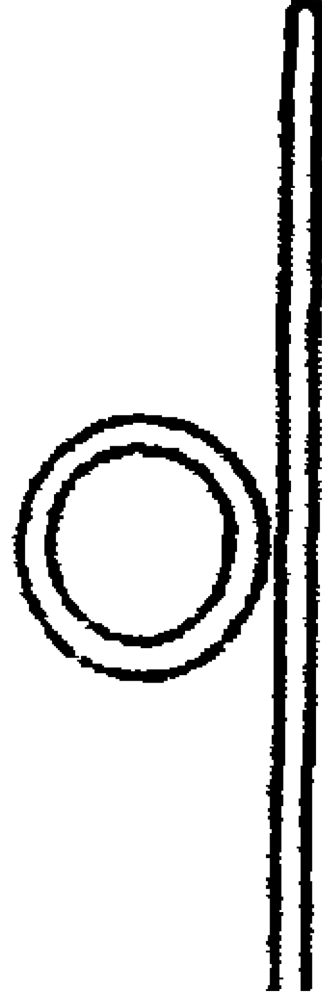
عــرف الفكر العراقي القديم العصا باعتبارها علامة ولها وظيفة خاصة، ولعل أشــهر الأعمال النحتية والأسطوانية تؤكد ذلك. وتظهر أهميتها في ما يعنيه وجدوها المتمركز في مسلة حمورابي وخصوصاً في القسم العلوي منها، حيث يظهر الإله شمش، وهو يسلم الملك حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) نصوص قوانينه وفي يد الإله شمش الحلقة المقدسة وعصا القياس.



شكل (٢٠): هرقل يتكئ على عصاه

وكانــت الشيطانة الليلية "ليليت" تداهم الرجال في منامهم وتمارس معهم فعل المتعة. وهي تتمثل بامرأة ذات جناحين وساقي طائر. وتقف فوق لبؤتين وإلى جانبها بومتان وفي يدها اليمنى الحلقة المقدسة وعصا القياس شعاراً تنكرياً لها عند دخولها إلى مجلس عدل الملك سليمان.

وكشفت الأختام الأسطوانية من عصر نهاية سلالة أور الثالثة عن الإلهة عشتار حاملة بيدها العصا أيضاً ويكشف الرسم الجداري لتنصيب "زمر يليم" في قصر ماري عن آلهة تحمل في اليمنى عصا الملك. وبمراجعة بسيطة للمصادر التي درست تاريخ الفن في العــراق القــديم(*) سيتضــح بأن العصا ساهمت بصياغة مفردات حاضرة في البنية الذهنية آنذاك وخصوصاً بما له صلة بالسياسة والدين والمعارك وسيادة القانون أيضاً.



شكل (٢١): رمز السلطة ويظهر مرافقاً للإله آنو والإله إنليل ومع الملوك وهو مكون من عصا وبجانبها حلقة دائرية ، رسم: علي محمد آل تاجر

(*) أنطون مورتكات، الفن في العراق القديم، ت: د. عيسى سلمان وسليم طه،وزارة الثقافة، ١٩٧٥.

أندريه بارو، بلاد آشور، ت: عيسى سليمان وسليم طه، وزارة الثقافة، ٩٨٤.

أندريه بارو، سومر فنونها وحضارتها، ت: د. عيى سلمان وسليمان طه، وزارة الثقافة ١٩٩٧.

٤. العصا، قراءة تأويلية

لاحظنا من خلال التوصيف السابق الذي قدم تأصيلاً للعصا في الحضارات الشرقية القديمة وصلة ذلك بالديانات والثقافة / السلوك التي صاغت منها مهيمنة حملت ملامح الشعوب وميزت بين شعب وآخر من خلال طريقة أو طرق استعماله للعصا. وصارت – العصا – مرآة، تعرف بالعرق المعني وتشير إليه. وظلت لفترات طويلة جداً دالاً يؤكد عبر نوع الممارسة والمساهمة على مدلول متسع، يقترن بشعب من الشعوب ويشير غليه.

إن العصا علامة، لم تكن منعزلة عن محيطها أو مؤسساقما الاجتماعية / الدينية / السياسية، وتجسدت بشكل مختلف ومغاير وظلت محكومة بانقياد كلي للنظام الديني، والمنظومة السحرية السائدة والشعائرية الاتصالية. والعصا نظام علاماتي في المحيط الجغرافي الواسع للحضارة الشرقية، وحققت فعلاً اتصالياً / تبادلياً تمتع بحاكمية حقيقية وتميزت بسلطتها المادية والرمزية في آن لأنها متشكلة – كنظام – من مجموعة وحدات إشارية وليست لسانية، إشارية منتجة استجابة لضروريات دينية / اجتماعية / سياسية. وهي بذلك، ظلت محكومة بإشاريتها المتعددة والمتنوعة والمختلفة لكنها واحدة لسانياً.

والحـــيوية التداولية للعصا في الاستعمالات اليومية العديدة تبلورت من خلال التواتر الاتصالي. أي أنها نتاج ذخيرة ثقافية وذاكرة جمعية سابقة، ومدعومة بذاكرات الحاضر والمستقبل، حيث التعامل معها بشيء من القداسة. وأجد بأنها أكثر علاقة مع الحقـــيقة اليومية للاتصال من خلال الإشارات التي اختارها الإنسان وعندما "يفسّر إنســـان مـــا دليلاً فإن إنسانيته – بعبارة أخرى تجاربه السابقة ومعتقداته وتصوراته المســـبقة – ســـيكون لها أثر شامل في عملية التفسير "لأن تفسير الدلائل" شأنه شأن تفســـير الإشارات هو عملية حضارية، وبذلك فإنه يرتبط بموصوفة اجتماعية تجمع الإمكانيات وتوحدها إزاء التحديات وبغض النظر عن كونها إشارات أم دلائل، فإن معنى المؤشرات ستظل ذا علاقة بميدان الحضارة".



شكل (٢٢): حورس على هيئة ملك

٥. العصا رمزاً ذكورياً

كانت العصا في البدء إشارة مستلة من الطبيعة والتداول اليومي – كما قلنا – لكــنه تــداول محيطي / اجتماعي / سحري / ديني، له مجموعة من العناصر المساهمة بتأسيســها كنظام ديني. وهذه الإشارة، ساهمت بإنتاج معنى متباين ومتعدد. لكنها – العصــا – كــنظام ظلــت مرتبطة أساساً بالألوهة وبالذات مع الألوهة المذكرة، و لم تكشــف لــنا الحفريات في العراق عن اقتران العصا مع الألوهة المؤنثة. وربما لأنها – العصــا – تــتماهى مع الذكورة، لأنها قضيبية الشكل وتتناوب وإياها في الاستعارة والمجــاز. لذا كانت العصا إشارة للنظام الذكوري المهيمن بخطابه المتعدد على الأنوثة المغيــبة تماماً. وذلك بسبب ممارسة التعسف ضدها في الخطاب التوراتي تأثراً بخطابات الشــرق كــلها. لأنها مارست فعل التحييد وإياها على الرغم، من أنها أشارت لها في الدلالة الرجولية الكامنة فيها من خلال العصا المقترنة بيهوذا والتي منحها لثامار. (تك ٣٨: ١٨) دلــيلاً عــلى ذكورته مثلما إثبات لسلطته البطرياركية ذات الهيمنة واتخاذ القــرار. قرار الإعلان عن الإبادة لها، لأنها مارست فعل الزنى. هذا الفعل الذي فهمته الــرجولة من خلال عصاها – الذكورة – تدنيساً لمساحتها الأنثوية وجغرافية جسدها

في الاتصـــال الإدخال،ي لكن العصا كإشارة كشفت تداخل الأنظمة مع بعضها وهو تداخل لنظام الرجولة مع نظام السلطة الروحية / الدينية / الاجتماسياسية.

وحصل الانحراف عن التطبيق وظلت الأنوثة قائمة بكينونتها الروحية والثقافية، ومعلنة عن بقائها(*) عبر استعدادها لفعل الخصوبة التي تجسدت بولادة التوأمين ودخول العصا رمزاً في العلاقة مع ثمارا ووجود البطريك يهوذا في هذا الدخول الذي تمركز في الذاكرة اليهودية، باعتباره محرماً ومناقضاً للوصايا العشر، كما أنه يمثل ممارسة للمحارم الواضـــحة واتصالاً خرق التابو ودنس المقدس الاجتماعي والأخلاقي. وكان لدخول يهـــوذا مداراً في الخصب اليهودي مثاراً لتأويل في قراءة جديدة "للوصايا العشر" لقد خســـر يهـــوذا أولاده الـــثلاثة بسبب زواجهم بثمارا، المرأة المنحوسة / المنكودة التي تضـــاعف نحســـها أكثر فأكثر بتتالي وبتكرر زواجها من حميها الآخر، والمثير أنهم — الأزواج — لم يســـتطيعوا تفعـــيل حـــياتهم معها من خلال تخصيبها. فكل زوج من الأخـــوة، كان معطلاً وحاملاً عطبه معه، لذا لم يتمكن أحدهم من إيداع بذرته فيها، ويخصـــبها بنسلية توقظ امتداداً للبطريق يهوذا الحالم بامتداد نسلي يؤشر حيوية القبيلة ورأسها القيادي، ممثلاً لها بالأبناء. ولكن باء كل شيء بالفشل وانطفأ الأبناء بالموت. وظلـــت أحلام الخصب تلاحق يهوذا، لأن العقم عطب وعطل للبطريق / القبيلة التي هـــي للـــبدوي وطن(**). لم يكن البدوي مربوطاً في الأرض. فالأرض واسعة وليست ملكاً لأحد. كما أن الأرض متغيرة فهي اليوم مخصبة وقد تجدب وإن أجدبت غادرها البدوي إلى أرض أخرى ذات خصب ونماء. وبذا فإن الأرض للجميع وبما أنها للجميع

(*) العصا، قراءة تأويلية، فصل من مخطوط درس قصة يوسف التوراتي.

(**) عـــبدالله الغذامي، المرأة واللغة، (٢) ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨، ص١٧٤.

فهـي ليسـت لأحد، وهذا لا يصلح أن يكون أساساً للانتماء. ولذا فإن البدوي لا ينتسب إلى المكان.

وربمـا أراد يهوذا اختبار قدرته وحضور فحولته. وهل ظلت طاقته قادرة على إنجـاز فعل التخصيب أم تعطلت؟ وأصابه الاندثار البايولوجي مثل الأبناء. ربما أيضاً يكـون نجاح يهوذا في إنتاج الخصب قد قللّ من صدمة اختراق التابو وتلويث المقدس الاجتماعي / الأخلاقي.

ومن المحتمل أن يكون البطريق يهوذا قد عرف بثمارا وإن لم يشر لذلك النص الـتوراتي وبوجـود هذا الافتراض يكون يهوذا ساعياً للإبقاء على الحوار الثنائي بين مؤسسـتين اجتماعيتين أحدهما مؤسسة ثمارا وعائلتها والثانية مؤسسة يهوذا، كما أنه أراد الإبقـاء على ملكية ثمارا لقبيلته. وأن تظل ممنوحة له. فهي أرضه وله حق حرثها مثـلما كان معمولاً به في السابق، حيث الراسب الكامن في ذاكرة الجماعة ولذا أراد تجريـب وممارسـة هـذا الدور التاريخي الأول الذي كانت فيه المرأة / أرضاً مشاعة وجاهـزة لمن يريد تخصيبها بعد توفر الماء لها، ولم يفكر البطريق يهوذا مغادرة الأرض الممنوحة له / ولعائلته بعدما عرف بأنها مجدبة، بل أراد له دوراً في ثنائية العلاقة وحقق مجـداً بطرياركـياً وفـاز بفعل الاتصال بعد أن أوهمته ثمارا بصفتها المنحرفة أخلاقياً. وتـأكد بأن فعل يهوذا جسد فاعلية الأب / البطريق الذي لم يستطع الأبناء على قتله وتهميش دوره الحياتي وتعطيله أيضاً.

وعـلى الرغم من اتضاح الفعل اللاأخلاقي ليهوذا وانتشار الفضيحة، لم يكن وقـتها خاضعاً للردع والعقاب التوراتي، الذي شرعه موسى بسبب بسيط جداً، هو السلطة الرمزية التي كان يهوذا قد حاز عليها من خلال كونه بطريكاً. وقد عطل فعل العقوبـة والـردع. ولم يخضع له تماماً واكتفى الشرع التوراتي بمبدأ مراقبته من خلال العصـا والخـاتم، لكنه ظل بعيداً عن المعاقبة، لأن الذهنية البطرياركية هي التي تصوغ

الـــردع / القانون المادي والرمزي وهي التي تعطله لحظة تشاء. لأن البطريق بديل عن المؤسســة السياســية وهو تعويض عن المنظومة الكلية الحاكمة سياسياً ودينياً وعندما يــتحقق هذا فإن القبيلة تكون بديلاً(*) عن الأرض والوطن والانتساب إليها – بالنسبة لثمارا – توطين للذات، ولولا هذا الانتساب لضاعت ثمارا.

ووجود العصا الخاصة بيهوذا عند ثمارا دليل رمزي مبكر، وإشارة مسبقة على امتلاك ثمارا ليهوذا عبر علامته الدالة عليه والمشيرة على فعل الاتصال بها، الإشارة التي تعــرفها ثمارا لوحدها. ويمثل بقاء العصا لديها حيازة لذكورة العم، الذي دخل المشهد ممــثلاً للأبــناء المنطفئين بالعقم والموت وكأنهم ملاحقون باللعنة. فالعصا أداة ذكورية ترمز إلى أسمى درجات الفحولة كما قال الغذّامي.

إن الاهــتمام بإنتاج هذه الحكاية التوراتية ينطوي على قيمة كامنة في الطبقات الداخلــية والقــيمة – هذه – هي التي تعني كتبة النص، الذين يدركون جيداً الفعل اللاأخلاقــي الذي مارسه يهوذا وغيره من الرجال، بما فهم داود، والقيمة الكامنة في الطبقات السرية هي منظومة الخصب التي لم يعرفها بنو إسرائيل في الصحراء وليدفعوا عــنهم تهمة الجهل،صاغوا هذه الحكاية مثلما أنتجوا عدداًمن الأساطير أثناء خروجهم وكانـــت أسطورة العصا المبرعمة واحدة منها. وهذه واحدة من حكايات الصحراء(**) التي ليس فيها بطل إلا العشق. وفيها تمارس الصحراء خيالها وإبداعها استخدام الجسد بوصـــفه أداة لغوية وإشارة دالة. وتنمو عبر هذه الأداة ذاكرة تظل حية حينما يرضى الجســـد بأن يتحول إلى نص درامي تكتب عليه لغة الحب والموت والجسد الصحراوي بوصـــفه خطابـــاً حراً تتفتح عليه قيم التعبير والمجاز وتصويرات المخيلة الراغبة في تمثيل وجودها اللغوي بواسطة الحكاية التي يتجمهر من أجلها ويحضر الشهود لكي يروها.

(*) عبدالله الغذامي، المرأة واللغة (٢)، ص١٧٤.

(**) عبدالله الغذامي، المراة و اللغة، ٢، ص١٦٨– ١٦٩.

إن الذي قامت به ثمارا قصدياً وبوعي تام. وهي امرأة ناضجة ومدركة لدورها ووظيفـــتها الحياتـــية / الاجتماعية – ما هو إلا تعبير عن بقاء فاعلية الأنثى في الحياة وبالإمكـــان الإعـــلان عن رفض لما مشرع أو مقترح لاضطهادها، لذا نهضت بمهمة الاعتراض الجريء والشجاع والذي كسر السائد الذي فرضته المؤسسة الدينية فرضاً، متجاهلة جذور ذلك في الوعي والتاريخ والحضارة. لذا أجد بأن فعل التنكر والانتظار عـــند قارعـــة الطريق تحد قوي للخطاب الذي صاغه ومركزّه الرجل في الحياة، لأن الذكورة سلطة تتمتع بخطاب قوي / دموي ومن خلاله سعت لبناء نفسها(*) وتحصين قوتهـــا وتصـــدّت للدفاع عن إمبراطوريتها.. كذلك فهي سيادة قيمية معنوية، والقيم الســـائدة ثقافياً لابد لها من شيئين أحدهما هو حدوث معارضة داخلية تناوئ السائد وتخاتل لحظات ضعفه أو غفلته لكي تعبر عن نفسها وتفصح عن معارضتها.

أشـــرنا إلى العصا باعتبارها ملمحاً للشخصية وبها تُعرف مثلما للخاتم من قدرة للدلالة على صاحبه. وكان اشتراط ثمارا على يهوذا بأن يقدم ارهاناً مقابل الاتصال بها وتحمس هو لذلك وأعطاها العصا والخات.م ويبدو بأنه تعامل معهما باعتبارهما شيئين فائضـــين لا قـــيمة لهما، وبالإمكان الاستعاضة عنهما أو استبدالهما. أما ثمارا فكانت مختلفة عنه، وتعاملت معهما – العصا والخاتم – مكملين لشخصية البطريق في التعامل الخارجي معهما واحتفظا بمدلولات كامنة عبر تداخل الرواسب المرتبطة بهما وتطورهما لاحقاً عبر الحقب والعصور.

إن حـــيازة ثمـــارا عـــلى العصا والخاتم دلالة على بقاء المتداول الاجتماعي / الأخلاقي قابلاً للاستيقاظ والنهوض في الذاكرة، و استعادة أصوله الأولى التي جرفتها

(*) عبدالله الغذّامي، المرأة واللغة. ٢..، ص١٣٩.

المـــراحل المتأخرة بقسوة الخطاب البطرياركي، الذي ألغى الثنائية التحاورية مع سلطة الأنوثة المساهمة بإنتاج خطاب مباشر له صلة حاضرة في الحياة / الدين / السياسية.

لقد فقد يهوذا عناصره الدالة على بطرياركيته مقابل استعماله لجسد تمارا الذي منحه لذة مؤقتة، إلا أنها منتجة، طاردة لعطل جسدها الأنثوي – الذي أكد بما لا يقبل الشـــك بـــأن التعطل سببه ذكوري وليس أنثوي. والدليل تمكن يهوذا على الرغم من تقدمـــه في العمر من تخصيبها وتحريك سكون الجسد الأنثوي المنتظر لرجولة حقيقية / فاعلة.

وتـــثير حكايـــة تمارا إشكالية سؤال يتعلق بزمن انتظارها عند قارعة الطريقة مرتدية ملابس البغاء. وخلال هذه الفترة الطويلة لم يتعرض لها أحد من المارة؟ النص لا يشـــير لذلك، ويبدو بأن يهوذا أول المتحارشين بها، واستجابت له بدون إغواء. إنه الـــبطريق الباحـــث عن ثنائيته / الأنثوية، المختزنة صورته الحسية في الذاكرة والتي لم يســـتطع الـــزمن تعطيـــلها، تحركت مجدداً مع تمارا المهووسة بطاقة المختزن الذهني، وحـــازت على يهوذا من خلال العلامة الدالة عليه والتي لا يقوى على نكرانها. بحيث أسســـت ميثاقاً قرانياً مع البطريق خوفاً من النكران لاحقاً. وحماية للذات الأنثوية من التلويـــث والتدنيس، والسعي للحفاظ على العمق النقي الذي شوهه الخطاب الذكري وأعاد صياغته بما يتلاءم وبطرياركيته الطاغية / المتغطرسة..

وتضـــيء هـــذه الحكاية – أيضاً – تمارا محوراً لها وبصوغ بطرياركي "أي أن المـــرأة تضـــحي وتناضل من أجل الرجل، وهي حكاية مواجهة، حيث جرى تهشيم الفحولـــة وتكسير الجسد المذكر "عند الاندفاع نحو الجسد وبدون إغراء سابق. لتطرد الذكورة عن نفسها مذلة توقف الإشهار عن مدارها الفحولي بتعطل الاتصال الجنسي، ولتؤكد على خطابها الذي أنتجته بأنها فاعلة في زمن لا فاعلية فيه.

وهـــو زمـــن خريف العمر والشيخوخة. وامتلاك طاقة أبدية / سحرية تشغل الساكن وتثوره. ويلاحظ بأن مداراً صراعياً يكمن في الداخل النصّي، إنه مدار التنازع بين سلطتين فيهما اختلاف تاريخي.

أولهمـــا ســـلطة الألوهة المؤنثة التي استمرت عصوراً عديدة، وترسخت فيها خطابـــات أنـــثوية متـــنوعة، والثانية، سلطة البطرياركية الصاعدة على أنقاض ودماء الأنوثـــة، مـــلحمة الخلق البابلية وصعود مردوخ إلهاً قومياً وكذلك تعطل وظائفها – المـــرأة – في صـــدود الفحولـــة عـــن الإغواء الذي تثيره الأنثى، كما هو في ملحمة جلجامش) والابتعاد الواضح والصريح لجلجامش عن الآلهة أنانا / عشتار، بعد عودته وإنكـــيدو منتصرين من غابة الأرز، إعلان عن مرحلة حضارية جديدة تماماً، ومختلفة عـــن الـــتي كانت وبهذا تعطلت السلطة الأنثوية بالمفهوم الكلي، وتقود حكاية تمارا للمشابهات في الوظائف بين أنانا / عشتار وبين المرأة التوراتية ويبدو من خلال ملحمة جـــلجامش بأن ألوهية الأنثى ليست سوى(*) في قدرة الأنثى على العطاء، وامتزاجها بالطبيعة التي تعطي بدورها حيث يكون "جوفها" مليئاً بإمكانات المنح "بالأرواح" التي تتجـــلى في نـــباتات مختلف وكأن الموت الذي يمكن تلمسه في أولئك الذين يوارون الثرى، هو ذاته بعد حياتي، يغوص في الأرض.

ولهـــذا كان فعل تمارا ألوهياً / أنثوياً، لأنها سعت من أجل أنوثتها – وهذا ما ركزت عليه الدراسة - ولكن الواضح هو أن البطرياركية مارست عملية حرف لهذه المفاهيم الفكرية الإيجابية، وتدخلت من أجل صياغة عناصر الحكاية بإضافات أخرى، همشـــت المدار الإيجابي / الأنثوي وصاغته بما يجعل منها – الأنوثة – جغرافية للابتذال الجسدي والاشتهاء والعرض الرخيص. لأن معضلة النسق(**) الفحولي أنه نسق مغلق لا

(*) إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط٢، ١٩٩٨، ص١٠٠.

(**) عبدالله الغذّامي، أوهام الثقافة. ٢... ص١٥٧.

يبصـــر ما هو خارج الذات ولا يتنبه إلى المغاير والمختلف. ولذا فإنه يقدر الشيء بناء عـــلى فخامته. وكان واضحاً حصول تغيرات سردية في الحكاية التي غادرت وظيفتها الأساســـية / الأصلية وصارت حكاية إثارة المتعة واللذة الذكورية. وهذا ما يشير إلى التدخل الذكوري المباشر، حيث تفعل الثقافة(*).

"صعد يهوذا بعد أيام العزاء إلى حيث كان غنمه يجز في تمنة، هو وصاحبه حيره العدلامـــي. وقـــال لتامار: ها حموك صاعد إلى تمنة لجز غنمه. فخلعت ثياب ترملها، وتغطـــت بالـــبرقع واستترت وجلست في مدخل عينايم، على طريقة تمنة. فعلت ذلك لأنها رأت أن شيلة بن يهوذا كبر ولم تزوج به، فرآها يهوذا فحسبها زانية لأنها كانت تغطـــي وجهها. فمال إليها في الطريق وقال لها: تعالي ادخل عليك. وكان لا يعلم أنها كنته. فقالت: ماذا تعطيني حتى تدخل عليّ. قال: أرسل لك جدياً من الماشية. قالت: اعطـــني رهـــناً إلى أن ترسله. قال: وما الرهن الذي أعطيك؟ قالت خاتمك وعمامتك وعصاك التي في يدك. فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه. ثم قامت. فذهبت إلى بيتها وخلعت برقعها ولبست ثياب ترملها. "

سفر الخروج ٣٨: ١٢ — ٢٠

ومحاولتـــنا للدخول في مساحة تأويلية مفرطة، سنلجأ إلى تقشير النص التوراتي الذي اخترناه بدقة من مساحة النص الكاملة. وسنجد بأن ما قلناه سابقاً له تأكيدات في هذا النص، وأهم ما يعنينا هو البطرياركية التي حازت على مواصفات صاغتها هي عـــبر زمـــن طويل وأكدتها من خلال الممارسة، كي يتمركز الجسد بالطاقة اللبيدوية المختزنة فيه والتي لا تنضب وتنقص. ولم يستطع يهوذا الصبر والانتظار لأيام قليلة بعد وفـــاة زوجـــته حتى صعد إلى تمنة وهناك حصل الذي أشار له النص وأقام اتصاله مع

(*) عبدالله الغذّامي، أوهام الثقافة. ٢... ص١٤٧.

تمـــارا. وأجد بان الخطاب الأنثوي أكثر حذراً وسعياً لحصاد النجاح الضروري، ولهذا نزعـــت تمارا ثياب حزنها بسبب ترملها وتبرقعت مستترة. ولكن يهوذا لم ينتبه لها و لم يوحـــي له شـــكلها الخـــارجي حتى وإن كانت مبرقعة؟ وكأنه ظل مأخوذاً بالرغبة الجســـدية الفوارة و لم يلتفت لصوتها وإيقاعه عبر الحوار الطويل الدائر بينهما وحاولت الســـلطة الذكورية، عبر صياغة النص ترسيخ مهارة الأنثى في إنتاج المقالب والتهالك والـــبراعة في المكـــر والحيلة، مستعينة بجسدها المغطى لإشباع حاجة الذكورة وإطفاء الليبدو في جسدها. كما أن سلطة الألوهة المؤنثة في ثقافتها، قد حققت مستوى رفيعاً مـــن الفطـــنة والذكـــاء وتحطيم الذكورة وإذلالها واتهامها بالحيوانية التي لا تقيم وزناً للحوار التبادلي / النفسي والرغبوي بين الرجل / والمرأة، حيث تعامل مع تمارا بطريقة حيوانـــية، وظلـــت مغطـــاة ببرقعها و لم تكشف عن وجها ومارس معها فعل "إفراغ الرغـــبة" بصيغة حيوانية، وهنا سددت الأنوثة ضربتها القاتلة للذكورة، والسؤال الذي ظل بدون إجابة، أين أخذها يهوذا وأقام معها الاتصال الثنائي؟ هل حصل ذلك على قارعـــة الطريق أم في مكان آخر؟ ومع بقاء هذه الأسئلة غائمة الإجابة فإن المؤكد هو حدوث الاتصال وتمارا مبرقعة. ولماذا حافظ يهوذا على استمرار برقعها أثناء الاتصال؟ وزاول عمـــلاً حيوانياً أفقد يهوذا تلك الخاصية الإنسانية الشفيفة الموحدة بين كائنين عبر لغة الجسد واتضاح دواله ورموزه التي يصوغها الجنس الاتصالي. ويعلن عن رموز كامنة، لا تتبدى إلا عبر حصول تفاهم بالتراسل الإشاري للأعضاء أثناء تحقق الإيقاع الثنائي.

إن الأمـــر الرمـــزي(*) الذي يطبع الجسد بطابعه يعطي الشخص سبل الإخفاء القصوى لهذه الحقيقة المبهمة التي ارتبط بها. إن الجسد هو الحاضر، الغائب، إنه في آن

(*) دافيد لوبروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ت: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص١٢٣.

واحـــد، محور إدراج الإنسان في نسيج العالم، والمتركز الذي لابد منه لكل الممارسات الاجتماعية، أنه لا يوجد في وعي الشخص إلا في اللحظات التي يكف فيها عن القيام بوظائفه المعتادة، عندما يختفي روتين الحياة اليومية، أو عندما ينقطع "صمت الأعضاء".

لـــن يظل الجسد ثابتاً على حيويته وطاقته الأولى، وإنما هو محكوم بالتحول غير المحســـوس، وتـــأثير الزمن غير المرئي في العقود الأولى، إنه غرو الشيخوخة والتعطل المتســـلل كالحـــلم الخاطف، ولكن بتأثير مرعب، يوقف إبداع الجسد، لحظة تعطيل تفاصـــيله المعروفة والدقيقة: وتغيير الجسد بفاعلية الزمن وضغطه يحقق تغييراً في الحياة كـــلها، حـــتى لحظات الحوار بين الأنا والمحيط الاجتماعي تأخذ بعداً جديداً، ورؤيا المشـــاهد الحياتية والتلذذ بما هو محبب للنفس يكون شيئاً جديداً. والشيخوخة تعطل للطاقة وهي التي تجعل المُسِنّ مشطوباً عن محيط الجماعة الاجتماعي وملغياً عن الأدوار التي من الممكن القيام بها.

إن عمل(*) التقدم في السن هو المذكرٌ بموت يتقدم في سيره عبر صمت الخلايا، ومن دون أن تكون هناك إمكانية لإيقافه فالشخص المسن يتقدم نحو الموت ويجسد في نفســـه ا لأمـــرين اللذيـــن لا يســـميان العصر الحديث: التقدم في السنّ والموت. إن الشيخوخة والموت ليسا بالفعل من المحرمات كما يقال غالباً فالمحرَّم ما زال له معنى في النســـيج الاجتماعي وهو يحيل إلى حدود تُبنى حولها هوية مشتركة للمجموعة. إلا أن الشـــيخوخة والموت لا يقوما بهذا الدور. إنهما مكانان للشذوذ، ويقعان اليوم خارج الميدان الرمزي الذي يعطي معاني وقيماً للأعمال الاجتماعية: إنهما يجسدان عدم قابلية الجسد للاختزال.

(*) دافيد لوبروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ص١٤١.

ولهذا كان حماس يهوذا ومراهقته غير المتوقعة من قبل الناس – باستثناء ثمارا – من أجل الرد الرمزي على الشيخوخة الغازية، له والنازلة في جسده، ويحاول هو التحايل على زمنه وتقدمه في الحياة من خلال الاتصال مع ثمارا. وهذا لا يعني كل الحياة ووفرة الطاقة والعافية.

لأن وظائف الجسد تتعطل تدريجياً. فالمسنّ في الإدراك الاجتماعي، سيختزل دائماً في جسده، الذي سيدعه شيئاً فشيئاً لحد أن بيشا استطاع أن يكتب: انظروا الإنسان الذي ينطفئ، عند نهاية شيخوخة طويلة، إنه يموت بالتفصيل فكل وظائفه الخارجية تنتهي الواحدة بعد الأخرى وكل حواسه تنغلق بشكل متتال. إن الأسباب العادية للأحاسيس تمرُّ عليها من دون أن تؤثر بها. إن الشيخوخة تعبرّ عن اللحظة التي لم يعّد فيها كبت الجسد ممكناً، اللحظة التي يعرّض الجسد نفسه فيها لنظرة الآخر في نهار لم يقد مواتياً له.

وكان فعل اتصاله مع ثمارا محاولة منه للتحايل على زمنه الخارجي والنفسي، لأنه لا يريد الاعتراف بما سببه له لأن التقدم في السن سيرورة غير محسوسة، بطيئة للغاية وتفلت من الوعي لأن أي تباين لا يظهر فيها بوضوح، فالإنسان ينزلق بمرونة من يوم لآخر، من أسبوع لآخر من سنة لأخرى وأحداث حياته اليومية هي التي تفضح انسياب الأيام وليس وعي الزمن، ومع البطء الذي ينجو من الإدراك، يندمج الزمن بالوجه ويدخل الخلايا ويضعف العضلات ويصغِّر الطاقة ولكن بدون صدمة، بدون انقطاع قاس ولمدة طويلة في الحياة.. إن الصعب جداً تحمل الشيخوخة، تقول سيمون دوبوفوار لأنا كنا دائماً نعتبرها نوعاً غريباً: أنا أصبحت شخصاً غريباً في حين أنني ما زلت أنا نفسي.

ولأن يهوذا لم يواجه صدمة الزمن والوعي به وبتفاصيله المتبدية بشكل غير ملحوظ بقوة، اندفع بحماس ونزع هيبته الخارجية وأهان وجاهته "وما الرهن الذي

أعطيك؟ قالت: خاتمك وعمامتك وعصاك التي بيدك" الخروج ٣٨: ١٧. وهو يدري جـيداً؟ – لنه ساهم بإنتاج هذه الثقافة باعتباره بطريرقاً – بأن العصا والعمامة رمزان للفحولـة الكاملـة كما قال الأستاذ عبدالله الغذّامي. فهل يا ترى كان الدفع بالعصا تعبيراً عن هاجس نفسي، بتعطل أو اقتراب تعطل ذكوري، لهذا تخلص من رمز فحولته المتبدية عبر العصا.

كـان سـبب اندفاعـه للاتصال مع ثمارا استهلاكياً، حيوانياً، أفتقد عناصره الإنسـانية، واكتفى بالإدخال والإفراغ و لم يستطع – ربما لبطرياركيته – من تنشيط الاتصال الخارجي عبر المداعبة وإثارة الشوق. لأنه مأخوذ بسطوة بطرياركية / داخلية تفـرض عـلى الآخر أن يندفع باتجاهه. ويضيء النص – أيضاً – سبب حماس ثمارا للاتصـال، وهو سبب له صلة بالخصب كما قلنا، لأنها انتظرت حميها الثالث وعندما كـبر لم يـتقدم لها ولأنها راغبة بالخصب، حصل الذي نعرف بين الاثنين وانتهى كل شيء بعد لحظات. ليس في طبع(*) الثقافة الذكورية أن تتحمل أو تقبل "واقعية" الجسد المؤنـث ومن الضروري لهذه الثقافة أن يكون التأنيث قصياً ووهمياً لكي تظل الأنوثة "مجـازاً" ومـادة للخيال، في هذه الحالة – فقط – تكون الأنوثة جذابة ومطلوبة في الخيال الثقافي وتنتهي جاذبيتها بمجرد تحولها إلى واقع محسوس.

واختصاراً، كانت ثمارا منتصرة اعتماداً على ثقافتها لأنها أثارت عبر الحكاية – على الرغم من تدخل السلطة البطرياركية – إشكالات عدة ضد الرجولة وأهمها: لعنة الإلـه اليهودي الملاحقة ليهوذا – عبر أبنائه – وطردهم من الحياة أولاً وأنانية الخوف من نسلية الأخ – عيرا – حيث كان يقذف بماء رجولته خارج ثورة الأنوثة، حتى لا يخصبها ثانياً. السلوك الاجتماعي / الأخلاقي المشين ليهوذا البطريق. ثالثاً والأسوأ في

(*) عبدالله الغذّامي، ثقافة الوهم، ص٤٢.

التراسل الاجتماعي هو أونان الذي تعمد تعطيل الإنجاب وإيقاف الخصب، فلحقت به لعنة الإله يهوه، وأراد الكتبة بذلك الإعلان عن وظائف إلههم الإيجابية من أجل توازن في كلـــية وظائفه المعروفة، كان هذا لم يؤسس مداراً فكرياً متبلوراً ضمن عناصر الإله الـــيهودي. ويكشـــف موقـــف أونان ثانوية الخصب كبنية ومنظومة كاملة في الحياة الـــيهودية حيـــث كان موقفه السلبي عدائياً ومعطلاً. إن تعقم الرحم(*) تسقط صفة التأنيث لأن هذا الجسد لم يعد جسداً ولوداً. ويدخل الجسد في مرحلة اللاهوية.

إن إيقـــاف صفة ثمارا الأنثوية بفعلة أونان جناية كبيرة، جعلت من حياته مع أخـــيه شيلة غمامة غير واضحة مستقبلاً. ويؤكد الأستاذ عبدالله الغذّامي بأن صياغة الجسد المؤنث لا تكتمل وتمثيله الثقافي إلا من خلال إضافته إلى الذكورة، ولا يضاف عـــلى نفســـه ولا تضاف الذكورة إليه فالمرأة زوجة فلان، ولكن فلاناً هذا لا يتعرف بكونـــه زوج فلانـــة... والأنوثـــة جنس واحد ونوع واحد وشعور واحد وما تفعله واحدة من النساء يكون صفة لهذا الجنس خاصة الفعال الجسدية النمطية.

لقـــد ســـعت ثمارا من أجل وظيفتها المعروفة في الحياة / الأسطورة / والدين، وظـــيفة الأم الكبرى التي لا تعرف بديلاً لها. وظيفة تسعى من خلالها لتحقيق ديمومة الحياة والإمساك بها والإبقاء عليها وتحدي الانطفاء، وهي – ثمارا – بذلك تعني وعي طـــريق الخلـــود التي عرفها الإنسان، ابتداء بالملك جلجامش ومروراً بالتاريخ الكلي للإنســـان. الانـــبعاث هـــو الذي منحنا خلودنا وبه نتحدى الموت والاندثار نقاومه بوسائلنا العديد والمتنوعة ولعل أهم تلك الوسائل الإبقاء على النسلية وتفعيل دور الأم الكـــبرى الذي عرفته الأساطير والديانات الشرقية. وانطلاقاً من لا شعور الإنسان(**) يسعى إلى التأثير في نظام الموت نفسه إلى خلخلة ناموسه الطبيعي فالموت واقعة طبيعية

(*) عبدالله الغذامي، ثقافة الوهم، ص٥٨.

(**) إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط٢، ١٩٩٨، ص٥١.

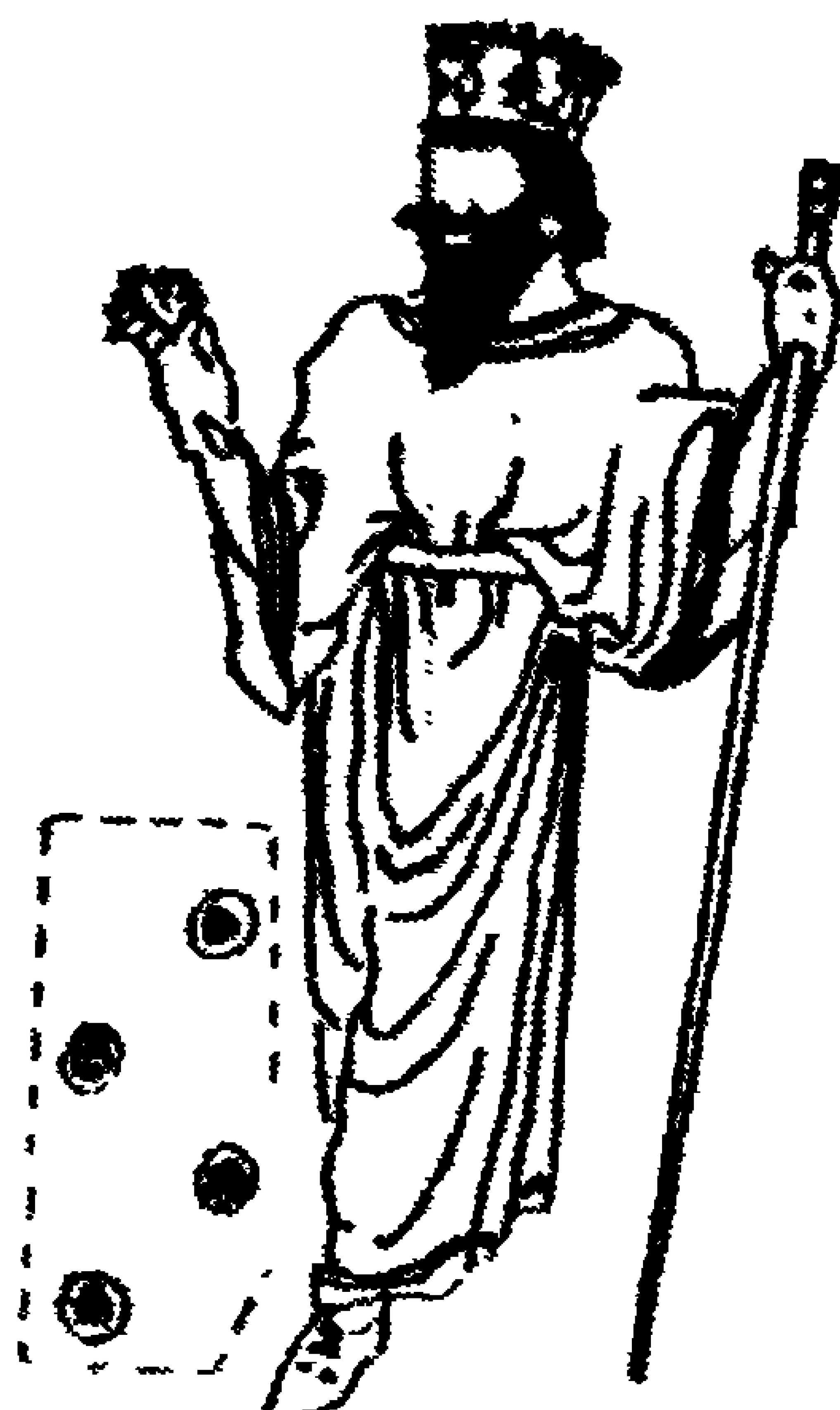
وحدث طبيعي يتكرر باستمرار، والإنسان مشمول به ويظهر التصرف معه مضاداً تلك الواقعة ونظامها الصارم، ولذلك الحدث وحقيقته المرة إنه تصرف ثقافي، وكأن الإنسان يحاول تأكيد ذاته حتى في وجه محدث الموت، إنه خلود هنا، ولو كان من خلال الموت، عندما يهتم بأمره، وهذا يبين لنا العناد البشري في التمييز عن بقية الكائنات الأخرى، في حالة الموت.. وفقاً لما تقدم، يغدو الكون مستوعباً، بل مملوكاً نفسه باللغة وبالرمز، الذي يكون لغة وغيرها، فالإنسان كائن يعيش بالرمز وفيه، ويتعامل به في علاقاته مع الآخرين، ومع البيئة وينتج رموزاً من رموز، ويوسع فيها ويغنيها معنًى، إنه خلود آخر ينبني هنا!

وعرف الإنسان ومنذ الأزل سبله الخاصة، للإمساك بالتاريخ الشخصي والجمعي، وأهم تلك الوسائل ديمومة فعل الخصب والبناء واللغة والحوار مع الآخر والحياة عبر رموزها الخلّاقة المثيرة التي تتركز مكرسة في الحياة دوماً وحتى الأبد، حيازة الحياة والخصب والخلاص، تحقق لثمارا بواسطة العلامة الأخيرة أكثر من الخاتم والعمامة تنشيطاً للتأويل وحتى التأويل المفرط، لتعدد مستوياتها وعملها النشط في تكوين أنساق خاصة وجديدة، ولأنها أكثر إحالة على الذكورة / الفحولة فإنها امتلكت حضوراً، إضافة إلى ما تنطوي عليه من مفهوم خاص للسلطة.

إن التعاقب يلعب دوراً، أكان زمانياً أم مكانيا، لأن التكرار جوهري بالنسبة إلى التعبير الرمزي. الذي يتطابق حدسياً مع موضوعة دون أن يختلط به أبداً.

فبالنسبة إلى الشيء المرموز يشكل الرمز كلا تكون عناصره غير العناصر الماثلة في الشيء، ولكن قوم بينها العلائق عينها. كما أن الرمز يحتاج، لكي يستقر ويستمر لأمد طويل بصفته هذه، إلى اقتران طبيعي بالشيء، يتعين عليه أن يتكرر بانتظام في الظروف عينها.

تشـــظت العصـــا عبر تاريخها المتناغم مع المراحل الحضارية، وحازت في مجالها التوراتي تتنوعاً مهماً وملفتاً لانتباه القراءة المعاصرة، وسيقود هذا التشظي إلى الاتساع الدلالي ومغايرة المنتوج والتنوع في الاشتغال الرمزي .



شكل (٢٣): ملك فارسي وعصاه

٦. عصا يهوذا رمزاً لفحولة الشيخوخة!

لقـــد ازداد تفعـــيل العصـــا كعلاقة رمزية في مراحل عديدة من مراحل تطور الحضـــارة الشـــرقية وحازت على خصائص جديدة بالتتالي والتراكم والتعاقب وآخر فعالـــية مهمـــة رافقت رحلة العصا الطويلة هي منظومة الخصب. وإمكان العصا على تفجيرهـــا وإمـــداد الحـــياة بماء الحياة من أجل البقاء والاستمرار ومكافحة الاندثار والمـــوّات. وكان ما حصل لتلك المنظومة في الخطاب التوراتي جديداً وغير مألوف في محـــيط الخطـــاب الأسطوري الخاص بحضارات الشرق الأدنى القديم. وصاغ الخطاب الـــتوراتي أســـطورة جديدة حاولت الارتكان على العوامل الموضوعية التي رافقت بني إســـرائيل في الصحراء ومزاوجة ما له علاقة بنظام الخصب المجاور لتصوغ نظاماً يبدو جديـــداً بالنسبة للمحيط المجاور، لكنه في حقيقته الداخلية يمد جذوره بعيداً في المحيط الديني للشرق المجاور، وأعني به مصر / كنعان / سوريا / العراق.

إن إنـــتاج أسطورة العصا الجديدة في سفر الخروج هي محاولة من البنية الذهنية التوراتية لإخضاع بني إسرائيل إخضاعاً قسرياً وجبرياً من خلال العصا وذلك عن:

* تفجـــر المـــاء من الصخرة بعد ضربها بالعصا وإنقاذ بني إسرائيل من العطش وإنقاذهم مع حيواناتهم من الموت.

وتكــريس القــدرة الســحرية التي عرفوها في العصا قبل خروجهم من مصر وبدرجــة عالية من الحضور والتمركز، الذي سيؤكد قدرة سحرية ورمزية في العصا، وهــذا ما سنتناوله في العصي الإثني عشرة، وعلاقة العصا المتميزة بالخصب، وهو ذات المدار المرافق للعصا التوراتية منذ لحظة الدخول الأولى إلى سيناء.

* ثنائــية العنف الرادعة المجاورة مع وظيفة الخصب العيانية - التي لم يكفي بها بني إسرائيل لأنها فجرت الماء قوياً وصاعداً. وبرزت العصا سلطة مادية ورمزية، تومئ لبني إسرائيل بالمعاقبة بعد دقة المراقبة وامتدت في عمق النصوص التوراتية.

* الاســتعانة بها هوية للشخص ومعرفة به وهذا ما حصل مع ثمارا كذلك هي رمز من الرموز الدالة على الفحولة.

ولعــل أهم الوظائف المناطة بهذه العلاقة الرمزية هي الخصب باعتباره نظاماً لم يعــرفه بني إسرائيل من قبل بسبب رعويتهم وبدويتهم واستمرار ارتحالهم، ومن خلال ذلك، اعتقد بني إسرائيل بأنهم تساووا مع جيرانهم في تأسيس وترسيخ نظام للخصب، بحيث تخلصوا من عقدة الإخصاء الملاحقة لهم عبر التاريخ الطويل.

"وارتحل جميع بني إسرائيل من برّية سين على مراحل كما أمر الرب، ونزلوا في رفــيديم، حيث لا ماء يشربونه فخاصموا موسى وقالوا: أعطونا ماء نشربه. فقال لهم موسى "لماذا تخاصمونني؟ ولماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك إلى الماء وألقوا اللوم على موسى وقالوا:

لماذا أصعدتنا من مصر لتميتينا نحن وبنونا ومواشينا بالعطش؟ فصرخ موسى لا إلى الــرب: مــاذا أفعل بهؤلاء الشعب؟ بعد قليل يرجمونني. فقال له الرب "أعبر أمام الشعب ومعك بعض شيوخ إسرائيل وخذ بيدك عصاك التي ضربت بها النهر واذهب، فــتجدني واقفاً أمامك هناك على الصخرة في حوريب. فتضرب الصخرة فيخرج منها

مـــاء يشرب منه الشعب. ففعل موسى كذلك، أما عيون شيوخ إسرائيل وسميّ موسى ذلك المكان مسّة ومريبة، لن بني إسرائيل عطشوا وارتابوا بالرب فقال: أمعنا الرب أم لا؟

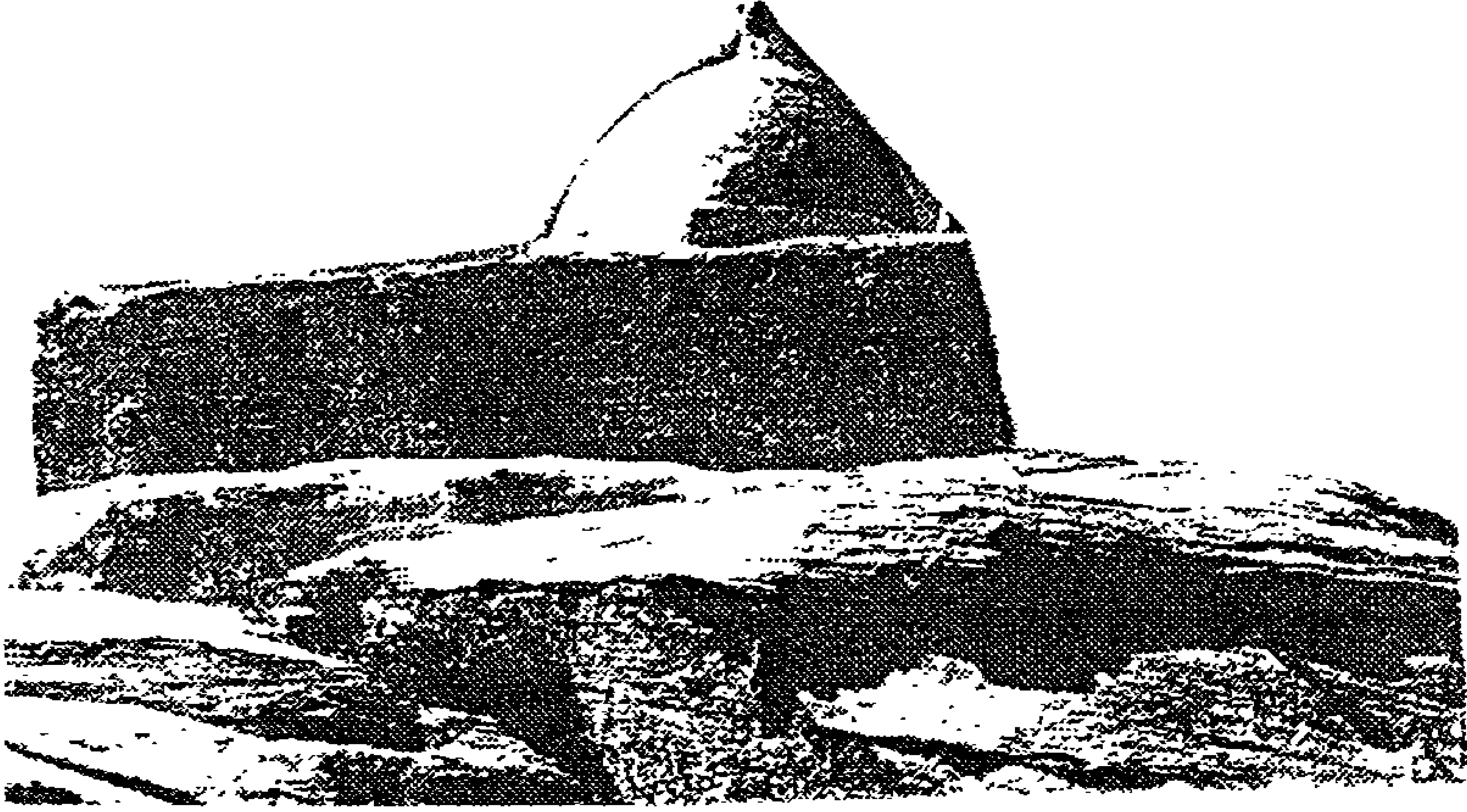
سفر الخروج ١٧: ١-٧

هنا تتكرس سحرية العصا امتداداً لسحرية مصرية معروفة. خرج بها موسى من القصـــور الفرعونـــية وصـــارت سلاحاً له أمام الحشود الجائعة والعطشى في سيناء. وســـجلت هـــذه العصا فاعلية البنية الذهنية الموسوية / السحرية وأشرت لحظة نشوء الخطـــاب الخصوبي التوراتي. ولولا هذه الضربة التي دُفق بها الماء لواجه موسى واحدة مـــن أخطر الثورات الاحتجاجية في تاريخ مغادرتهم لمصر وخروجهم من سيناء. ولأن يهـــوذا عـــاش تفاصيل سحرية العصا في مصر وسيناء ولأنه هكذا، حاز منذ اللحظة الأولى "التي أسست فيها العصا الموسوية سحرية الإنقاذ داخل مصر" على طاقة العصا الـــتي تتفاعل أكثر بيده، وتضفي على جسده مجموعة من العلائق الجديدة وأعتقد بأنها — العصا — ظلت ممتلكة لصفاتها الموسوية / السحرية وقد امتدت منتقلة من القائد إلى الـــبطريق، الذي هو قائد أيضاً لقبيلته الغفيرة. وأجد بأن العنصر السحري الكامن في العصـــا، ظلـــت ممكـــناً تشغيله لحظة الحاجة إليه، أو الاستعانة به، عندما يجد مالكها ضرورة ملحة للاستعانة بسحريتها، وهذا ما حصل مع يهوذا.

فهـــل سعي ثمارا للاحتفاظ بالعصا / الخاتم / العمامة وسيلة لحماية نفسها من العـــنف الاجـــتماعي، الذي كان ممكناً أن ينوشها بسبب الزنا، لو لم يكن يهوذا هو المـــارس للزنا بالمحارم. يخضع العقاب / الردع للتباين الاجتماعية / الدينية / الطبقية وهـــذا مـــا اتضـــح جلياً مع يهوذا.. حيث لا تقوى المراقبة الدينية / الاجتماعية من الاستجابة للخرق الأخلاقي، لأن المخترق لحشمتها هو يهوذا.

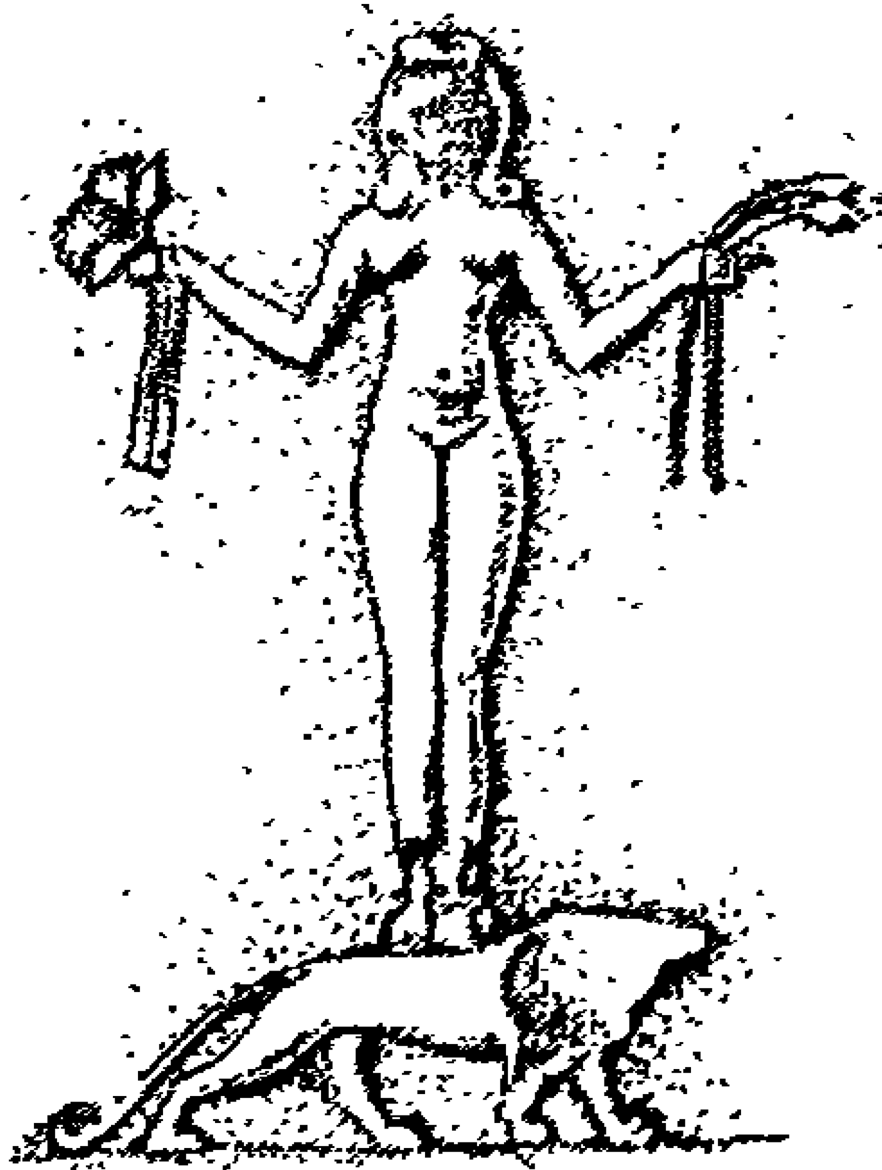
واحتفاظها بعصا يهوذا يمثل في كشوف طبقة النص الداخلية، حفظاً لعصا يهوه / الـــتي هي قضيبه وطاقته وكان للسحرية المتوفرة في العصا دور حاضر في التخصيب. لأن الإله مخصب الحياة وامتداده يهوذا امتلك هذه الخاصية وجسدها بوظيفة الاتصال، الـــناجح مـــع تمارا التي أنجبت توأمين. وهنا تتبلور سحرية جديدة، هي سحرية قادرة على توسيع الخصب وتعميقه وجعله خارجاً عن المألوف، وتم هذا من خلال التوأمين.

وتدخل العصا مركزاً فكرياً ويرتحل واضحاً نحو نظام الخصوبة، وهذا ما أشرنا له، عبر أسطورة الصخرة وتفجر الماء، وفي أسطورة التفويض بالكهنوت لهارون وهي أسطورة أنتجتها الذهنية الأرستقراطية / البطرياركية من أجل حيازة سلطة جديدة، لم تكـــن لهـــا ســـابقاً. وهذه الحيازة لم تجد أفضل من الأسطورة للاستعانة بها من أجل الحصـــول على هذا التفويض وهي أسطورة أرضية، أنتجها موسى كي يكرس السلطة كلها بيده وهرون، ويكون لهماهيمنة قادرة على لعب الأدوار الحيوية، وهرون مؤهل لذلـــك الدور لأسباب عديدة أهمها أنه الوسيط بين موسى والعبران / بني إسرائيل في نقل الوصايا والأوامر. وأحياناً يدخله الإله اليهودي / يهوه طرفاً في الديانة، وليحصل مـــنه ثنائي مقبول / فاعل، على الرغم من تحفظات الإله عليه بسبب بعض الخروقات الـــتي مارسها هرون، ولعل أكثرها بقاء بذاكرة الإله اليهوي هو العجل الذهبي. وعلى الرغم من سماحات يهوه له ودماراته للقبائل وإباداته لهم، عاقبه بقسوة شديدة، ووحد موســـى معه بالموت بعيداً عن أرض الوعد وجغرافية الأحلام.، مات الاثنان و لم يريا أرض المـــيعاد ودفـــنا قبل الدخول. أما موسى فلم يعرف مكان دفنه حتى الآن، وربما واجـــه موسى – وهذا ما يكشف عنه النص التوراتي – ثورة عارمة في الأيام الأخيرة وقتل فيها و لم يعرف قبره إلى الآن.

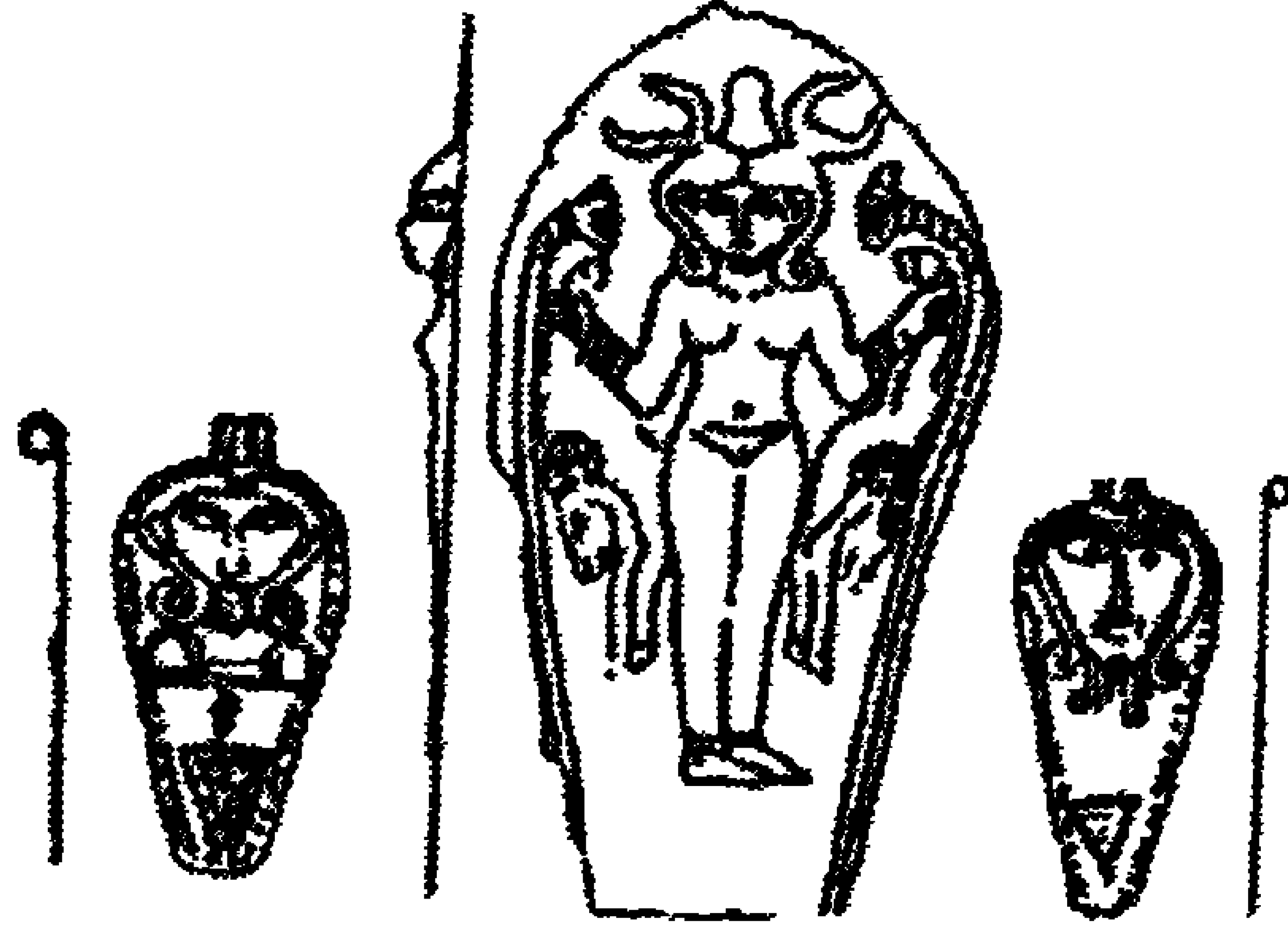


الشكل (٢٤): قبر النبي هرون — قرب البتراء

وكلم الرب موسى فقال: قل لبني إسرائيل أن يعطوك اثنتي عشرة عصا، واحدة لكل رئيس سبط من أسباطهم، واكتب اسم كل واحد على عصاه واسم هرون اكتبه علـــى عصـــا لاوي. لأن عصـــا واحدة تكون لكل رئيس سبط، وضعها في خيمة الاجتماع أمام تابوت الشهادة، حيث اجتمع بكلم فالرجل الذي اختاره تفرخ عصاه وبذلك أسكت ما يلقيه بنو إسرائيل من لوم عليكما. فكلم موسى بني إسرائيل فأعطوه اثنتي عشر عصا، لكل رئيس سبط من أسباطهم عصا وعصا هرون فيما بين عصيهم. فوضع موسى العصي أمام الرب في خيمة الشهادة.



الشكل (٢٥): الإلهة عناة، إلهة الحب والحرب وزوجة الإله بعل



الشكل (٢٦): الإلهة عناة مصورة على أقراط وتبدو رموز الخصب عليها

وفي الغد دخل موسى خيمة الشهادة فوجد عصا هرون التي هي لسبط لاوي أفرخت فأخرجت براعيم، وازدهرت وأنضجت لوزاً. فأخرج موسى جميع العصي من أمـــام الرب إلى جميع بني إسرائيل، فنظروا إليها وأخذ كل واحد عصاه. فقال الرب لموســى: رد عصـــا هـــرون إلى أمام تابوت الشهادة لتحفظ علامة للذين يتمردون. فيكفون عن إلقاء اللوم عليكما فلا يموتون. فعمل موسى بما أمره الرب.

فقـــال بـــنو إسرائيل لموسى: وهلكنا وبادت نفوسنا جميعاً كل من اقترب من مسكن الرب يموت".

سفر العدد ١٧: ١٦ – ٢٧

يضـــيء هذا النص جانباً جديداً من العلاقة بين الإله وبني إسرائيل من جانب وبـــين الإله وموسى / وهرون. أن يأخذ موسى عصا لكل بطريق ويدوّن عليها اسمه. وهـــذا يعني بأن موسى يجيد القراءة والكتابة ولماذا لم يكتب الإله يهوه أسماء الأسباط عـــلى عصـــيهم مثلما فعل مع اللوحين. يعرف الإله اليهودي الشكوك التي تعتمل في صـــدور بني إسرائيل وكذلك أسباطهم، ولهذا أراد نمو ثقة بين موسى وشيوخ قبائله.

وحـــتى يعزز ثقتهم – الشيوخ – بالذي يقوم به موسى. ووضع موسى العصي وسط خـــيمة الاجـــتماع أمام تابوت الشهادة، حيث يجتمع الإله بهم – هناك – ويكشف الـــنص عن وجود الرجال وهم مجموعة "حيث أجتمع بكم" ولا ندري من هم الذي يشير لهم النص "بكم".

تدخـــل الإلـــه الـــيهوي بشكل مباشر في صياغة هذه الأسطورة ذات الصلة بالخصـــب، حيث أفرغت عصا هرون و لم يحدد النص الوقت الذي مضى على وجود العصا أمام تابوت الشهادة وسط الخيمة. واكتفى النص بالإشارة إلى مضي يوم ويفهم من ذلك بأنه كان يوماً.

وحتى يقتنع بنو إسرائيل بالأسطورة ونتائج ما حصل، استلم كل منهم عصاه، وأعـــاد عصـــا هرون إلى الخيمة أمام التابوت – ولاحقاً وضعت وسط التابوت –. لتحفظ علامة للذين يتمردون.

و لم يـــبق أمام بني إسرائيل وأسباطهم إلا القبول بأسطورة الخصب التي صاغتها القـــدرة الـــيهوية والخاصة بهرون وتلك ارتحالة واضحة لمنظومة الخصب التي عرفتها الحضـــارات المجاورة وما يؤكد هذا الارتحال بدقائق العنصر المرتحلة هو نوع العصا التي اخـــتارها البنـــية الذهنية / الأسطورية وهي من نوع اللوز، هذه الأشجار التي كانت وســـيطاً مهمـــاً في العديد من الأساطير ذات العلاقة بالخصوبة وكذلك التي ارتبطت بالألوهة الشابة القتيلة ومنها الإلة آتيس / ويوسف التوراتي وأدونيس. وحازت شجرة اللـــوز عـــلى عناصـــر أســـطورية، ارتحلت ضمن جغرافية الشرق وديانات الخصب وسنحاول الاكتفاء بإشارة إلى أسطورة واحدة من أساطير الخصب ذات الصلة بشجرة اللـــوز وهي(*) إن غولاً خنثى ولد من حجر ملقح من قبل الإله زوس. وقد قرر الإلهة

(*) ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ت: عبدالهادي عباس، دار دمشق، جـ٢، ١٩٨٧، ص٣١٣.

إخصاءه وتحويله إلى ربة سيبيل، وحسب رواية مختلفة أخرى أن شجرة لوز انبثقت من دم خنثى وبأقدام نانا ابنة نهر سنغاريوس على أكل حبة لوز، أصبحت حاملاً فولدت الطفل "أتيس" وما أن كبر حتى احتفل بعرسه من ابنة الملك وعندما دخلت وجدت "أجديتس" التي أحبته إلى قاعة الاحتفال، اعتبر حضورها عملاً جنونياً، فاجتث الملك الأعضاء الجنسية المولدة وهرب آتيس، وختن تحت شجرة صنوبر ومات. وقد حاولت "أجديتس" يائسة إعادة حياته ولكن زوس عارض في ذلك وسمح فقط ببقاء جسد آتيس غير معرض للفساد والإشارة الوحيدة لحياته ستكون نمو شعره وحركة إصبعه الصغرى، وبما أن "أجديتس" ليست سوى تجل للأم الكبرى الخنثى، فإن آتيس هو في آن واحد الابن والحبيب والضحية لسيبيل وقد حزنت الربة على غيرها، فندمت وبكت حبيبها.

واللوز، كلمة مشتقة من أصل عبري معناه "يسرع" لأن(*) شجرة اللوز تتسرع في الإزهار قبل بقية الأشجار، وازدهارها المبكر يعلن أن "الربيع قريب" وهذا المعنى يوضحه ما جاء في سفر أرميا:

"وقال لي الرب: ماذا ترى يا إرميا. فقلت: أرى غضن لوز. فقال: أحسنت فيما رأيت: فأنا ساهر على فعل ما أقول".

سفر أرميا: ١١-١٣

لقد رأى إرميا قضيب لوز فلقال الرب له: أحسنت الرؤية لأني أنا ساهر على كلمتي لأجريها أو أني مسرع لجريها وفي شعب المنارة الذهبية "كاسات لوزية" أي أن الكاسات تشبه اللوز:

(*) ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، ت: وهيب ملك ١٩٨٣، ص٥٩٧.

"ويـــتفرع من جانبي المنارة ست شعب، ثلاث من جانبها الآخر ويكون لكل شعبة من الشعب الست ثلاث كاسات على شكل زهرة اللوز بقعدتها وأوراقها".

سفر الخروج ٢٥: ٣٣

"وفي عمود المنارة ذاتها أربع كاسات على شكل زهرة اللوز بقعدتها وأوراقها"

سفر الخروج ٢٥: ٣٤

واللـــوز رمـــز جميل للرب يسوع المقام من الأموات باكورة الراقدين ليكون الكامل المكمل "الممجد" إلى الأبد.

ولـــوز، هو الاسم القديم لبيت إيل(*). وكان اللوز أوّل شجرة مثمرة تُزرع في فلســطين كــل سنة، فكان يظهر زهره باكراً في أواخر كانون الثاني "يناير" أحياناً، وفضلاً عن كون ثمر اللوز مفضلاً في الأطعمة، كان يستخرج منه زيت أيضاً.

ربمـــا تســـاهم هذه الأسطورة بإضاءة المحيط الحيوي لأسطورة العصا السحرية الخاصـــة بهرون والتي حسمت صراعاً حاداً وقوياً وسط السلطة الأرستقراطية الدينية والتي حسمت موضوعة الكهنوت.

ويبدو من خلال النص (العدد: ١٧: ١٦-٢٧) بأن العصا حازت على التنوع الـــدلالي. ولعـــل أهم إشارة يفيض بها النص هو التعامل معها باعتبارها علامة للعنف والمراقبة والإشارة في النصيحة واضحة (رد عصا هرون إلى أمام تابوت الشهادة لتحفظ "علامة للذين يتمردون"

وأرى بأن وجود هذا النص الخاص بالعصا وأسطورتها بعد نص "العدد ١٧: ٦ -١٦" لـــه دلالة أيضاً ترتبط بشكل مباشر بالانتفاضات التي عرفها بني إسرائيل مراراً

(*) موسوعة الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٧٨.

وخصوصاً الانتفاضة، حيث مارس الإله يهوه هوايته بالإبادة "فكان الذين ماتوا بالضربة أربعة عشر ألفاً وسبع مئة، ما عدا الذين ماتوا بسبب قورح: العدد: ١٧: ١٤ – ١٦" لذا كان للعصا بعد هذه الإبادة مدار العقوبة الرادعة للذين يمارسون اللوم لموسى وهرون.

وتكون الديانة السيهودية قد اجتازت مرحلة خطيرة من مراحل تكونها واستقرارها الظاهري، حيث تحقق اصطفاف ديني / سياسي خطير، منح الديانة الموسوية حضوراً من نوع جديد، إنه اصطفاف السلطة الأرستقراطية / الكهنوتية التي قادها هرون مفوضاً من قبل الإله يهوه.

ومع هذا التحقق الانقلابي، كانت الديانة الجديدة مذعورة وخائفة من مداهمة الفقراء، ويومئ النص في نهايته لمخاوف موسى من تكرار الانتفاضة الذي ربما تنوش هيكل يهوه / خيمته ويدمرها العنف المادي.

"كل من اقترب من مسكن الرب يموت: العدد ١٨: ٢٨"

إن بقاء العصا في تابوت العهد، تعبير عن الانتقالة التي حصلت داخل البنية الدينية السيهودية. والكيفية التي حصل فيها حسم الصراع وبقاء ما يشير إلى المراقبة والمعاقبة وممارسة العنف من قبل الإله وموسى وهرون أيضاً، لذا كان بقاء العصا اعترافاً ضمنياً بإمكان نشوء مظاهر العنف بين بني إسرائيل. ويدلل وجود العصا وسط تابوت يهوه على سلطة الإله ونزوعه للعنف وتوسله بالطاقة السحرية التي كثيراً ما استعان بها لحسم الكثير من الإشكالات الدينية التي بلّورها الصراع الطويل / والدموي ومنذ لحظات الخروج الأولى وحتى اجتياحهم، لأريحا. ومعاودة الإله للاستعانة بالطاقة السحرية، تأكيد على ملازمته لها واللوذ بها والإبقاء عليها – السحرية – عنصراً خاصاً

بــه ويمـــنع بـــني إسرائيل من ممارسته، حتى لا يدع لهم فرصة التمكن من تجسدات السحرية وممارستها كممكن يومي، يضعف تمركزها كخاصية من خصائص يهوه.

وسنحاول تقديم توصيف نهائي لمنظومة العصا المتنوعة والتي توصلت لها القراءة:

- كانت العصا إشارة لتحقق نتائج دمار متأتية بالضربات التوراتية.
- حققـــت العصـــا التوراتية اصطفافاً مغايراً من أجل صعود أو تجسد سياق متباين للحشود الهائمة في سيناء، بواسطة العصا لحظة تدفق الماء من الصخرة / وحازت على مدار الخصب والذي اقترن بها.
- العصـــا المرفوعة علامة للقوة الصيانية وأفعال التحقق التوراتي. وبهذا فإننا نتوصل إلى أن العصا ذات نسق هندسي محكوم بتنوعه ضمن حدود المجال المكاني.
- العصا رمز للسلطة الإلهية / اليهوية، لازمت تابوت العهد باعتبارها قوة سحرية، تمتلك إمكانية الردع بعد المراقبة.
- بقـــاء الســـحرية خاصية للإله اليهودي / اليهوي، مرتحلة له من مصر الفرعونية، محرمة على بني إسرائيل ممارستها.
- وجـــدود العصـــا متجاورة مع المنّ "المني" وسط التابوت، تعبير عن حيوية الإله وقدرتـــه الجنسية التي تحقق له السلوى (استفادت القراءة من التسمية) والسعادة وهذه الخاصية مرحّلة له من الألوهة في الشرق وخصوصاً الإله السومري إنكي.
- وجـــود العصا طويلاً وسط التابوت، رامز لحيويته الإله وقدرته لاستعمالها وسيلة ردع وعقاب، وتعبير عن شبابه، وهي بديله الدال عليه والموجود داخل التابوت.

إنها ذات مدلول جنسي / إخصابي. والأكثر حضوراً هو الاتصال الثنائي المجرد، وبـــدون إخصـــاب، لأن البنـــية الذهنية التوراتية لم تحز على الخصب خاصية فاعلة

ومــستمركزة. لأن العنف اليهودي هو الأكثر حضوراً على الكثير في الوقائع والنصوص الــوارد ذكرها في الأسفار التوراتية. والعنف اليهودي أكثر تبدياً، وحاز عليه من آلهة الشرق المعروفة وكنا أشرنا لذلك في كتابنا أقنعة التوراة.

مراجع الباب الثاني

١. الكتاب المقدس

٢. قاسم الشّواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول، دار الساقي، لندن، ١٩٩٦.

٣. شفيق مقار، الجنس في التوراة وسار العهد القديم، الكتاب الأول، من الآلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨.

٤. نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.

٥. أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.

٦. إنطوان مورتكات، الفن في العراق القديم، ت: د. عيسى سلمان وسليم طه، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٥.

٧. أندريه بارو، بلاد آشور، ت: عيسى سلمان وسليم طه، وزارة الثقافة، ١٩٨٤.

* سومر فنونها وحضارتها، ت: د. عيسى سلمان وسليمان طه، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٧.

٨. عبدالله الغذامي، المرأة واللغة – ٢ –، ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨.

٩. إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط٢، لبنان، ١٩٩٨.

١٠. دافـــيد لوبــروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ت: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣.

١١. ليفي شتراوس، نظرات إلى الأشياء، ت: خليل أحمد خليل، مجلة الفكر العربي، العدد (٧).

١٢. ميرســـيا الياد، تاريخ المعتقدات و الأفكار الدينية، ت: عبدالهادي عباس، دار دمشق، جـــ٢، ١٩٨٧.

١٣. ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، : وهيب ملك، القاهرة، ١٩٨٣

١٤. موسوعة الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، بيروت، ١٩٩٣.

الباب الثالث

ثنائية الخطاب الإسرائيلي

الهولوكوست واللغة المقدسة

١. نافــذة

كــتاب مستقبل إسرائيل، من الكتب المهمة جداً ولأسباب عديدة وجوهرية، ومـــن هذه الأسباب وأهمها أن المحاور لشمعون بيريز هو الكاتب والروائي الأمريكي روبـــرت ليتل، وهذا المحاور امتلك خبرة فكرية وفنية عالية في طريقة اختيار الأسئلة وترتيـــبها بالتـــالي، بحيث شكلت مجموعة من الحلقات المترابطة وقدمت أهم المراكز الفكرية والدينية والتي صاغت مجموعة من النظم الفكرية التي بلورت وكرست المفاهيم الصـــهيونية، والقـــراءة الدقيقة للحوار، تكشف قدسية واضحة وراء الأسئلة وطريقة تقـــديم الإيضاحات التاريخية لها، وكأنها محركة للذاكرة الصهيونية، من أجل إنعاشها ونفض الغبار عنها وإعادة الحديث من أجل تكريسها في الذاكرة المعاصرة.

وكـــان روبرت ليتل ذكياً في صياغاته وكأنه في طريقة سرده للأحداث يقدم اســـتطلاعاً روائياً، يخفف من الحدة التي دائماً ما يتمتع بها الحوار السياسي، وذلك من خـــلال هيمـــنة الخطـــاب، وهنا كان الخطاب متنوعاً، لكنه وعلى الرغم من تنوعه، استطاع صياغة وتحويل كل الخطابات لخدمة الخطاب السياسي / والعرقي.

ولقـــد تميزت صياغات روبرت ليتل وقربت الأجوبة إلى الحكاية، واتسع مجالها في الســـرد / والحكـــي وصـــار لبعض منها مجال سبي، امتد في اللاحق من الأسئلة /

والأجوبة بحيث يتمكن السؤال بالإمساك بالمتلقي ويطغى عليه، لدرجة لا يستطيع الفكاك من بنية السؤال المصاغ بتحقق ثنائية / فنية وفكرية، إلى أن يمتد ويدخل وسط فضاء الجواب، الذي يقدمه شمعون بيريز، والذي كثيراً ما كان متناغماً مع السؤال في مستوياته الفكرية والمعلوماتية، الممتدة عميقاً في التاريخ اليهودي / والذاكرة العبرية وكأنها – المحاورة – معنية بكلية التاريخ الخاص بالعبران، وتقديمه بشكل مرتب ونظيف، وخال من العداوات والإبادة والتمييز العرقي والاضطهاد / والملاحقة / والتهجير، الذي عرفه الشعب الفلسطيني عبر تاريخه الطويل، ومنذ اجتياح يشوع بن نون لأريحا ودخولهم إلى أرض فلسطين، وحتى إلى الآن، وأظهرت المحاورات الشخصية اليهودية، بوجه إنساني مع توفر عناصر للحوار مع الفلسطيني وإمكان العيش تجاوراً وإياه.

ووجدت خلال قراءتي للأسئلة الدقيقة / والأجوبة بأنهما خضعا معاً لهيمنة – روبرت ليتل – في اختيار وتحديد الأسئلة وصياغة الأجوبة، وفتح المنافذ نحو محطات وجدها ليتل ضرورية جداً، لذا صاغ أسئلة عنها، كل هذا توفير لمعلومات جديدة، تقدم وظيفة، أو مجموعة من الوظائف تهم – ليتل – مثلما تهم بيريز أيضاً، ومن الممكن أن تكون الأسئلة مقترحة على روبرت ليتل، لرسم فضاء واسع للدولة اليهودية / الصهيونية وقد تميزت شخصية المحاور بخبرته الصحفية العالية ونجاحه في تحقيق فرصة مهمة في الاتصال مع القارئ العربي، لأنه المقصود بذلك وأجد بأن الكتاب موجه – أيضاً – للعربي، من أجل أن يرسم لنا صورة جديدة لشخصية شمعون بيريز / الحائز على "جائزة نوبل للسلام"، وظهر متماهياً مع الجائزة، ومتعالقاً مع أهدافها الإنسانية. ولهذا كان خلال المحاورات واعياً للدور الموكول له مثلما كان ليتل مدركاً لأهمية الحوار مع بيريز. لذا كان الخطاب في هذا الكتاب متنوعاً، ولكنه محكوم بالخطاب الإعلامي / والسياسي الذي هيمن وقاد الخطابات الأخرى، وصار حاضنة لها. لأن

الخطـــاب الإعلامي وآلية الصياغة، هي التي تحقق نتائجها المطلوبة في مثل هذا الحوار الطويـــل / المتشـــعب، بحيـــث يجد المتلقي الواعي، والمدرك عدداً من تفاصيل اللعبة، ولدرجـــة يكـــون فيها مشتتاً وضائعاً وسط فضاءت مختلفة، يكون فيها شمعون بيريز منتصراً "وحكيماً وإنسانياً".

ومـــن الأســـباب الأخـــرى الدالة على أهمية هذا الكتاب، أنه يأتي بعد عملية "الســـلام" ويكشـــف لـــنا جينولوجيا الحلم الصهيوني / المبكر في الهجرة / ومغادرة الشتات، مع ترقب وانتظار لحياة آمنة / ومستقرة، تعمق بالتدريج الحلم، الذي انتظروه كـــثيراً، باعتـــباره وعـــداً مـــن الإله اليهودي لهم، وفي أرض فلسطين، وهذا تؤكده النصـــوص التوراتية / سفر التكوين / والموضوعة بذكاء وقصدية. تضيء لنا الطموح العـــبري / اليهودي / الصهيوني للتكون والتشكل، كذلك حياهم الانضباطية / العالية جـــداً / والتي ساهمت ببلورة شخصيتهم العنصرية / والعدوانية، مثلما أضاء لنا أوهام المؤسسة العنصرية حول الهلوكوست والتي سنتحدث عنها بشيء من التفصيل، ونحاول كشـــف الأكاذيـــب والزيف وما انطوت عليه من حقد وكراهية، كل هذا من أجل بلورة حاجة اليهود إلى وطن، ينقذهم من الشتات.

في الكـــتاب خطورة، تجسدت في نجاح الآلية الدقيقة التي توفرت للمحاور – روبـــرت ليـــتل – والذي تدخل كثيراً، كثيراً في صياغة هذه المحاورات و/ وإعدادها وصياغتها، بحيث توفرت على مقدرة / فائقة في رسم صورة بانورامية لشخصية شمعون بيريـــز، صورة لم تكن موجودة حقيقة،إنها صورته التي رسمها الإعلام القصدي. كما تـــبدى الخطورة في طغيان الخطاب العنصري وتصاعد "إنسانيته" وإمكان هيمنة هذا الخطـــاب عـــلى القارئ ولعب دوراً في إعادة صياغة موقفه / أو مواقفه تجاه العبران / اليهود / الصهاينة، ولذا فالخطورة تكمن في احتمال اهتمام المتلقي بما هو خارجي، ولا ينتبه للعمق / والداخل الذي تشف عنه الإجابات. وتسحب قوة الخطاب القارئ إلى

عــدد مـــن المجالات المهمة / والحيوية، منها التوراة / الشتات / السياسية، الملاحقة / الهامش / الوطن المفقود / العودة...الخ.

سأبذل جهداً بسيطاً في قراءة هذا الحوار، قراءة دقيقة وواعية، قراءة مختلفة تماماً عن استلامات المتلقي السريع والذي ربما يتعامل معها، باعتبارها عملاً صحافياً وجهداً بســيطاً. وأدعــو القارئ العربي إلى يقظة حذرة، وانتباه / ذكي، لحظة تعامله مع هذا الحــوار / والاســتعانة بما يمكن الاستعانة به من أجل تفكيك الخطابات واستهدافها بوعــي، لأن الذاكرة الحقيقية / التاريخية، تقدم لنا دعماً / وعوناً مهماً في مراقبتنا لهذا النوع من الحوارات.

٢. اللغـــة المقدســـة

إن واحـــداً من أسباب ثبات وقلة التغير والتطور الذي يلحق باللغة، هو كونها لغـــة أساطير، وهذا ما يمكن ملاحظته في اللغة العربية / والعبرية، لأنهما واجها وبقوة التطورات الموضوعية، والتي تنعكس حتماً على اللغة باعتبارها وسيلة الاتصال اليومي / والتبادل الشفاهي / والكتابي. وسبب ذلك هو أنهما معاً لغة صارتا مدوّنتين لنصوص دينية. ولا يمكن أبداً بعد أن حصل التدوين بها أن يلحقهما التغير والتطور، ولأنهما — أيضـــاً — لغـــة كتب مقدسة، أضفت البنية الذهنية الدينية، سلطة عليهما، ومنحتهما قداسة، وحازتا على عناصر جديدة، لم تكن من خاصيتهما قبل وجود الدين اليهودي / والإســـلامي، بحيـــث صـــارت الواحدة منهما، لغة اعتيادية، لا تختلف عن اللغات الجزيرية الأخرى، إلا ببعض الخصائص الفنية التي تميز كل لغة من اللغات.

اللغـــة العـــبرية، لغة ميثية، لأنها دوّنت الكثير من الأساطير والميثولوجيات التي عرفـــتها حضـــارات الشـــرق الأدنى القـــديم، ابتداءً بالحضارة العراقية / والسورية / والكنعانـــية/ والمصـــرية. وبذلك استطاعت اللغة العبرية أن تمسك بتقاليد وموروثات الحضارات الشرقية القديمة. وبها ومن خلاله صاغت المراكز / والمهيمنات الأساسية في الديانـــة اليهودية، على الرغم من أن هذه الصياغة، جاءت متأخرة جداً،/ لأن التدوين

الحاصل باللغة العبرية، لم يحصل إلا في القرن الخامس ق.م. إلا أنها كلغة تدوين دقيقة، تـــبلورت، في القـــرن الثاني ق.م وتميزت كلغة بين اللغات الجزيرية، التي شكلت مع غيرها عائلة اللغات الجزيرية في القرن الخامس ق.م وما بعده. وهي ليست لغة حاضنة، اســـتولدت لغات أخرى، فهي – وكما معروف – استولدتها اللغة الآرامية، وحازت عـــلى ملامحها التي تشكلت أخيراً وحصلت على هويتها، وهي هوية مختلفة، فهي من الكنعانية / والآرامية وفيها إلى الآن مفردات كثيراً جداً منهما.

هذا التقديم، من أجل الإشارة لكلام شمعون بيريز الذي وصف فيه اللغة العبرية بالقداســـة، واعتبرها لغة الصلاة والتراتيل والعبادات، ربما الآن، أما سابقاً فإن اليونانية والآرامية، كانت لغتهم في الخطاب والتدوين، وهذا معروف في الدراسات التاريخية.

أشـــار د. القـــس عبدالمسيح اسطفانوس إلى أن أسفار الكتاب المقدس دوّنت باللغـــات السائدة بين الشعوب الذين وجّه الرب رسالته إليهم. واللغات الأصلية التي كتب الكتاب المقدس بها هي:

اللغـــة العـــبرية: وهي اللغة السائدة بين العبرانيين. وكانوا يسمونها أحياناً "لغة كنعان"

"وفي ذلـــك الـــيوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان وتحلف باسم الرب القدير" إشعيا ١٩: ١٨

وكذلك يسموّنها "اللسان اليهودي"

"فقـــا ألياقـــيم بـــن حلقيًا وشبنة ويوآخ لمعاون رئيس الأركان: كلمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها،ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور"

الملوك الثاني ١٨: ٢٦

و"وقــف معاون رئيس الأركان فنادى بصوت عظيم باليهودية: "اسمعوا كلام الملك العظيم، ملك آشور".

الملوك الثاني ١٨: ٢٨

وهــناك نص آخر في سفر نحميا، يؤكد بأن اللغة لم تكن العبرية وإنما هي لغة أشدود.

"وكــان كــلام أولادهم خليطاً من لغة أشدود وسواها، وما كانوا يحسنون التكــلم بالــيهودية، فخاصــمتهم ولعنــتهم وضربت منهم رجالاً ونتفت شعرهم، واستحلفتهم بالله لا يعطوا بناهم لهؤلاء الغرباء ولا يأخذوا بناهم لبنيهم ولا لهم".

نحميا ١٣: ٢٤

يــثير كــلام د. القس عبدالمسيح والنصوص التوراتية مجموعة من الملاحظات أهمها:

١. **إن اللغــة السائدة** في الاتصال والتبادل الثقافي هي اللغة الكنعانية / أو ما يطلــق علــيه أحــياناً في الدراسات التوراية "شفة كنعان" ولغتهم غير القومية لم تمنع العبران من ممارسة طقوسهم الدينية وصلواهم. وهذا يثير إشكالاً معرفياً مهماً وخطيرا وهــو أن الفكــر البشــري(*) أي فكر بما في ذلك الفكر الديني، نتاج طبيعي لمجمل الظــروف التاريخية والحقائق الاجتماعية لعصره، وليس معنى ذلك أنه نتاج سلبي، بل الأحــرى القــول إن الفكر الجدير حقاً بهذا الاسم هو الفكر الإيجابي الذي يتصدى لحقــائق العصر الذي ينتمي إليه بالتحليل والتفسير والتقويم، ويسعى إلى الكشف عن عناصر التقدم ومساندها وعزل عناصر التخلف ومحاربتها.

(*) نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٨٥.

ولأن الظروف التاريخية تتحكم بالنتاج الثقافي، وتعتمد على اللغة في الإرسال، لا يمكن العزل بين ما هو تاريخي وبين التجسدات الاتصالية والتي كانت اللغة مركزاً إرســالياً مهماً، ساهمت بقيادة الحركة الحياتية / والدينية وأخضعتها تماماً للخصائص الوطنــية الخاصة بكل عرق من الأعراق، لذا يمكن التفريق بين المرحلة التاريخية واللغة الســائدة فــيها لأنهــا – أي المراحل – هي التي صاغت وسيلة التراسل بين الأفراد والجماعــات، واللغــة هي بناء تاريخي، ساهمت عناصر عديدة في بلورتها / وصياغتها وقادت هي – اللغة – مجالات الاتصال / والتبادل الثقافي والمعرفي بشكل عام.

وكمــا قــال د. نصر حامد أبو زيد: ولا خلاف في أن تاريخية اللغة تتضمن اجتماعيــتها، الأمر الذي يؤكد أن للمفاهيم بعدها الاجتماعي الذي يؤدي إهداره إلى إهدار دلالات النصوص ذاتها.

وتنطوي اللغة كنظام مشكل من مجموعة علامات لسانية على أصول اجتماعية / وحضــارية، ســاهمت بصياغة ذلك النظام وصارت – لاحقاً – وسيلة للاتصال، وبالاتصــال التــبادلي / الشفوي / الكلام، تقدم خصائصها القومية ومن خلال ذلك تشــف – حتما – عن العناصر الدقيقة التي بلورت ذلك النظام اللساني ولهذا كانت اللغة – الكنعانية – مثلاً حاضنة لعناصر الحضارة الكنعانية، واستوعبت خصائصها عبر الوظائف المتبدية في كل لحظة. لذا لا يمكن ترحيل الثقافة المنتجة باللسان الكنعاني إلى محيط عبراني كذلك الآرامية / أو اليونانية.

كيف يمكن لشعب من الشعوب أن ينتج ثقافته / حضارته بواسطة لغة اخترعها شــعب آخــر غيره. لقد كان العبران يمارسون الاتصال اليومي / والإرسال التخاطبي ومــزاولة الشعائر والطقوس عبر اللغة الكنعانية / والآرامية – وليس مثلما قال شمعون بيريــز في الحــوار معه. وهذا أمر مثير لإشكالية معرفية كبيرة جداً، لأن النصوص –

المدونـــات / الشـــعائر / الطقوس – التراتيل – هو عبارة عن أبنية لغوية(*) لا تفارق الـــنظام الـــدلالي للغتها إلا في حدود خاصة / مشروطة بطبيعة وظيفتها المقصودة في الـــثقافة... لكن إذا كانت اللغة تتطور بتطور حركة المجتمع / والثقافة فتصوغ مفاهيم جديدة، أو تطور دلالات ألفاظها، للتعبير عن علاقات أكثر تطوراً، فمن الطبيعي، بل والضــــروري، أن يعـــاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية / الاجتماعية / الأصلية وإحلال المفاهيم المعاصرة، والأكثر إنسانية وتقدماً، مع ثبات مضمون النص، إن الألفـــاظ القديمة لا تزال حية، مستعملة، لكنها اكتسبت دلالات مجازية، لذا تظل المدوّنـــات التوراتـــية – عـــبر اللغات العديدة التي صاغتها أولاً – مدونات مهجنة، بالإمكان التقاط الروح الخفية التي استعانت بها الديانة وصاغت خطابها الديني. إلا أنها – العقائد والطقوس الدينية – تمثل مجموع النصوص المقدسة / الثابتة تاريخياً كما قال – نصـــر حامد – فكيف بالإمكان التعامل مع المدوّنات التوراتية، باعتبارها نصوصاً مقدســـة وليست هناك حقائق تؤكد ثبتها التاريخي، بل العكس فإن الأسفار التوراتية، خضعت للتغير كثيراً وعبر مراحل التدوين المختلفة.

إن اعتراف النصوص التوراتية واضح جداً، وهو ما يؤكد كون العبرانية لم تكن لغة العبران، وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أن اللغة نتاج اجتماعي / وتاريخي والعبران لم تتوفر لهم فرصة تحقيق هذه الخاصية، بسبب الشتات أولاً، ولأن المكان الذي دخلوه واســـتوطنوا فـــيه، لم يكـــن مكـــانهم ثانياً بمعنى أنهم لم يستطيعوا حيازة العناصر / والخصـــائص الحضـــارية والتي هي الأصول الأولى التي تبلور اللغة. كما أن النصوص حسب – المفهوم السيمائي – لا تنفك عن النظام اللغوي العام للثقافة التي تنتمي إليها – كما قال د. نصر حامد أبو زيد – لكنها من ناحية أخرى تبدع شفرتها الخاصة التي تعـــيد بناء عناصر النظام الدلالي الأصلي من جديد. وتقاس أصالة النصوص وتتحدد

(*) نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص١٠٢.

درجـة إبداعيتها بما تحدثه من تطور في النظام اللغوي وما تحققه نتيجة لذلك من تطور في الثقافة والواقع معاً.

وعـلى ذلـك يمكـن القول أن النصوص ارتبطت بواقعها اللغوي / الثقافي، فتتشـكل بـه من جهة، وتبدع شفرتها الخاصة التي تعيد بها تشكيل اللغة والثقافة من جهة أخرى. وهناك منطقة تماس بين الجهتين، هي التي تمكن النصوص من أداء وظيفتها داخل البنية الثقافية في مرحلة إنتاج النصوص، هذه المفاهيم الدقيقة — لنصر حامد أبو زيد — تضيء العتمة المحيطة بالهوية العبرانية، وتمسح عنه تلك الصفة / الهوية، لأنهم لم يستطيعوا حيازة أول / وأهم العناصر المكونة للهوية، وهي اللغة.

ومن الإشكالات الفكرية الأخرى، هو التشوش والاضطراب وغياب الرؤية / والدقـة الفكرية التي تتعامل مع اللغة، باعتبارها نتاجاً تاريخياً / واجتماعياً، مثلما هي مـرآة للخصـائص القومـية لأي عـرق من الأعراق ولا أدري كيف يمكننا القبول بالـتداخل والتـناقض الحاصل في آن واحد، حيث لا يمكن اعتبار اللغة العبرانية، لغة كـنعان / أو آرام، والإشكال الآخر الخطير، هو العلاقة التي يفترضها اليهود بين اللغة والدين، بحيث يتحول الدين بديلاً للعرق والقومية، ويقال اللغة اليهودية، ونحن نعرف بـأن اللغـة نظام لساني / ومعجم تنتجه القوميات وكل قومية لها معجمها الخاص، والـذي لا يغلق نفسه أمام الأنظمة اللسانية الأخرى. ولم نعرف من قبل بأن الديانات — حصراً أنتجت قاموسها الخاص. والتأكيد على اللغة باعتبارها لساناً يهودياً (٢مل: ١٨: ٢٦) يمـثل تشوشـاً وارتـباكاً في العلاقة مع اللغة والطريقة التي تأسست فيها وتكرسـت لساناً خاصاً بعرق ما، بغض النظر عن الديانة الخاصة بذلك العرق. لأن الأعراق لا تشترط بالضرورة وجود ديانة واحدة فقط.

٢. اللغة الآرامية:

كانت اللغة الآرامية، هي اللغة السائدة في مناطق كثيرة وكانت اللغة الرسمية في المملكة الآرامية (السورية)

"فقـــال ألياقـــيم بن حلقيّا وشبنة ويوآخ لمعاون رئيس الأركان: كلّمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور"

الملوك الثاني ١٨: ٢٦

وكانـــت اللغـــة الآرامية، لغة رسمية – أيضاً في الإمبراطورية الفارسية(*). وبعد العـــودة من السبي حزن نحميا لأن الشعب نسي اللغة العبرية، وأصبحت السيادة للغة الآرامـــية."وفي الســـنة الثانـــية من عهد نبوخذ نصر الملك. حلم نبوخذ نصر أحلاماً أزعجـــته ومنعـــت عنه النوم، فأمر أن يدعى السحرة والمجوس والعرافون والمنجمون ليفسروا له أحلامه، فجاؤوا ووقفوا أمامه. فقال لهم: "حلمت حلماً فانزعجت، واريد أن أعرف ما هو" فأجابه المنجمون بالآرامية: أيها الملك عشت إل الأبد. أخبرنا بالحلم فنبين تفسيره".

دانيال ٢: ١ – ٤

٣. اللغة اليونانية:(**)

ظلـــت الآرامية اللغة الرسمية إلى أن انتصر الإسكندر الأكبر على مملكة الفرس (٣٣١ ق.م) فأصـــبحت اللغـــة اليونانية هي اللغة الرسمية، وإن كان عامة الشعب قد اســـتمروا في استخدام اللغة الآرامية. ويبدو أنه كانت هناك لهجتان من اللغة الآرامية،

(*) د. القســـي عبدالمســـيح اســـطفانوس، تقديم الكتاب المقدس للقارئ العربي، دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٤، ص٢١.

(**) د. القس عبدالمسيح اسطفانوس، سبق ذكره، ص٢١.

إحداهما مستخدمة في الجليل والأخرى في اليهودية، ويظهر هذا واضحاً في قصة إنكار بطرس للمسيح:

"وكان بطرس قاعداً في ساحة الدار، فدنت إليه جارية وقال: أنت أيضاً كنت مـع يسوع الجليلي" فأنكر أمام جميع الحاضرين، قال: لا أفهم ما تقولين" وخرج إلى مدخـل السـاحة، فرأته جارية أخرى، فقالت لمن كانوا هناك "هذا الرجل كان مع يسـوع النصاري" فأنكر بطرس ثانية وحلف، قال: لا أعرف هذا الرجل" وبعد قليل جـاء الحاضـرون وقالوا لبطرس: لاشك أنك أنت أيضاً واحد منهم، فلهجتك تدل علـيك" فأخذ يلعن ويحلف: أنا لا أعرف هذا الرجل. فصاح الديك في الحال، فتذكر بطرس قول يسوع: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات "فخرج وبكى مراً".

متى ٢٦: ٦٩ — ٧٥

وأصبحت اللغة(*) اليونانية اللغة السائدة التي يستخدمها رجل الشارع في روما، والإسكندرية، وأورشليم "القدس" وإنطاكية / وأفسس. بينما كانت اللغة اللاتينية لغة الحكـام الرومان وجيوشهم، إلا أن اليونانية التي كتب بها العهد الجديد كله لم تكن اليونانية الكلاسيكية التي كتب بها هوميروس مثلاً أشعاره، بل كانت اليونانية الشعبية الـتي يسـتخدمها رجـل الشارع وإن كانت قد امتزجت ببعض المفردات اللاتينية السـائدة، واتسعت لبعض مفاهيم المفردات التي انتقلت من العبرية لليونانية من خلال الترجمة السبعينية للعهد القديم.

ويفسر رجال الكهنوت هذا التنوع، تفسيراً إيجابياً، وحصل كي تتسع رسائل الـرب إلى بني البشر، ولهذا اعتبروا الكتاب المقدس كتاباً نجح في تخطي كل الحواجز

(*) د. القس عبدالمسيح اسطفانوس، سبق ذكره، ص٢٢.

اللغوية، فالمفردات في حد ذاتها لا تحتل المكان المركزي. إن ما يهم هو أن تصل رسالة محبته للبشر بلغة يفهمونها بسهولة ويسر.

هـــذا يؤكـــد بـــأن العبران، لم تكن لهم لغة خاصة والتدوين الأول للأسفار الموســوية، لم يكن باللغة ا لعبرية، لأنهم كانوا قد خرجوا تواً من مصر، وحتماً كانت لغـــتهم هي المصرية، لأن موسى كان واحداً من رجالات مصر المهمة، حتى الحشود المغادرة معه، كانت أقامتها في مصر طويلة جداً، ومن المحتم أنهم تعلموا اللغة المصرية.

ولـــذا استقرأ الأستاذ جودت السعد مجموعة من الملاحظات حول لغة العبران وأهمها(*):

١. محادثات موسى وهارون مع فرعون، لابد وأنها حصلت باللغة المصرية بحكم تربية موسى في البلاط الفرعوني.

٢. إن مكـــوث مـــن تســـميهم التوراة "الإسرائيليين" ٤٣٠ سنة في مصر يجعلهم مضـــطرين إلى تعلم اللغة المصرية والتحدث بها ويؤكد كذلك علاقتهم بالمصريين واستعادة حاجيات المصريين كما تقول التوراة.

٣. عـــدم ورود أي إشـــارة، ولـــو تلميحا إلى معرفة الموسويين أي لغة أخرى غير المصرية، أثناء مكوثهم في مصر وبداية الخروج، فالموسويون كانت لغتهم المصرية ولكنهم تخلوا عنها بالتدريج واستعاضوا عنها بالكنعانية.

وأكـــدت أكـــثر الدراســـات الخاصة بالديانة الموسوية على أن موسى قاد(**) حمـــلات تبشـــير بالتوحـــيد الأخـــناتوني وخصوصاً بعد سقوط الديانة التوحيدية /

(*) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٨، ص٢٠٩.

(**) Weech, Civilization of Near East. Pp. 84, 88.

الأخناتونـــية، حيث كان أخناتون يدعو إلى عبادة إله واحد فقط، ولأن موسى قضى أيام طفولته وشبابه في مصر، فقد عرف هذه العقيدة وتأثر بها ودعا لها.

وقد نقل "يوسفوس" عن مانيثون المصري، المهتم بالتاريخ القديم ما يشير إلى أن موسى كان كاهناً مصرياً، وأكد فرويد على أن موسى كان مصرياً وليس يهودياً.

ومـــا يؤكـــد مصرية الديانة الموسوية، هو الطقوس(*) المتعلقة بتقديم الأضحية والقرابين الحيوانية، التي تمثل أحد أهم أركان الديانة الموسوية هي طقوس مصرية كان يمارسها المصرين منذ أقدم الأزمنة.

لم تتوفر للعبران فرصة تسييد لغة قوية خاصة بهم أبداً، حتى الفترات السياسية / الذهبـــية بالنسبة لهم، مثل حكم سليمان، كانت الديانة خليطاً وثنياً وشهدت فترات معروفة في حياتهم نشاطاً واسعاً للتعريف بالثقافة اليونانية والرومانية وخصوصاً في عهد "هيرودس" الأدومي / والذي كان ملكاً على يهوذا وعلى الجليل سنة (٣٩ ق.م).

وإذا أردنـــا فحـــص اللغة العبرية الآن فإننا نجد حوالي ثلث مفرداتها من اللغة العربـــية الحديـــثة، وثلثاً آخر جاءها من الآرامية أو اللغة العربية القديمة والثلث الباقي مفـــردات أوروبية حديثة جاءتها من الإنكليزية / الفرنسية / الألمانية / الروسية، ومثل هـــذه اللغـــة الخليطة تماماً، تدلل على أنها لغة تفاهمية، ليس لها عمق حضاري وتراثي، لكـــن طـــريقة تشكيل اللغة العبرية كانت تجربة لليهود في تشكيل لغتين في أوروبا، استعملت من قبلهم واعتبرتا لغة الفن والأدب وهما(**):

(*) أدولـــف أرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة د. عبدالمنعم أبو بكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ص١٩٧ – ١٩٨.

(**) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص٢٥٢.

١. **اليديش**: وهي لغة استعملها اليهود وسط وشرق أوروبا ثم انتقلت مع المهاجرين مـــن أوروبا إلى الولايات المتحدة، وتعود أصول "اليديش" إلى العصور الوسطى وأساســـها العبرية، وقد استعملت الأحرف الهجائية (العبرية) في كتابتها وتكتب من اليمين إلى اليسار.

٢. **اللغة اليهودية، الأسبانية**، وهي تتضمن عدداً من الكلمات العبرية، لكنها تعتمد بشكلها الأساسي على الأسبانية القديمة كما تكتب من اليمين إلى اليسار.

ويلاحـــظ بأن وجود العبران في الشتات(*) دفعهم للحديث والكتابة بلغة البلد الحاضـــن لهم وعند الهجرة ساهمت لغاتهم الأصلية في تطعيم اللغة الأخيرة، و لم تستطع العـــبرية الصمود أمام هذا الغزو و لم تقدر حماية عناصرها اللسانية، لأنها لغة حديثة، لم تـــتوفر لهـــا خصـــائص اللغات الحية القديمة و لم تكن لغة ذات عمق كبير ومثلما قال الأستاذ جودت السعد، بأنها لغة تفاهمية وليس لها عمق حضاري. لذا فإن إضفاء صفة القداســـة عـــلى اللغـــة العبرية وبالشكل الذي قال به شمعون بيريز فيه مغالاة وتطرف ومجافـــاة للحقـــيقة الألســـنية. وهذا لا يمنعنا من القول بأن اللغة العبرية لغة عقلانية / استدلالية للظروف الموضوعية السائدة في بلدان الشتات.

ولهذه الملاحظات، فإن الفرد العبري في حالة كهذه، لم يكن فرداً مبدعاً وخلاقاً لتراكيب جديدة وإنما هو ناقل ومرحِّل، و لم يساهم بوعي في تطوير لغته، لأنها كانت وظلت لغة الأسطورة في لغة ديانة مقدسة. ولا يجوز لأحد التجاوز عليها والمساس بها، إضافة إلى هذا كله، أجد ضرورة الإشارة إلى الأصول الأولى التي لم تساهم – حتماً – في صياغة وبلورة اللغة التداولية. لغة الكتابة والمدونات، فهل يمكن للغة العبرية – الآن – أن تدير ظهرها لجذورها وأصولها؟ لا.. لأنها – الأصول – تدخل وبقوة في صياغة

(*) جودت السعد، أوهام التاريخ اليودي، سبق ذكره، ص٢٥٢.

اللغة وتساهم في تطوراتها وتلعب دوراً خطيراً في تغيراتها الماسة التي تستدعيها الضرورة والموضوعية، لذا لا تستطيع اللغة العبرية معادرة محيطها الميثي / العقائدي.

إن العبران منحوا لغتهم الهجينة صفة القداسة، ليتساووا مع العرب مثلاً، لأن لغة العرب نزل بها القرآن الكريم، وهي لغة أطلق عليها السلف والتقليد صفة القداسة، وقاد هذا إلى إشكالات كثيرة بين الدرس التقليدي / والدرس العلمي الحديث.

لقد استعان شمعون بيريز بالتوراة واستعاد مصطلح اللغة المقدسة التي أضافها رجال الدين والكهنة، وذلك لأسباب معروفة وضاغطة، تقلل من إحساس العبران بالهامش الذي عاشوه طويلاً، وسط حضارات متقدمة وصاعدة، لكننا لا نعثر أبداً على نص واحد في التوراة، يشير إلى وجود لغة عبرية. والنص الوارد في التوارة:

"وقال الياقيم بن حلقيا وشبنة ويؤاخ لريشا في كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودي على مسامع الشعب الذي على السور".

الملوك الثاني: ١٨: ٢٦

والريشا في كما تذكر التوراة، هي في لخيش "تل الدوير"(*). وبذلك تتوضح الصورة لأن لخيش تقع فرب منطقة يهودا ومحاذية لها وسكانها لابد أن يكونوا من الكنعانيين كما هو الحال في يهوذا، فإذا صحت رواية التوراة وتحدث الريشا في بلغة، غير الآرمية فستكون اللغة الكنعانية وهي لغة منطقة يهوذا الكنعانية، أما أن تتحول الكنعانية في يهوذا إلى العبرية لدى كثير من لكتاب فأمر يبتعد عن الدقة الموضوعية.

لا ندري لم هذا الإلحاح على قداسة اللغة العبرية واعتبارها عاملاً مركزياً ومهيمناً في تشكل دولة إسرائيل، ولولاها لما كان الذي هو حاصل، والحاجة إلى هذا

(*) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص٢٠٨.

المدار والحديث عن اللغة بهذه الطريقة الحماسية، واعتبارها ذات صفات خاصة، قدسية وتنفرد بها العبرية. وقال شمعون بيريز:

كـــان أحـــد أسباب عودتنا إلى أرض الوطن عودة إلى اللغة. لم يكن بإمكاننا تصور عودة بدون لغة.. إن الحياة اليهودية تمت بالعبرية وكان التدريس باللغة العبرية، كمـــا كـــان الحال في مدرستي في الشتات". وواضح من الجواب، طغيان الرومانسية والشـــعرية في المفاهيم التي تعوم الفكرة الأساسية، ذات الصلة باللغة وصفتها القدسية وكيف حازت عليها؟ ويبدو لي بأن صياغات روبرت ليتل، هي التي لعبت لعبتها الفنية الـــتي أشـــرنا لها قبلاً. وهل فعلاً كان الحنين إلى "اللغة" العبرية هو الذي دفع بهم إلى العـــودة إلى الوطـــن؟ وكان التفكير بالوطن، هو تفكير بأهمية اللغة لديه. وهو وطن تعـــددت اللغـــات فـــيه، ولم تكن "اللغة" العبرية لغة معروفة في فلسطين، وإنما اللغة الكنعانـــية، وتعددت في السنوات اللاحقة وصارت فلسطين حاضنة لعدد من اللغات. ولا أدري هـــل هـــناك علاقـــة حميمة بين اللغة وفلسطين؟ ولو لم تكن العودة، فماذا سيكون مصير حلمهم اللساني؟ وماذا سيترتب على العبران الذين يتحدثون لغة اليديش إلى الآن؟ هـــل فقـــدوا عنصراً قومياً وعنصراً دينياً؟ وهم ما زالوا إلى الآن يكتبون بها تـــاريخهم العـــبري واليهودي، ويجسدون طموحاتهم وأحلامهم؟ إلا أن السيد شمعون بيريـــز قصد من وراء ذلك بلورة مفهوم فكري جديد، وهو اقتران الشتات مع فكرة الاضـــطهاد "والهولوكســـت" لأن الشتات عرضهم للموت الحقيقي والنفسي، مثلما يدفـــع بهم نحو لغة اليديش ويحاول يقصيهم بعيداً عن "اللغة" العبرية ولهذا جاء التركيز في حديـــثه على الإشارة إلى أن الاحتلال تزامن أيضاً مع ولادة، أو إيقاظ لغة جديدة وقديمة، وهذا يفوض اللغة على الدخول واجتياح مكان يساعدها على التبلور أكثر مما كانت عليه في الخارج / الشتات ويمثل كلام شمعون بيريز هذا محاولة منه لنفي الحقائق التاريخـــية المـــتعلقة بجذور تشكلهم وأصول ديانتهم ومكان ديانتهم ومكان وجودهم

الأول، حيث يبدو واضحاً للقراءة الدقيقة دلالة ما يقصده بيريز في رطبه ما بين الأرض المقدسة واللغة، من قداسة الأرض، حازت اللغة قداسة، على من أنها لم تكن مرتبطة بفلسطين ومقترنة بها ولا يوجد أساس تاريخي بينهما، وتأكيد بيريز على اللغة والوجود العبيري في كنعان، يكشف للمتابع زيف هذا الادعاء وينفي حيازة اللغة على قدسية ما.

لا نعتقد بوجود لغة مقدسة. والقداسة للمعنى الذي تنطوي عليه اللغة، باعتبارها نظاماً لغوياً ينتج مجموعة من النصوص حازت شرط قداسة، لأنها تزاول في الطقوس والشعائر وذلك لأنها — النصوص بالمفهوم السيميائي — لا تنفك عن النظام اللغوي العام للثقافة التي تنتمي إليها — كما قال د. نصر حامد أبو زيد. ولا ندري كيف تتطور اللغة العبرية وهي لم تحز على شرطها الموضوعي / التطوري وذلك بسبب تنوع اللسان واتساع المعجم وتنوعه. وهي لا تستطيع(*) إبداع شفراتها الخاصة التي تعيد بناء عناصر النظام الدلالي الأصلي من جديد، وتقاس أصالة النصوص وتتحدد درجة إبداعيتها بما تحدثه من تطور في النظام اللغوي وما تحققه نتيجة لذلك من تطور في الثقافة والواقع معاً، وعلى ذلك يمكن القول إن النصوص ترتبط بواقعها اللغوي / الثقافي، فتتشكل به من جهة وتبدع شفرتها الخاصة التي تعيد بها تشيكل اللغة والثقافة من جهة أخرى.

إذا رجعنا إلى التسلسل التاريخي منذ خروج موسى(**) والموسويين والذي لا يوجد أي دليل أو نص يشكك في أنهم مصريون، فإن اللغة التي كانوا يتحدثون لابد، أن تكون المصرية، فعندما استوطنوا فلسطين تحدثوا الكنعانية،كما تؤكد التوراة على

(*) د. نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سبق ذكره، ص١٩٤.

(**) جودت السعد ، أوهام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص٢٠٩.

ذلك، ولما وقع السبي(*) بعد احتلال السامرة في القرن السابع ق.م وكانت الآرامية تعم وتسيطر في منطقة الشرق الأدنى، وبشكل خاص في بلاد آشور، فتعملها هؤلاء، وتحدثوا بها وترسخت هذه اللغة أثناء السبي البابلي / والاحتلال الفارسي، لذا كتبت التوراة أول مرة بالآرامية واعتبرت "اللغة المقدسة" ونقل الحرف الأرامي "المربع" ليكون أبجدية "اللغة المقدسة" هذه. وعندما عاد عزرا إلى فلسطين حاملاً معه التوراة المكتوبة في بابل بالآرامية احتاج إلى توضيح هذه الكتابة عند قراءته للنصوص – كما تشير التوراة على ذلك – أمام أتباعه. وقد ترجمت النصوص من الآرامية إلى اليونانية. وهي الترجمة المسماة بالسبعونية، ومنها ترجمت إلى اللهجة الآرامية، التي اختير لها اسم "اللغة العبرية" أثناء حكم اليونان وبالذات فترة المكابين، والدليل على ذلك عدم وجود أي نص باللغة العبرانية، قبل الفترة المكابية.

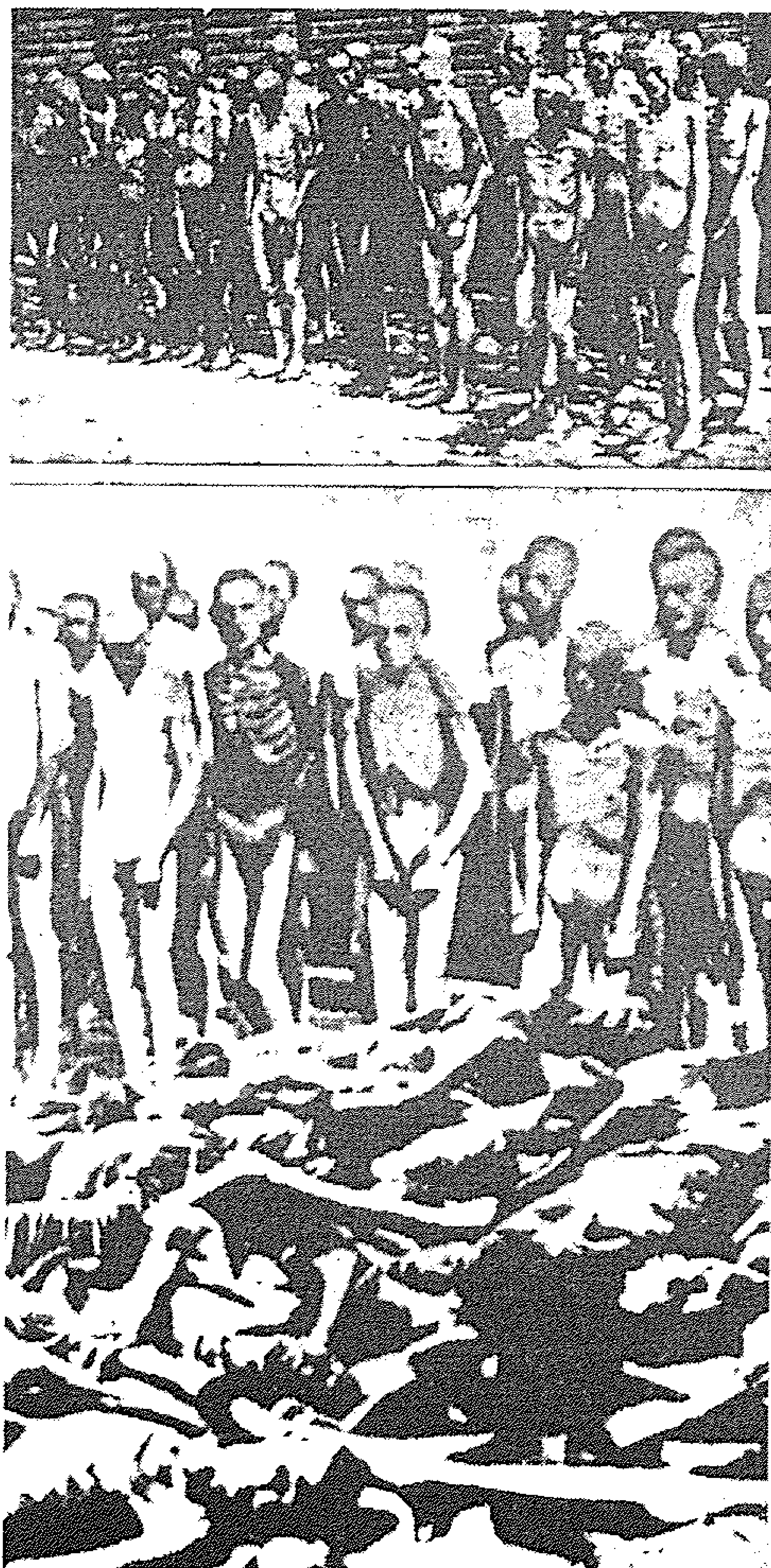
إن اليهود لم يتركوا أي كيان سياسي / يهودي خاص(**) بهم في تاريخ فلسطين القديم، ولكنهم تركوا ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من تراث كنعاني وبابلي وآرامي، وأن عهد الملوك بما فيه عهد داود وسليمان كان عهداً كنعانياً بحضارته ولغته وثقافته، وفشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة في فلسطين، يرجع إلى عوامل كثيرة من أهمها في نظرنا عاملان أولهما، هو أن الكيان اليهودي لم يقع على أساس قومي راسخ أصيل بثقافته ولغته وتقاليده ووطنه. لأن اليهود لم يملكوا(***) أي تراث خاص بهم، فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة وديانة وتقاليد، وعادات مقتبس من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. كما لم يكن لهم وطن إذ كانوا غرباء طارئين على فلسطين وكيانهم قائم على الدين، والدين وحده. والدين عرضة للتغيّر والتبدل

(*) سبق ذكره، ص٢٠٩.

(**) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٠، ٦٢٠.

(***) أحمد سوسة، سبق ذكره، ص٦٢٠.

على خلاف ما هي عليه القومية من ثبات لاستنادها إلى ثقافة ولغة واحدة وطن ثابت. أمـــا العـــامل الثاني فهو أن كيان إسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته وتقاليده وحكمه عاش في أرض فلسطين منذ خمسة آلاف عام. وقد جاء اليهود عازمين على طرد هذا الشعب من دياره وأخذ حقه، زاعمين أن إلههـــم "يهـــوه" أمـــرهم أن يبيدوا هذا الشعب وأن يحلّوا محله وأن الرب وعدهم أنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم.



شكل (٢٧): في الأعلى صورة حقيقية في الأسفل صورة مزورة

٣. العرق والجنس

ذكر شمعون بيريز في حوار مع روبرت ليتل(*) يجب على المرء العودة إلى العقيدة اليهودية، فقد أدعى بن غوريون وأنا وافقته على ذلك من أن اليهودية ليست دين وعقيدة، لأن في الدين تسلسل هرمي للسلطة. فهناك الرب وهناك الوكيل (الوسيط) والتركيب ككل، في حين لا يوجد هناك وساطة بين اليهود والرب حيث نعترف به ككل. فاليهودية دين شامل ومتكامل، وتحتوي الديانة اليهودية على وصاية والتزامات معترف بها، تعترف بوجود الله ، وتعتقد بوجود لغة واحدة معينة، هي اللغة العبرية، وتكرس نفسها لأرض معينة هي إسرائيل. لذلك لا يوجد هناك فرق بين الدولة والنظام الديني أو الالتزام الجغرافي واللغة. والتاريخ فجميعها، يعتبر التزاماً كلياً (حسب المفهوم اليهودي).

وأشار السيد شمعون بيريز مراراً إلى أن الدين يعني العرق أو الجنس، وأكد وبقوة على العداء الكامن في نفوس العرب ضد اليهود، موحداً بينهم وبين العرق وهذا خطأ فاضح، والسيد بيريز يعرف ذلك جيداً ويدركه، لكنه مثل غيره من زعماء

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، حوارات مع شمعون بيرز، ت: محمد نجار، تقديم: ناجح العموري، الأهلية للنشر، عمان، ٢٠٠٠، ص٤٨.

الكــيان الصــهيوني، يؤكدون عليه ويستمرون بتغذيته في وسائل الإعلام وهو يعرف جــيداً بأن اليهودية ديانة، حازت على اسمها بعد الدخول إلى فلسطين، وبعد صعود مملكــة يهــوذا، بينما العرق العربي أقدم بكثير من هذا، والعبران يشكلون غصناً من شجرة الأقوام الجزيرية النازحة من الجزيرة العربية، ولذلك وقائع معروفة، ولا ضرورة للانشــغال بها الآن، فالعبران عاشوا ضمن عدد من القبائل، التي نزحت من الجزيرة، وهذا ما أشارت له التوراة بوضوح وصراحة تامة، مثلهم مثل أقوام كثيرة. نذكر منهم الكنعانيين / الآكاديين / والآراميين / والآموريين.. الخ.

ويؤمــن – تمامــاً – بيريز بالوحدة الموجودة / والضرورية بين الدين / اللغة / القومية / وكلها تصوغ شخصية اليهودي، حيث لا يمكن لليهودي – كما قال بيريز – أن يظــل يهوديــاً مــن دون التحدث بالعبرية. هذا هو مفهومنا الحالي، ولا يمكن لليهودي، أن يكون يهودياً بدون الاعتقاد بإله واحد موجود في السماء، وإذا لم تعش في دولــة الشعب اليهودي حيث ولدت اليهودية. وهذا المفهوم يمنح جواً من القداسة للأرض، للقدس بشكل خاص وغيرها من الأماكن. لذلك لم تكن هناك حاجة لمأوى فقــط، ولكن للعودة إلى الوطن. لقد حاولوا أيضاً إنشاء دولة يهودية في روسيا. دولة يهودية لا دينية. لكن ستالين أفشل ذلك.

ويــتطرف بيريز أكثر بموقف تجاه اللغة(*)، حيث لا وجود لديانة حقيقية بدون لغة عبرية. لأنها كانت لغة الصلاة عند اليهود المتدينين، فإنك تصلي بالعبرية فقط، ولا تستخدمها أو تتحدث بها في حياتك اليومية. كانت في الحقيقة لغة مقدسة، لا يجب أن تستخدم في الأمور اليومية.

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، ص٤٠.

ويصعد الإحساس بالكراهية والحقد على العرب، ويصرح به في أكثر من موقع، وأستذكر جريمة قتل يهودي في منطقة فيشنيفا على يد سفاحين مناهضين للسامية. وعندما جاء إلى فلسطين، قتل شخص يهودي، على أيدي العرب. في غابة هرتزل بالقرب من مستوطنة بن شمين. وكان بيريز يشعر بان البغض والكراهية ينبعثان من الوجوه العربية وأضاف بيريز قائلاً: وكان هناك فرق شاسع ما بين عمليتي القتل. ففي "فيشنيفا" شعرت بالضعف لأني كنت بعمر أصغر وأحسست بأننا ضحايا، وكانت عملية القتل صدمة مفزعة، حيث لم نكن قادرين على الدفاع عن أنفسنا و لم نكن نثق بشرطة الغرباء، لذلك كنا نتعرض لمثل هذا الخطر أما في "بن شمين" فالأمر مختلف، لدينا بنادق لأننا كنا نعتقد بأن العرب عنيفون، إلا أننا لم نكن ضعفاء أو عاجزين. كنت أنا نفسي حينذاك قد أديت قسم الانضمام إلى الهاغانا وكنت متسلحاً ببندقية أقوم بمهمة الحراسة طيلة الليل. لذلك فإن الشعور مختلف بالتأكيد. لقد كنا متأهبين، ويصعد صوته العدواني ضد العرب (لم يشكل العرب أهمية. ولا أحد يعتبرهم و لم يكن الناس يفكرون بهم) هذا موقف قديم قاله زعماء الصهيونية من قبل ويكاد موقفهم في تجاهل العرب يكاد يكون عاماً في صفوف المنظمات الصهيونية.

وأضفى بيريز قداسة مطلقة على اللغة العبرية لصلتها بالطقوس والعبادات، بحث تظل – العبرية – هي العنصر الأساس الذي يصوغ ويبلور شخصية اليهودي ويؤكد بأن أحد أسباب عودتهم إلى فلسطين، هي اللغة العبرية واعتبرها لغة أم. والعودة إلى الوطن، عودة إلى اللغة، و لم يكن تصور عودة إلى الأرض من دون الرجوع إلى اللغة. أرض مقدسة ولغة مقدسة. أضف إلى ذلك كانت وما زالت العبرية لغة الصلاة، كما أن إحياء الحياة العبرية تحقق باللغة العبرية.. والحدة الواضحة في التمايز، تمثل مجالاً لكل الزعماء اليهود وكأنهم أخذوا الكثير من العناصر الهتلرية التي عرفتها النازية وعلمته للشباب. مثل موضوعة ألمانيا الكبرى / والعرق النقي / وضرورة الحفاظ على النقاوة

والابـــتعاد عن الأجناس الأخرى. الخ لقد تبلور موقف عرقي / عنصري لدى اليهود، وقـــد بلـــغ هذا التطرف حداً لا مثيل له، في تصريح الشاعر الألماني / اليهودي هانيي عـــندما قـــال: منذ بدء الهجرة الجماعية، أصبحت الحرية تتحدث بلهجة عبرية على الدوام".

وعلى الرغم من الحماس العاطفي تجاه اللغة العبرية فإن شمعون بيريز، يؤكد من خلال حماسه هذا، موقفه الفكري المعارض / والمختلف مع الفئات المثقفة التي أشارت للوظيفة الدينية فقط التي يجب أن تتمتع بها اللغة العبرية، والتعامل وإياها باعتبارها لغة الصلاة فقط، ولا يمكن أو لا يفضل استعمالها في الحياة اليومية. وتستعير هذه الفئات / وهـــي الدينية — صفة اللغة العبرية التي أطلقها اليهود وهي القداسة — وتوظفها لخدمة أفكارهـــا، وبما أن اللغة العبرية ذات صفات مقدسة، فلا يجوز الاستعانة بها في التبادل اليومي والاتصال الاعتيادي.

وإنما الاكتفاء بالديني / المقدس، وهو الوحيد الذي يسمو باللغة العبرية ويصعد بها، مثلما تضفي عليه مسحة خاصة، هي العلاقة العميقة معه. ولذا فإن اللغة هي دين عـــند اليهود ومن لا يجيد اللغة العبرية، لم يجز على ديانته الحقيقية، وسيظل دينه / أو يهوديته ناقصة أو قاصرة عن الوصول إلى المرتبة التي يجب أن تكون عليها.

وهذا الرأي يمثله بشكل واضح "اليعازر بن يهودا" وهو الذي أسس وأحيا اللغة العبرية، وقد ناء بنفسه عن استخدام اللغة العبرية في الحياة اليومية، لأنها مقدسة.

والحمـــاس الذي أبداه شمعون بيريز للغة العبرية هو ذاته حماس الرعيل الأول — ديفـــيد بن غوريون مثلاً — لأن غير العبرية، يذكرهم بالشتات والابتعاد عن "الوطن!" كمـــا يقولـــون.. لذا فإن بن غوريون في مؤتمر للهستدروت عام ١٩٤٥ صرخ بوجه أحـــد المتحدثين باللغة البيدية قائلاً: إن اللغة البيدية، لغة أجنبية / ومنقرضة والحماس

نحـــو العـــبرية يعني ابتعاداً عن لغة البيديش واللغات الأخرى التي عرفوها في الشتات. وهذا ما أثاره روبرت ليتل مع شمعون بيريز الذي قال(*):

نعم يجب أن تفهم شيئاً. كان يعتبر نموذجياً جداً وعميقاً لدى بن غوريون، لأنه لم يغفـــر أبداً للتاريخ اليهودي لأنه كان يعيش في المنفى، فالمنفى كان شيئاً مخجلاً في نظره. فالألف عام التي كنا فيها في الشتات – مبتعدين عن الأرض المقدسة – لم نتخل فيها عن أرضنا فقط بل إننا نسينا عادات بغيضة، وهذا قد أفسد الشخصية اليهودية. فاللغـــة البـــيدية كانت رمزاً للشتات، والمنفى. لذلك فإن النضال لم يكن ضد اللغة فحســـب، وإنما ضد كل شيء يمثل الشتات والمنفى. في البداية أرادوا استخدام اللغة البيدية لغة رسمية في إسرائيل. بيد أن بن غوريون انفجر وعارض ملتهباً. وكانت هناك منظمة تدعى البوندا – وأعتقد أنه إما تروتسكي أو لينين، لا أذكر أي منهما – ، قال مرة:

كـــان صهاينة البوندا يخافون دوار البحر وليس عبوره كما أنهم يخشون اجتياز عائق اللغة.



شكل (٢٨): موسى مهدداً بالألواح في سيناء تخطيط تخيلي للفنان ثامر عبدالله

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، ص٤١.

٤. "الهولوكست" أو القربان الجماعي

الهولوكست: كلمة يونانية تعني "حرق القربان الكامل" وكانت في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُقدم للرب على سبيل التضحية ثم يحرق تماماً على المذبح، وهو طقس من أكثر الطقوس قداسة لدى اليهود. وفي العصر الحديث أصبحت الكلمة تشير إلى عملية "إبادة" اليهود على أيدي النازيين وربما كان المقصود من استخدام الكلمة على هذا النحو هو تشبيه "الشعب اليهودي" بالقربان والذي حُرق تماماً لأنه أكثر الشعوب قداسة – محمد هشام – .

سأله روبرت ليتل قائلاً:

أريد إثارة موضوع مؤلم، وهو المحرقة. اعتاد الرئيس الأسبق رزوفلت توجيه خطاب منتظم أبان الحرب العالمية الثانية من المذياع، وعُرف بحديث المدفأة في كل أسبوع ولغاية ما توفي من دون أن يذكر "اليهود" ولو بكلمة واحدة. وفي ٣٠ / ٦ / ١٩٤٠ نشرت صحيفة نيويورك تايمز والتي يمتلكها اليهود، رواية مؤلفه من ست فقرات وعلى صحفتها السابعة، وتحت عنوان "تقول التقارير بأن النازيين ذبحوا مليون يهودي "وهي حقيقة أسفت لها صحيفة نيويورك تايمز بمرارة".

هــذا الموضوع، هو أخطر ما استثمرته الحركة الصهيونية في التاريخ المعاصر، وبالغت كثيراً في حجم الاضطهاد والإبادة، لأنها أدركت بأن الفرصة الحقيقية والتي لن تعـود هـي تهمة الإبادة الموجهة للنازية، لأن الصهيونية وبقدراتها الضخمة، في كل المجـالات، لعبـت دوراً أساسياً في الترويج لذلك وبتهمة العداء للسامية، كي تحقق هدفهـا المركـزي، وحلمها التاريخي في أرض فلسطين. ولهذا روجت الصهيونية وما زالت لتلك التهمة، وحققت بسببها أحلاماً كثيرة وحازت على عطف دول كثيرة في العالم، ولهذا صارت تهمة الإبادة مقياساً لمعرفة إنسانية أي بلد من البلدان.

صحيح أن أعداداً كبيرة من يهود أوروبا كانت من بين ضحايا الحرب العالمية الثانـية. فقـد طحنت هذه الحرب حوالي خمسين مليون إنسان معظمهم من المدنيين. والـذي يـتابع مجريات هذه الحرب يستغرب التركيز على ضحاياها من اليهود فقط، دون اعتبار لضحاياها من الآخرين.

والمعروف أن معسكرات الاعتقال النازية(*) لم تكن لليهود فقط بل كان يرسل إلـيها كل من يعادي النازية والاحتلال النازي بما في ذلك المواطنين الألمان، ويتبين من سجلات معسكر "داخاو" مثلاً أن ضحاياه كانوا من "٢٩" جنسية مختلفة. ويقدر أن حـوالي ثلـثمائة ألف "نوري" قد ماتوا في هذه المعسكرات دون أن يذكرهم أحد.، ومعسـكرات الاعتقال النازية كانت في حقيقتها مجمعات لأعمال السخرة الإجبارية. وكـان الذين يرسلون إليها يعملون في دعم آلة الحرب النازية لأن شباب ألمانيا وقواها العاملة، كانت تحارب على جميع الجهات، حتى أن الألمان جندوا الأطفال "شبيبر هتلر" في سـنوات الحـرب الأخيرة لحاجتهم إلى الجنود ولتعويض خسائرهم البشرية على جبهات القتال.

(*) غـازي السـعودي، المحرقة النازرية: الأسطورة التي تحولت إلى منجم للذهب، جريدة الرأي الأردنية، ٤/٥/ ٢٠٠٠.

إن العـــدد المـــبالغ فـــيه للضـــحايا الـــيهود، هو واحدة من عناصر أسطورة الهولوكست خلال نصف قرن. وما يؤكد أسطورة المجزرة هو أن العدد الكلي لليهود في ألمانـــيا عام ١٩٣٩ لم يزد عن ٢١٠ ألف، إلا أنهم(*) كانوا يسيطرون على مختلف الفعاليات الاقتصادية بما في ذلك دور النشر والجامعات الألمانية. وكانوا يعيشون حياة مـــترفة وسط الألمان الجياع والعاطلين عن العمل، وعند قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ كـــان هـــناك واحد وعشرون ألف معتقل في المعسكرات النازية، ومعظمهم كـــانوا مـــن الشيوعيين أو الاشتراكيين المعادين للنازية إضافة إلى العاهرات والمخنثين والـــنوّر وبعض الفئات من محترفي الإجرام وقلة من اليهود، وبعد وقوع الحرب وغزو أوروبـــا، بـــدأ الألمـــان في إرسال أسرى الحرب خاصة أفراد المقاومة من البولنديين واليوغسلاف والروس إلى هذه المعتقلات وان معظمهم من المسيحيين الكاثوليك ومع ازدياد(**) المقاومة ضد الاحتلال النازي، ارتفع عدد المعتقلين في هذه المعسكرات إلى "٨٨" ألفـــاً عـــام ١٩٤٢ وإلى "٢٢٤" ألفـــاً في آب ١٩٤٢ ثم إلى "٥٢٤" ألفاً عام ١٩٤٤. ومـــع نهاية الحرب عام ١٩٤٥ كان هناك "٧١٤" ألفاً يعملون لصالح المجهود الحـــربي الألماني كعمال سخرة. وكان هؤلاء المعتقلون موزعين على "٢٠" معسكراً في مخـــتلف المـــناطق الواقعة تحت الاحتلال النازي، ولا يعرف عدد الذين ماتوا في هذه المعســـكرات، ويقدر عددهم بمئات الألوف من بين ضحايا الحرب العالمية الثانية البالغ عددهم "٥٠" مليوناً ويتضح من شهادات الناجين من معسكرات الاعتقال النازية بأن معظـــم الذين ماتوا فيها كان بسبب الجوع والبرد والأمراض المعدية وخاصة التيفوئيد

(*) غازي السعودي، المحرقة النازية، سبق ذكره\ يوم ٥/٤/٢٠٠٠.

(**) غازي السعودي، سبق ذكره، يوم ٥/٤/٢٠٠٠.

والحصبة والجدري. وورد ضمن إحصائية أجراها "أوسوالد بول" لعناية السيد هيملر(*) بأن العدد الإجمالي للوفيات بين الأول من تموز ١٩٤٢ و٣٠ تموز ١٩٤٣ هو: "٥٢٤" ألفـاً وأغلب الوفيات كان سببها الأوبئة كالتيفوئيد الطفحي أو النمشي، وهي إحدى أنـواع الحمـى التيفوئـيدية التي ينقلها القمل وكانت مخيفة جداً، وبشكل خاص في المعسـكرات الـتي لا تتوفر فيها ظروف صحية مناسبة. وكانت السلطات تستخدم، لمكافحـة الحشـرات الضـارة، مبـيداً للحشرات باسم "زيكلون ب" الذي حوله "الإبـاديون" دعاة أطروحة الإبادة بالغازات إلى وسيلة لاستئصال الجنس البشري أو الكائنات الإنسانية.

ومـنذ أن أسس(**) "هتلر" حزبه القومي الاشتراكي، لم يقتصر على السعي إلى استئصـال شأفة الشيوعية فحسب، بل وضع نصب عينيه أيضاً طرد اليهود من ألمانيا أولاً، ثم من أوروبا عندما بسط سيطرته عليها. وقد استعان "هتلر" انطلاقاً من نظريته العرقـية حول تفوق "العرق الآري" فضلاً عن أنه يرى على الدوام أن ثمة تطابقاً بين الـيهود والشيوعية التي اعتبرها العدو الأساسي (وليس على ذلك من آلاف الشيوعيين الألمـان الذين أعدموا، فضلاً عن ممارسات هتلر الوحشية في حق الأسرى "السلاف" خـلال الحـرب واسـتناداً إلى هـذه الرؤية، استحدث هتلر مصطلح "البلشفية" أو "الشيوعية" اليهودية.

(*) يورغـن غـراف، المذبحة تحت المجهر، دارسة علمية لفضح أكاذيب الصهيونية، ت: جواد بشارة، دتار المدى، دمشق، ١٩٩٥، ص٣٤.

(**) روجـيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسية الإسرائيلية، ت: محمد هشام دار الشروق، عمان، ص٢٠٢، ١٩٩٨.

أما المحصلة المريرة لضحايا الوحشية الهتلرية على المستويين السياسي / والعرقي فهي(*) أسفرت الحرب العالمية الثانية عن مقتل (٥٠) مليوناً من البشر، من بينهم(١٧) مليوناً من مواطن الاتحاد السوفيتي وتسعة ملايين من الألمان، كما تكبدت بولندا، وغيرها من بلدان أوروبا التي احتلها النازيون، ملايين القتلى، ومثلهم الملايين من جنود بلدان أفريقيا وآسيا، والذين جُندوا وزُج بهم في هذه الحرب التي نشبت مثل سابقتها، الحرب العالمية الأولى، نتيجة صراعات بين الدول الغربية. لم تكن الهجمة النازية إذن مجرد (مذبحة) واسعة النطاق، استهدفت اليهود في المقام الأول، أو استهدفتهم وحدهم، وهو الأمر الذي تحاول بعض الدعايات أن ترغمنا على تصديقه، بل كانت بالأحرى كارثة إنسانية، إلا أن ثمة سوابق عديدة لها... صارت أسطورة / خرافة إبادة اليهود هي الشغل الشاغل للعالم كله، فالحديث عنها باعتبارها عملية إبادة جماعية في التاريخ، يعني بالنسبة للاستعماريين الغربيين نسيان الجرائم التي اقترفوها (مثل إبادة الهنود الحمر في أمريكا واستعباد سكان أفريقيا) كما كان يعني إخفاء عمليات القمع الوحشية التي ارتكبها ستالين.

وكان الأمر ضرورياً بالنسبة(**) للقادة الإنجليز والأمريكان، ولا سيما بعد مذبحة دريسدن في فبراير / شباط ١٩٤٥ والتي راح ضحيتها نحو ٢٠٠ ألف مدني ممن قتلوا حرقاً بالقنابل الفوسفورية في غضون سويعات، وذلك دون أن يكون هناك أي هدف عسكري من وراء ذلك. حيث كانت القوات الألمانية قد انسحبت من الجبهة الشرقية بأكملها أمام التقدم الساحق والسريع للقوات السوفيتية.

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٢٠٣.

(**) ن.م، ص٢٠٤.

أمـــا الولايات المتحدة الأمريكية، فقد وجدت هي الأخرى فرصة سانحة لإبعاد الأنظـــار عـــن واقعة إلقاء الذريتين على هيروشيما ونجازاكي، مما أسفر عن مصرع ما يزيد عن ٢٠٠ ألف شخص، بالإضافة إلى ١٥٠ ألف جريح.

ويؤكد يورغن غراف حصول الكثير من الوفيات بسبب الأوبئة، بحيث تحولت تلـــك الوقـــائع / والأحـــداث إلى ما يشبه الأساطير. وكانت أسوأ الفترات وأصعب الأوقـــات العصيبة للمعسكرات هي صيف وخريف عام ١٩٤٢. فخلال تلك الأشهر كـــان وباء التيفوئيد في أوشفتيتز، يقتل أويميت أكثر من "٣٠٠" شخص يومياً. وقد أوقـــع الوباء ضحايا من بين أفراد الأس الألمانية وفي داخل مجمعٍ "أوو شفيتنر" سُجلت أغلـــب الوفـــيات في "بيركنو" الواقع على بعد ثلاثة كم إلى غرب المعسكر الأساسي والـــذي كان يستخدمك كمعسكر لاحتواء المرض وللعلاج وفي بعض الفترات كان يموت في معسكر "بريكنو" ما يفوق عدد الموتى في كافة المعسكرات الأخرى مجتمعة. وقـــد جعلـــت الأسطورة التي شاعت فيما بعد عن "معسكر الموت هذا" — معسكر بريكـــنو — الـــذي مات فيه حوالي ٨٠ ألفاً إلى ١٠٠ ألف معتقل، أغلبهم من المرض الميئوس منهم.

قـــادت المذابـــح النازية إلى نتيجة، كانت هي المسعى النهائي وراء كل تلك الضـــجة الـــتي لما تزل مستمرة إلى الآن، ومنحت العبران وطناً لهم في فلسطين، مثلما حصـــل اعـــتراف واضـــح بإســـرائيل وبحقها في فلسطين. ونجح العبران بعد تصعيد التراجـــيديا وتـــنامي العطـــف عليهم أن يعترفوا بحقهم في الحياة والعيش بأمان داخل فلسطين، هذه الأرض التي هي حلمهم، وحتى لا تتكرر هذه "المأساة" ثانية في التاريخ البشـــري المعاصر، نجد اللعنة الصهيونية ما زالت تلاحق الضمير الإنساني، لأنه سكت في البداية و لم يوفر فرصة لشعب الشتات الذي فقد تدريجياً عناصره كشعب، وبدأت المؤسســـة الصـــهيونية تمنحه تلك العناصر شيئاً فشيئاً، وعليه يجب أن يتعامل الضمير

الإنســاني والإرادة البشرية مع العبران باعتبارهم فداء ويمثلون قرباناً جماعياً. فإذا كان المســيح مــن خــلال جسده يمثل التضحية التي كفت الجنس البشري عن التضحية والتقدمات فإن الهولوكوست "القربان الجماعي" هو التعويض للمكان العائد، مكانهم المقــدس فلســطين. ولم يعد العبران إلى فلسطين إلا بعد تضحيات جسيمة وهذا ما اشتغلت عليه البنية الذهنية / الفكرية / الصهيونية.

لقــد وجدت الصهيونية، بالهولوكست مجالها الذي يجب الإمساك به حتى الأبد والاشــتغال عــلى هذه الأسطورة وبالقدرات الإعلامية / الفنية / المتنوعة / من أجل الإبقاء على أسطورة المجزرة حية في الأذهان، وحتى يتمكن اليهود في العالم الاستمرار بالابــتزاز والحصول على التعويضات والإبقاء على لعنة اليهود، ملاحقة للألمان، وكم من المبالغ الهائلة قدمت تكفيراً عن الآثار النفسية للمجزرة التي إلى الآن تلاحق الألمان، ولم يســتطيعوا الدفــاع عن أنفسهم والاستفادة من الوثائق والحقائق العلمية التي تم التوصــل إليها لاحقاً – وكأنهم يخشون ردود الفعل الصهيوني. والعزف المستمر على وتر الهولوكوست يفوضهم الإبقاء على الأرض المغتصبة والتي وهبها الإله اليهودي لهم وعلى شعوب العالم مناصرة اليهود والاصطفاف معهم.

لقــد دفع النازيون إلى أقصى الحدود الدقة الألمانية الشهيرة، فكل شيء مدوّن ومُسجل بالضبط، كل شيء على الإطلاق. وبهذا أتيح الاحتفاظ بثلاثة آلاف طن من الوثــائق عــن الرايخ الثالث، بعض أعمال القتل المتعمد التي أمر بها هتلر شخصياً، قد تــأكدت صحتها بعد اختبارها بما لا يقبل الدحض خصوصاً "عملية الأوتونازي" أو قــتل المرضى الميئوس منهم وبما أن عملية بهذه الضخامة والأهمية، كعملية قتل ملايين الأشــخاص في غــرف الغــاز يجــب أن ترافق بالضرورة بجهاز إداري ضخم، فإننا مســتعدون للاعتقاد بوجود كم هائل من الوثائق حول الهولوكوست وفي الحقيقة لا نملك ولا وثيقة ألمانية واحدة تتعلق بخطة إبادة واستئصال لليهود. أو تخص غرف الغاز

الخاصة بالقتل المتعمد، عدا تلك التي تتعلق بمبيدات(*) القمل والحشرات الضارة الناقلة للأمراض والأوبئة.

ولقد تمثل استثمار(**) إسرائيل للمجزرة في مسارعتها إلى ابتزاز ألمانيا عام ١٩٤٩ والحصول على تعويضات لضحايا النازية اليهود، وقد توجت هذه الجهود بالوصول إلى اتفاقية التعويضات الألمانية عام ١٩٥٢ والتي مكنت إسرائيل من بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية في نصف قرن. واضطر الألمان للإذعان للمطالب الإسرائيلية، لمعرفتهم بمدى نفوذ اليهود في الولايات المتحدة وقد أورد مستشار ألمانيا "إيديناور" في مذكراته أنه وافق على دفع التعويضات من أجل حماية ألمانيا من الانتقام. فالألمان كانوا مهددين بما يعرف بمبدأ "مورغتاو" نسبة إلى وزير المالية الأمريكي / اليهودي، الذي دعا إلى إبقاء ألمانيا دولة زراعية ضعيفة / مجزأة. وحرمانها من أي نوع من الصناعة، وهكذا كانت التعويضات باهظة الثمن عرفت فيما بعد "مسألة قبول ألمانيا بين الأمم"، وعلى الرغم من هذه التعويضات فقد استمر التحريض الصهيوني ضد ألمانيا وشعبها وثقافتها حتى يومنا هذا عن طريق التذكير بالمحرقة والمزيد من الابتزاز، فقد أقيمت مراكز تذكارية لضحايا النازية في القدس ونيويورك وأوتا وأمستردام وغيرها من مدن العالم وكان آخرها المركز التذكاري في برلين ويعتبر الألمان هذا المركز استفزازاً لشعورهم وكبريائهم.

والمعروف بأن ألمانيا خسرت حوالي ستة ملايين شاب في(***) الحرب العالمية الثانية بين قتيل وجريح ومفقود، إضافة إلى ألوف الملايين الذين ماتوا بفعل الغارات الجوية للحلفاء، ففي درسدن الألمانية وحدها مات ما يزيد على ٣٠٠ ألف ألماني خلال أيام

(*) يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، ت: جواد بشارة، سبق ذكره، ص٤٦.

(**) د. غازي السعودي، المحرقة النازية، سبق ذكره، يوم ٥/٤/٢٠٠٠.

(***) غازي السعودي، شبق ذكره، يوم ٥/٤/٢٠٠٠.

قليلة نتيجة الغارات الجوية بالرغم من أن الحرب كانت قد انتهت عملياً وكانت ألمانيا على وشك الاستسلام و لم هناك داع لهذه المجزرة الانتقامية.

وظلت المؤسسة الصهيونية تغذي العداء ضد ألمانيا، وتجند كل وسائل الإعلام الصهيونية والمحكومة بالتعاطف مع اليهود في العالم، واستثمار الرساميل المخصصة من أجل ذلك ففي كتاب أساطير زماننا" صفحة ١٧٧ – ١٧٨ كتب إيلي فيزيل ما يلي:

"على كل يهودي أن يخصص في مكان ما في داخله منطقة للحقد – حقد سوي وصحي ورجولي – إزاء ما جسدته ومثلته ألمانيا وإزاء ما هو مستمر في ألمانيا، إن التصرف والتحرك خلاف ذلك سيكون بمثابة خيانة للموتى" وفي عام ١٩٨٦ منح إيلي فيزيل جائزة نوبل للسلام وباقتراح ٨٣ نائباً في البرلمان الألماني – بالذات – بوند ستاغ – أن منح هذه الجائزة كما يعتقد البرلمانيون الألمان يشكل تشجيعاً كبيراً لكل من ينخرط بمهمة واندفاع ونشاط لصالح عمليات المصالحة.

إن التزوير والأكاذيب، هي التي صاغت أسطورة الهولوكوست وخصوصاً في مجال الشهادات والمدونات. ولنقرأ ما قاله إيلي فيزيل عن شيء لم يكن موجوداً و لم يشاهد، وسيتضح بعد القراءة الخلط الكبير والتزوير الواضح في الشهادة ولهذا منح جائزة نوبل للسلام ومنحه للجائزة، يعني تكريساً مطلقا وأبدياً لجريمة ألمانيا التي ستظل تلاحقها حتى الأبد:

"ليس بعيداً عنا(*) كانت ألسنة النيران الضخمة تنطلق من أعماق حفرة، كانوا يحرقون شيئاً ما. اقتربت شاحنة من الحفرة وأفرغت حمولتها وكانت الحمولة عبارة عن جثث أطفال صغار وأطفال رضع، نعم لقد شاهدهم بعيني أطفال يلقون وسط اللهيب.. فهل هناك ما يدهش أن يكون النعاس قد هرب من عيني منذ ذلك الوقت؟

(*) يورغن غراف، المجزرة تحت المهجر، سبق ذكره، ص٧٨.

إلى هـــناك إذن ســـنذهب، فعـــلى مسافة قليلة منا توجد حفرة أخرى أكبر مخصصة للبالغين..

"يـــا أبت" قلت له. "إذا كان الأمر كذلك، فلا أريد الانتظار أكثر، سأذهب نحـــو الأسلاك المكهربة وألقي بنفسي عليها، فهذا أفضل من الاحتضار ساعات داخل اللهيـــب" ويستمر إيلي فيزيل. في توصيف دقيق ومثير لكذبته، كي ينجح في ترحليها إلى منطقة الحقيقة واستمر بوصفه قائلاً(*):

لم يكن أمام رتلنا سوى اجتياز خمس عشرة خطوة، عضضت على شفتي حتى لا يسمع أبي باصطكاك وارتجاف فكّي من الخوف. عشر خطوات ما زالت أمامنا. ثم ثمانية ثم سبع ... كنا نسير ببطء كما لو كنا خلف عربة موتى ونتبع طقوس دفننا، و لم يبق سوى أربع خطوات، ثم ثلاث. وهكذا أصبحت الحفرة هنا قريبة منا جداً، الحفرة ولهيـــبها.. جمعـــت كل ما تبقى لديّ من قوى حتى أقفز خارج الصف وأرمي نفسي عـــلى الأسلاك المكهربة. وفي أعماق قلبي ودعت أبي، وودعت الكون بأكمله، و... عـــلى الرغم منّي تشكلت كلمات وتقدمت على شكل همسات في شفتي بالعبرية – إيـــتغادال فيتيكادا هششيمي راب – ليعلوا اسمه – الرب – ويتقدس .. سينفجر قلبي هلعـــاً وهاأنا أجد نفسي في مواجهة ملك الموت، كلا، على بعد خطوتين من الحفرة أمرونا أن نستدير يساراً وأدخلونا في كوخ خشبي.

لم يـــنس إيـــلي فيزيل، وهو في لحظاته الأخيرة / الحرجة ،/ الحساسة جداً أن يســـتعين بالإلـــه اليهودي / يهوه ويخاطبه بالعبرية ويردد ما يقوله اليهود عن الرب / الدموي، من أجل أن يعلوا ويتقدس.، وكان للمقدس، قوة أسطورية / وفاعلية معروفة ومختـــبرة في المحن اليهودية / الفردية / والجمعية، ويتدخل المقدس وينقذ عبده اليهودي

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص٧٩.

مـــن إبـــادة أرضية، ويحقق السماوي / المطلق / المقدس فصلاً عاجلاً / وسريعاً بين المـــوت / والحياة ولأن الإله اليهودي / يهوه مانح للحياة في شهادة إيلي فيزيل، فإنه يعطـــيها لـــه، وكان الإله ذو خاصية إنسانية وعطوف / رحيم، وتناسى إيلي فيزيل المجـــازر الـــتي ارتكبها الإله اليهودي بحق العبران / واليهود، ولكن وكما يبدو شاعت الرغبة اليهودية أن تأخذ الإله يهوه إلى مساحة جديدة، هي مساحة الحياة / والخلاص.

ومـــا زالت إلى الآن(*) تتكشف كثيراً من حقائق لها صلة وثيقة بالمجازر النازية الـــتي حصـــلت، ولعـــل آخر تلك الحقائق، صرح بها أحد الشباب الألمان، وهو من الجماعة النازية الجديدة وفي مقال مهم، نشرته صحيفة نيويورك تايمز. ذكر فيه بأن ما حـــدث في "أوشفيتز" كان مبالغاً فيه للغاية. وكانت نتيجة الحرب، هي انتصار اليهود فـــيها، حيث خرجوا رابحين منها، وهم الذين كتبوا مسرحية "أوشفتيتز" هذا المعسكر الـــذي ضـــم أعداداً كبيراً من اليهود توفر على وسائل للراحة ومنها أحواض خاصة للسباحة.

ويدحض العلم أكاذيب إيلي فيزيل عن الحرق في الحفر كما ادعى "الإباديين"، لأن ذلـــك يشـــكل استحالة فيزيائية – عملية، لأن حرق الجثث في حفرة يحتاج على الأقل وبسبب افتقاد الأوكسجين اللازم، إلى وقت لا نهائي أو غير محدد وإلى استخدام وقود قابل للاحتراق.

وهـــناك سبب آخر يعارض مقولة حرق الجثث في الحُفر ألا وهو: وجود طبقة مـــن حقول آبار المياه الجوفية على عمق ٦٠ م من سطح الأرض، قبل تشييد المحارق كانـــت جثث ضحايا الأوبئة تحرق على أكوام من الحطب التي تربط بها الجثث فوق سطح الأرض لتحرق.

(*) يورغن غراف، المجزرة تحت المجهر، سبق ذكره، ص٦٥.

هـــذا الرقم الخيالي، الذي كرسته وسائل الإعلام الصهيونية، صار معقولاً عند الآخر / الغربي، وخصوصاً المتعاطف مع اليهود.

وكان من بين هذا الرقم الخيالي / الأسطوري، ثلاثة ملايين بولوني وستة ملايين سلافي، والذين اتخذ موقم طابعاً قدسياً، كما لو كانت ضحايا هتلر من اليهود فقط. وأهم فقط أصحاب حق في "القداسة"، وأصحاب حق في جلد ضمير الدنيا بالسياط، ووسيلة لكسب التأييد المادي والمعنوي، وإذ كانت هذه الجريمة — كما قال شامير — بخطابــه في مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣١ سبب صحوة الضمير العالمي لإقامة إسرائيل. فلاشـــك أن الخطـــاب العربي الفاشل كان وراء خمود الضمير ذاته أمام إرادة وتشريد الفلسطينيين، واضطهاد الآلاف من الأسرى المصريين حيث أقام الإسرائيليون(*) بتقليد الـــنازيين، فأنشأوا معسكرات اعتقال جماعية في سيناء عام ١٩٧٠ في كل من نخل / وقصـــيمة / وأبو زنيمة / وتحت الأشراف المباشر للجيش الإسرائيلي. ورحل إلى هذه المعســـكرات مـــئات من العوائل الفلسطينية بكاملها وحتى الأطفال. وفي شباط عام ١٩٧١ أجبر الصليب الأحمر الدولي إسرائيل على إغلاق هذه المعسكرات بعد أن هدد بالانســـحاب من الأراضي المحتلة وفضح إسرائيل عالمياً لمخالفتها لميثاق جنيف وحقوق الإنســـان. وحتى الآن لم يقم أحد بتوجيه أي اتهام لجنرالات إسرائيل الذين يتصدرون الســـلطة فيها حتى اليوم لمسؤوليتهم عن إقامة هذه المعسكرات. والتي لا تختلف كثيراً عـــن معســـكرات الاعتقال النازية العريقة. كما أن الضمير الإنساني لا ينسى جريمة العصـــر الـــتي نفذها أمريكا ودول العدوان، بضرب ملجأ العامرية وإبادة المئات من العراقيين وحرقهم، وهذه الجريمة النكراء، تفوق ما اقترفته النازية ضد اليهود من جرائم

(*) غازي السعودي، سبق ذكره، ٢٠٠٠/٤/٥.

بشـــعة، وسيأتي اليوم – حتماً – الذي يلاحق الضمير الإنساني أمريكا ودول العدوان عـــن جـــريمة ملجأ العامرية، كما سيأتي اليوم الذي تضطر فيه أمريكا ودول العدوان للاعـــتذار عـــن إبادة الشعب العراقي إبادة منظمة خلال سنوات الحصار الظالم الذي ابتدأ منذ بداية ١٩٩٠.وتظل أسطورة الملايين الستة، شاغلة للرأي العام العالمي، بحيث ابتدأت مواقف مغايرة، وتتمثل هذه المغايرة بالتشكيك في هذا الرقم الأسطوري.

وسنقدم عدداً من الإشارات عن عدد الضحايا اليهود(*) في معسكر أوشفيتز – بيركـــناو، حيث كان العدد مدوناً على لوحة موضوعة في مدخل المعسكر والرقم هو أربعـــة ملايـــين ووضعت لوحة جديدة تقول أن عدد الضحايا مليون فقط. وتغيرت اللوحة الموضوعة على "غرفة الغاز". في معسكر "داخاو" ووضعت لوحة جديدة أثبت فـــيها أن هذه الغرفة لم تستخدم على الإطلاق، كما تغيرت اللوحة على مدخل ساحة "فيلو دورم ديفر" في باريس والتي كانت تقول أن عدد اليهود الذين اعتقلوا هناك يبلغ ٣٠ ألف شخص، وحلت محلها لوحة جديدة تبين عددهم ٨١٦٠ شخصاً.

و لم يكتف جارودي بهذا، بل دوّن عدداً من الأرقام المختلفة عن ضحايا اليهود في أوشـــفتيتز – بيركـــنا وحـــده، من أجل إيقاظ الذاكرة الجمعية في أوروبا والعالم، وتحفيز الإنسان على إثارة الأسئلة حول مهزلة الهولوكوست وأشار:

- ٩ ملايين، حسبما جاء في فيلم "الليل والضباب" الذي أخرجه "آلان رسينيه عام ١٩٩٥".
- ٨ ملايين، وفقاً لما ورد في كتاب، وثائق عن تاريخ الحرب، معسكرات الاعتقال.

(*) صـــحيفة اللوموند، ١٨ تموز، ١٩٩٠، ص٧ نقلاً عن روجيه جارودي أساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ت: محمد هشام، دار الشروق، عمان ١٩٩٨، ص٢١١.

- ٤ ملايين، طبقاً للتقرير السوفيتي الذي اعتبرته محكمة نورمبرغ دليلاً قاطعاً بموجب المادة "٢١" من القانون الأساسي للمحكمة، والتي تنص على أن "... تعتبر الوثائق والتقارير الرسمية الصادرة عن حكومات الحلفاء بمثابة أدلة صحيحة..." ويذكر أن المادة نفسها تنص على أنه "لن تكون المحكمة مطالبة بأدلة على الوقائع الشهيرة، وستعتبرها وقائع ثابتة.
- ٢ مليون و٢٥٠ ألف، ذكرها المؤرخ "ليون يولياكوف" في كتابه: القضاء على يهود أوروبا.

وتستمر الإحصاءات التي قدمها روجيه جارودي باعتبارها بعضاً من الوسائل / المعلومات التي لعب اليهود دوراً مهماً في صياغتها من أجل تحويل الأكذوبة إلى حقيقة. وبالتالي إلى أسطورة وهذا ما حصل فعلاً. وينقل جارودي رأياً لمدير معهد التاريخ المعاصر / التابع للهيئة الوطنية للبحث العلمي في باريس: لقد تبنت الذاكرة الجماعية رقم "أربعة ملايين" الذي ساقه تقرير سوفيتي، ولا يزال هذا الرقم مسجلاً على النصب التذكاري لضحايا النازية في أوشفتيز. أما الرقم الموجود في متحف "يادفاشيم" في القدس عن إجمالي الضحايا فهو أعلى بكثير من العدد الحقيقي.

ومع ذلك، فقد عكفت الذاكرة العلمية على العمل الجاد(*) منذ نهاية الحرب. وتوصلت بعد بحث دقيق ومتأن، إلى أنه لا يمكن التسليم برقم "أربعة ملايين" لأنه لا يستند إلى أساس يُعتد به.

فقد استندت محكمة "نورمبرغ" إلى ما أكده إيخمان من أن سياسية الإبادة أسفرت عن مقتل ستة ملايين يهودي، من بينهم أربعة ملايين في المعسكرات. ولكن لو عدنا إل أحدث المؤلفات وأدق الإحصائيات، مثلما يتجلى في كتاب "راول

(*) صحيفة اللوموند – ٢٣ تموز، ١٩٩٠، نقلاً عن روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٢١٣.

هيلـــبرج" القضاء على يهود أوروبا" فسوف نلخص إلى أن عدد الضحايا في أوشفيتز يبلغ زهاء المليون، وهو رقم يقبله جميع المتخصصين، إذ أصبح من المتفق عليه في الوقت الراهن فيما بينهم أن عدد الضحايا لا يقل عن ٩٠٠ ألف ولا يزيد عن مليون و٢٠٠ ألف.

ويـــثير المفكر روجيه جارودي سؤالاً مهماً للغاية، بعدما استقرأ الإحصائيات الكثيرة / المتفاوتة والمتناقضة ومفاده: أن هذا الاختلاف والتفاوت كله من قبيل خدمة دعايـــات الـــنازيين الجديد في ألمانيا "أو الحزب اليميني المتطرف في فرنسا" إذ تصبح لديهـــم حجـــة قوية تتيح لهم أن يقولوا: إذ كنتم قد كذبتم بخصوص عدد الضحايا اليهود، فما الذي يمنع أن تكونوا قد بالغتم أيضاً في جرائم هتلر؟

إن الـــرقم الخرافي(*) أي الستة ملايين يهودي الذين قتلوا وأبيدوا، قد ظهر منذ عـــام ١٩٤٢ في الدعايـــة لصهيونية فقد أعلن ناحوم غولدمان، الذي أصبح فيما بعد رئيســـاً للمؤتمر اليهودي العالمي، في التاسع من أيار عام ١٩٤٢ بأن من الثمانية ملايين يهـــودي الذين كانوا موجودين إبان حكم هتلر نجا منهم من الحرب مليونان أو ثلاثة ملايين فقط. وبعد ذلك تم بلوغ الرقم المرغوب والمطلوب ولو بصورة تقريبية.

و لم تكن الهجمة النازية إذن مجرد "مذبحة" واسعة النطاق، استهدفت اليهود في المقـــام الأول، أو اســـتهدفتهم وحدهـــم، وهو الأمر الذي تحاول بعض الدعايات أن ترغمـــنا على تصديقه بل كانت بالأحرى كارثة إنسانية، إلا أن ثمة سوابق عديدة لها فقـــد اتبع "هتلر" في تعامله مع البيض النهج نفسه الذي اتبعه المستعمرون البيض منذ خمسة قرون مع "الملونين" من الهنود الحمر في أمريكا، الذين كان عددهم "٨٠ مليوناً" أبيد منهم "٦٠ مليوناً" كما حدث الشيء نفسه مع سكان أفريقيا. والذين نقل منهم

(*) يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، سبق ذكره، ص١٢٩.

إلى الولايات المتحدة الأمريكية عدد يتراوح بين عشرة ملايين وعشرين مليوناً نسمة. ومن ثم، فقد كان ضرورياً أن تصبح أسطورة / خرافة إبادة اليهود هي الشغل الشاغل للعالم كله، فالحديث عنها باعتبارها "أكبر عملية إبادة جماعية في التاريخ" يعني بالنسبة للاستعماريين(*) الغربيين نسيان الجرائم التي اقترفوها "مثل إبادة الهنود الحمر في أمريكا واستعباد سكان أفريقيا.

ويبدو لأول وهلة عسيراً على الفهم أن نظاماً ديمقراطياً(**) يدافع بواسطة الرقابة والإرهاب، عن أسطورة رديئة بقدر رداءة فكرة تعريض الملايين من الأبرياء للغازات، ويـــبدو للوهلة الأولى، ما هو غير معقول، ما هو قابل للتصديق أكثر بأن هؤلاء الذين يتمسكون وبضراوة أكبر بهذه الخرافة الرهيبة والمريعة، هم بالضبط الذين تعني لهم نهاية أسطورة العصر نهاية الكابوس، أي المقصود بهم اليهود والألمان.

إذ كـــان الدفاع عن الأسطورة يتم بالوسائل والسبل كافة فذلك لأن انتصار الحقـــيقة التاريخـــية يمثل لعدد هائل من الناس الأقوياء جداً، كارثة لا نهائية ولا يمكن إصلاحها أبداً.

"روبـــير فوريسون" ساهم أكثر من غيره، ربما في فضح هذه الخرافة والكشف عن حقيقتها (ولولاه ما كان تقرير "لوشتير" أن يرى النور) وقد لخص أطروحته بجملة من اثنتين وثمانين كلمة، هذا نصها:

إن غـــرف الغاز(***) الهتلرية، ومذبحة اليهود المزعومة تشكلان، الكذبة التاريخية نفســـها الـــتي أتاحت وجوداً أكبر لعملية تضليل واحتيال سياسية. مالية المستفيدون

(*) روجـــيه جـــارودي، الأساطير المؤسسة للسياسية الإسرائيلية، ت: محمد هشام / الشروق، عمان، ص٢٠٤، ١٩٩٨.

(**) يورغن غراف، سبق ذكره، ص١٤٢.

(***) يورغن غراف، سبق ذكره، ص١٤٣.

الأساسيون منها هم دولة إسرائيل والصهيونية العالمية، وضحاياها الرئيسيون هم الشعب الألماني وليس زعماؤه الحاليين، والشعب الفلسطيني بكامله وأخيراً الأجيال اليهودية الشابة التي سجنها دين الهولوكوست أكثر فأكثر في غيتو سيكلوجية / ومعنوية.

وبدون(*) التبرعات والتعويضات الألمانية التي بدأت بالتدفق خلال السنوات العشر الأولى لوجود دولة إسرائيل، ما كان بإمكان هذه الدولة أن يكون لديها نصف بناها التحتية الحالية، فكل القطارات في إسرائيل ألمانية والبواخر ألمانية، والكهرباء وجزء كبير من الصناعة، هذا عدا النفقات المحولة والمقدمة للناجين من الموت.

ويشكل الهولوكوست بالنسبة لإسرائيل وسيلة مضمونة لضمان الدعم والتأييد غير المشروط من جانب الولايات المتحدة الأمريكية. إن الفلسطينيين هم الذين يدفعون ثمن هذه السياسة. فهم أول وأهم ضحايا خرافة الهولوكوست والكثير منهم يعيش منذ عشرات السنين في مخيمات بائسة للاجئين إثر اختلاق الصهاينة لأسطورة الهولوكوست وخرافة غرف الغاز.

إن نظرية الجنسية الدينية(**) التي تطبقها إسرائيل، لا تختلف في شيء عن فكرة الجنسية العرقية الألمانية النازية، لا من حيث الطبيعة، ولا من النتائج. والتمييز الذي مارسه النازيون مبني على مفهوم للقانون العام:

دولة آرية يسكنها الآريون وحدهم. فالألمانيون غير الآريين سواء كانوا يهوداً أم غير يهود، مورس التمييز ضدهم، لا لكونهم يهوداً بل لمجرد كونهم ليسوا آريين، لقد

(*) يورغ نغراف، سبق ذكره، ص١٤٤.

(**) د. محمد أبو سعد، الهجرة وعنصرية القوانين الإسرائيلية، ضمن كتاب، الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، سلسلة الندوات رمق (٤)، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ص٩١، ١٩٩١.

أصـــدر النظام الفاشي الألماني قوانين لتخدم سياسته العنصرية، بناء دولة آرية للعنصر الآري وكذلك النظام الإسرائيلي، دولة يهودية "للعنصر اليهودي" إن انتقال المعتقدات الدينـــية الجـــامدة في الديانة اليهودية وتوظيفها في خدمة العقيدة السياسية للصهيونية، تعطـــي تفســـيراً في تحويل هذه الديانة مفهوماً عدائياً / توسعياً تحقق إسرائيل أهدافها المرســـومة وبعـــنف. كمـــا وأنهـــا تستند في ذلك على شوفينية وعنصرية القوانين / الاجتماع / والتشريعات غير العادلة لحقوق الإنسان، والتي شرعتها في خطفها لمواطنين الدول الأخرى من اليهود.

لقد فقد "الهولوكوست" شيئاً من أسطوريته / والهالة التي رسمتها حوله الحركة الصـــهيونية في العـــالم، ولعـــل أخطـــر ما أثير حوله، تلك الأعمال الفنية الروائية / الســـينمائية، لأنهـــا ذات حركة أسرع، وذات وظيفة اتصالية أقوى وأكثر تأثيراً بين أوساط الناس، لأن الكتب الوثائقية لن تجد مساحتها الأوسع وإنما تكون محدودة بعض الشـــيء، بيـــنما السينما / التلفزيون / الروايات، فهي ذات علاقة مباشرة وبالإمكان الاشتغال عليها من أجل أن تحوز عوامل تأثير أخرى، ذات فاعلية كبيرة.

ولقد تحطم تابو الهولوكوست، وخصوصاً عدد الضحايا / الخيالي الأسطوري، وتعـــددت مصادر الاختراق لهذا التابو ومنها كتاب الدكتور "ريجارد هاروود" – هل أبـــيد ســـتة ملايين يهودي بالفعل – وريجارد باحث متخصص في دراسات وشؤون وقضـــايا الحرب العالمية الثانية(*) وتولت طبعه ونشره دار الأبحاث التاريخية بريجموند، وازدان بعدد من الصور والخرائط والوثائق والإحصائيات التي أثبتت، بالقرائن الراسخة والمعلومـــات الأكيدة والوقائع الدامغة، ما استخلصه وقرره من نتائج جديدة ومدهشة

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، مجلة آفاق غربية، العدد (١)، سنة ١٩٧٦، ص٣٢.

عن هذا الموضوع، والتي انطلت على جمهور كبير من العقلاء حيناً طويلاً من الدهر، وكشفت، في سابقة علمية نادرة وفريدة، عن زيفها وبطلانها وخبثها وخلطها.



شكل (٢٩): موسى في سيناء – تخطيط تخيلي للفنان ثامر عبدالله

ووجه روبرت ليتل سؤالاً في محاولة لترميم الذات المتعصبة بعد ما طفح تعصبها ضد الفلسطينيين وامتحن روبرت ليتل ذاكرته وصدقه أمام المتلقي وذلك عبر سؤال له صلة بالتصفيات العرقية ضد مسلمي البوسنة، حيث شهد العالم مجزرة إبادة بعد أكثر من خمسين عاماً على الإبادة النازية. لكن شمعون بيريز استطاع الإفلات من الجواب، ليدخل مداراً يقود إلى اعتبار ما حصل في البوسنة من إبادة إلى كونها حرب أهلية فحسب.

ويذهب روبرت ليتل أبعد من الأول، حتى يوهم القارئ باهتماماته الأساسية / الإنسانية، وليس غير ذلك ما هو يعنيه بالنسبة للعلاقات بين الأعراق والشعوب: فيرد

علـــيه بيريـــز متسائلاً: لا يمكننا المراوغة فيما إذا كان الأمر يمثل مصنعاً للموت أم لا؟ يتحمس بيريز في إجابته ليقول:

مـــا حدث في يوغسلافيا فقط يحدث للمرة الأولى(*) وبهذه الإجابة والتأكيدات الأخـــرى عليها، فإنه يدرك ما هو القصد، كي يدرك التراع العرقي وسط بلد واحد عرف الكثير من التناقضات.

ويـــبدو بـــأن ذاكرة شمعون بيريز مضطربة / ومشوشة وقصيرة المدى بالمفهوم المجازي، لأنه ينسى مثلاً جرائم الصهيونية بحق الفلسطينيين / في دير ياسين – مثلاً – وإذ(**) كانـــت شناعة الخطيئة تقاس بمقدار خطيئة الخاطئ ضد النور الذي أنعم الله به عليه، فإن عذر اليهود في طرد العرب من وطنهم وبيوتهم سنة ١٩٤٨ هو أقل من عذر نبوخذ نصر وتيتوس وهارديان ومحاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها من البلاد في مختلف عصور التاريخ. في سنة ١٩٤٨ كان اليهود يعرفون، من خبرتهم الشخصية، ماذا يفعلون ومأساة اليهود الكبرى إن الدرس الذي تعلموه من مواجهتهم للنازيين لم يدفعهـــم إلى شجب الأعمال الشريرة التي ارتكبها النازيون بحقهم، وإنما إلى تقليد هذه الأفعال. ويذكر توينبي أمثلة من جرائم الصهيونية، ويذكر دير ياسين وسيظل يذكرها: إن الجـــريمة الشريرة التي ارتكبها اليهود الصهاينة ضد العرب الفلسطينيين، والتي يمكن أن تقـــارن بالجـــرائم(***) التي ارتكبها النازيون بحق اليهود، هي ذبح الرجال والنساء والأطفـــال في ديـــر ياسين في اليوم التاسع من شهر نيسان ١٩٤٨. هذه الجريمة التي عجلـــت بفرار أعداد كبيرة من السكان العرب من المناطق القريبة من القوات المسلحة

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، حوار مطول مع شمعون بيريز، ت: محمد نجار، تقديم ، ناجح المعموري، الدار الأهلية، عمان، ٢٠٠٠، ص٣١.

(**) د. محمد توفيق حسني، أرنولد تونبي والصهيونية، آفاق عربية، عدد (١)، ١٩٧٦، ص٢٨.

(***) محمد توفيق حسين، أرنولد لوينبي والصهيونية، مجلة آفاق عربية، العدد ١، ١٩٧٦، ص٢٨.

الـــيهودية وبمـــا تـــبع ذلك من الطرد المتعمد للسكان العرب من المناطق التي احتلتها القوات اليهودية المسلحة بين يوم (١٥) أيار ١٩٤٨ ونهاية ذلك العام.

إن مســـؤولية الدمـــاء العربية التي أريقت في دير ياسين تقع على عاتق منظمة الأرغون الإرهابية، بينما تقع مسؤولية طرد السكان العرب بقوة السلاح، بعد الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ على عاتق إسرائيل.

ففـــي يوم هادئ / مشرق(*) نحر رجال العصابات وبالدم البارد، بدون استفزاز على الإطلاق، نحر النعاج ٢٥٤ رجلاً، وامرأة، وطفلاً وألقوهم في بئر هناك حتى أنهم كـــانوا يبقرون بطون الحوامل. هكذا وصف مراسلو الصحف الأجنبية هذا الهجوم. وأبقوا على عدد من البنات الحرائر، بقصد جهنمي... وضعوهن على سيارات شحن مكشـــوفة. وطوّفـــوا بهن في أحياء القدس اليهودية، حيث تهافت اليهود يبصقون في وجوههـــن البريئة، كما فعل أسلافهم بالسيد المسيح وهو يقاد حاملاً صليبه في طريق الجلجلة، ويكيلون لهن الشتائم. ويتصايحون مبتهجين. كما فعل العائدون في القديم من قتل "جليات الجبّار" بمقلاع غلام راع، والنساء "يغنين ... ويرقصن، بدفوف. وفرح.

وعقدت "أرغون" في اليوم نفسه مؤتمراً صحفياً نعتت فيه مجزرة دير ياسين بأنها "انتصـــار حربي، باهر في معركة فتح فلسطين وشرق الأردن" وقال قائد المعركة "لولا انتصارنا في دير ياسين، لما قامت دولة إسرائيل فقد انتقلنا من الدفاع إلى الهجوم.

وإذا قيل في الدفاع عن إسرائيل أن هذه الجرائم الوحشية / البشعة التي ارتكبها الـــيهود عام ١٩٤٨ هي أقل عدداً وشناعة من المذابح التي قام بها النازيون بين ١٩٣٣ و١٩٤٥ ، فيجـــب أن يؤخـــذ بنظر الاعتبار بأن اليهود كانوا أكثر من الألمان خبرة وتجربة بالآلام والعذاب التي كانوا ينزلونها بالعرب. وإذ نرفض حجة الألمان في الدفاع

(*) عبدالله النجار ود. كمال الحاج، الصهيونية بين تاريخين، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢، ص١٤٥.

عن أنفسهم بأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون فإننا نرفض حجة اليهود ومؤيديهم في الدفاع عن أنفسهم إلا أنهم كانوا يعرفون، في تجربتهم، ماذا يفعلون حين كانوا يعذبون العرب.

وأضاف توينبي قائلاً: لقد سقط النازيون، أخلاقياً باضطهادهم اليهود، ولكن الصهيونية أحط من النازيين سقوطاً لأنهم عندما ارتكبوا جريمتهم بحق الشعب العربي في فلسطين كانوا يعرفون من خبرتهم الشخصية ماذا يفعلون؟.. إن السقوط الأخلاقي للنازيين هو أقل مأساوية من سقوط اليهود الصهاينة ففي غداة اضطهاد اليهود في أوروبا، حيث كان اليهود ضحايا أبشع الفضائح التي عانوها في تاريخهم أو التي عانتها أية جماعة من البشر، كان رد فعل اليهود عن هذه التجربة التي مروا بها أن أصبحوا مضطهدين هم بدورهم ولأول مرة منذ سنة ١٣٥ م، وذلك عند أول فرصة أتيحت لهم لأن يوقعوا بناس من البشر، لم يؤذوا اليهود أبداً وإنما لأن الظروف شاءت أن يكونوا أضعف منهم، بعضاً من العذاب والاضطهاد.

لقد تجلى التكتيك اليهودي / البربري بشعاً بأجلى صورة في(*) الأحداث والجرائم التي اقترفتها العصابات الصهيونية بعد التقسيم عام ١٩٤٨ فيما سمي باسم "عملية الذعر" وتتلخص في القيام بهجمات مركزة يقتل خلالها سكان قرى معينة كاملة بأجمعهم من شيوخ وأطفال ونساء وبصورة همجية إرهاباً لبقية القرى كي يهرب سكانها منها إلى الدول العربية المجاورة. وهو ما أدى إلى تشريد مليون عربي أصبحوا لاجئين. كان اليهود يذبحون سكان تلك القرى، ثم تتولى محطة إذاعة العصابات التفاخر بذبح سكانها ذبحاً جماعياً، محذرة أبناء القرى: أن عليهم أن يدركوا حين يرون دبابات إسرائيل وجندها في الطريق إليهم بأن المصير نفسه ينتظر قراهم.

(*) فلسطين والغزو التتري الجديد، السلسلة السياسية، رقم ٥، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٤، ص٩١.

وقال الكاتب الأمريكي "لورنس غريز وولد" الذي زار فلسطين(*) تلك الأيام، بـأن هذه المجازر لم تكن عفوية، ولكنها كانت مبيتة ومدروسة. وقد نشرت جريدة "هامشـكيف" الناطقة بلسان عصابة شتيرن بأن تلك الخطط كانت قد عرضت على القيادة العسكرية / اليهودية، واقترنت بموافقتها.

وفي سـنة ١٩٥٠، وقـف أحد "الأرغونيين" في الكنيست وقال بأن دافيد بن غوريون نفسه هو الذي اقترح خلق "عملية الذعر".

وتجلـت "عملـية الذعر" بفصولها الفاجعة في دير ياسين. وكانت الفظائع التي تلت دير ياسين تتطلب شيئاً عن الخيال. فقد جمع هؤلاء المجرمون خمساً وعشرين امرأة حـاملاً ووضعوهن في صف طويل ثم أطلقوا عليهن النار. ثم إنهم بقروا بطونهن بالمدي والحراب وأخرجوا الأجنة منها نصف إخراج وقطع الأطفال إرباً إرباً أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا بعد على قيد الحياة. وخصي الأطفال الصغار قبل أن يقتلوهم. وانتزعت الحلي والخواتم من أجساد القتلى، وبترت أصابع الضحايا الذين وجد الغادرون عسراً في انتزاع خواتمهم.

وفي دير ياسين تكررت مشاهد أريحا من سفر يشوع: وقتلوا كل ما في المدينة مـن رجل وامرأة. من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف "ويقال بأن الذين نجوا من الموت من أبناء دير ياسين يقلون عن الثلاثين شخصاً.

وطلـب جـاك دور ينييه(**) مندوب الصليب الحمر الدولي الإذن من الوكالة الـيهودية للدخول إلى دير ياسين. لكن الوكالة لم تسمح له بذلك إلا بعد مرور ثمان وعشـرين سـاعة، لتتيح للأرغونيين فرصة إخفاء معالم الجريمة. ولقد تمكن المندوب

(*) نفس المصدر، ص٩٢.

(**) نفس المصدر، ص٩٢.

البلجـــيكي من إحصاء مئتي جثة أخرجت من إحدى الآبار العتيقة. ووجد بأن كثيراً مـــنها كانت غير كاملة. ووجد – مندوب الصليب الأحمر – فتاة عربية في السادسة مـــن عمـــرها وهي لما تزل على قيد الحياة، تحت ركام من الأجساد فحملها معه إلى المستشفى وقال: كان ذلك، بكل بساطة، شيئاً فظيعاً.

و لم تكـــن مجـــزرة دير ياسين غير بداية واستهلال. ففي اليوم الرابع عشر من نيســـان تكـــرر المشهد في قرية نصر الدين وبعد نصر الدين هاجمت عصابات الهاغانا عدداً من القرى القائمة على ضفاف نهر الأردن. وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب وألقـــي بعـــدد كبير من الضحايا في مياه النهر والمستنقعات وجرح ما يزيد على ألف ومئـــتين. ومُثِّل بالضحايا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، قبل الموت وبعده. وقطعت رؤوس عدد من الرجال بسبب ما أبدوه من مقاومة. ولا تزال قلة قليلة تمثل الناجين من تلك المذابـــح تحمل آثارها المشؤومة: أيادياً مقطوعة، وأرجلاً مبتورة. أما الناجون بأنفسهم والذين كان لا يزال في مقدورهم أن يسيروا على أقدامهم و يحسنوا السابحة فقد فروا إلى سوريا. بعد ذلك شن(*) اليهود هجمات جديدة على قرى عربية أخرى.

ففـــي الزيـــتون، جُمع أهل القرية كلهم في المسجد، ثم نسف بالديناميت على رؤوس من فيه.

وفي بيـــت "دراس" طبق اليهود الخطة نفسها التي نفوذها في دير ياسين، والتي تقضـــي باختيار عدد من النساء الحوامل وبقر بطوهن بالمدي والحراب. هذه النماذج قليلة، لما جرى من فظائع خلال "عملية الذعر" والتي أدت إلى تشريد مليون عربي و لم تشـــر لها وسائل الإعلام الغربي، وإنما ذكرها الكاتب الأمريكي المنصف "لورنس غريز وولد" في كتابه "هذا سيف الله" This Saword Tor Allah.

(*) ن.م، ص٩٣.

إن المنطق الصهيوني قد خلط عمداً(*) بين الحقيقة القومية السائدة حالياً في أمم ودول وثقافات العالم الثالث الآسيوي / الأفريقي / الأمريكي اللاتيني، الساعية إلى الاستقلال، والمستطلعة إلى التقدم والتطور والارتقاء، وبين الظاهرة الإمبريالية التي لازمت ورافقت وصحبت تلك الحقيقة في قارة واحدة، هي القارة الأوروبية وفي مرحلة معينة هي مرحلة الثورة الصناعية و الطبقة البرجوازية.فعمم الخاص تعميماً مطلقاً وجرد الأحكام من حدود الإنسان / والزمان / والمكان. ثم إنه حرم شيئاً على جميع الأمم وأباحه لنفسه فقط. ونهى عن شيء ولم يتورع عن فعله، متوهماً أن العالم لا يمكن أن يتهم "ضحايا الإبادة" بأنهم قد انقلبوا، بين عشية وضحاياها وفي فترة زمنية قصيرة نسبياً إلى جلادين غلاظ الأكباد، قساة القلوب، يوقعون بسواهم ما سبق أن أوقع بهم في يوم من الأيام. من ظلم فادح وضرر بالغ وأذى عظيم.

إن الطائفة اليهودية / الأوروبية / الأمريكية / الروسية، الصغيرة(**) الحجم والقليلة العدد نسبياً، قد خرجت من الحرب العالمية الثانية وكأنها القوة الظافرة الأساسية والجبهة المنتصرة الوحيدة في العالم. فتسابق الجميع على الرغم من خلاف تم إلى خطب ودها وكسب رضاها. ونالت من العطف الواسع والدعم الكثيف ما لم تنله طائفة أخرى في التاريخ قديماً وحديثاً. فأمكنها أن تحقق الحلم الكبير الذي راودها طويلاً في الحصول على وطن قومي خاص. واغتصبت التراب الفلسطيني، وأسست الكيان الصهيوني.

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٦، ص٣٢.

(**) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص٣٤.

مسؤولية الدول الغربية في المأساة الفلسطينية:

أكد توينبي بأن الدول الغربية تتحمل مسؤولية كاملة في حصول المأساة الفلسطينية وحصراً الدول الكبرى المنتصرة في الحربين الأولى / والثانية. فلولا أن اليهود كانوا جزءاً من هذا العالم الغربي الذي بسط سلطانه على العالم لما استطاعوا أن يقهروا عرب فلسطين ويستمر توينبي قائلاً: إن قوة اليهود مستمدة من قوة الغرب، فإحدى الخصائص المميزة للحضارة الغربية في العصر الحديث أنها بسطت ظلها على البشرية جمعاء، بحيث اصبح يهود الشتات في الغرب، بالرغم من عدم تحررهم الكامل، وبالرغم من قلق وضعهم، قوة فعالة في العالم بعد أن أصبحوا قوة سياسية فعالة في عدد من الدول الغربية القوية. ونتيجة لهذا أصبحت المشكلة اليهودية غير المحلولة، وهي مشكلة داخلية خاصة بالعالم الغربي، مليئة بالمخاطر للأمم والشعوب غير الغربية وغير اليهودية، الذين لا علاقة لهم البتة بهذه المشكلة الغربية. و لم يوجد على سطح الكرة الأرضية في فترة قيام الصهاينة بارتكاب أبشع الجرائم بحق الشعب الفلسطيني، دولة على شيء من القوة والقدرة تقول: لا، للمنتصرين الغربيين في حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ عندما قرروا أن يعوضوا اليهود الغربيين عن الجرائم التي ارتكبتها بحقهم دولة محاربة مهزومة. ولكن ليس على حساب المجرم / المذنب، وإنما على حساب شعب برئ غير غربي، و لم يكن بمستطاع البشرية، وهي عاجزة عن مقاومة هذا الظلم، إلا أن تقف متعجبة من محاولة الإنسان الغربي أن يحصل على كفارة خطيئة غربية بفرض عقوبة مناسبة على غرباء لا دخل لهم في هذه الخطيئة.

ويوجز توينبي(*) العوامل التي شاركت في وقوع كارثة فلسطين بقوله: شاركت ثلاثة عوامل في وقوع كارثة فلسطين:

(*) د. محمد توفيق حسني، سبق ذكره، ص٢٩.

أولهــا: صــعود الطائفــة الــيهودية في الولايات المتحدة إلى درجة من القوة الاقتصادية / السياسية في حلبة السياسة الأمريكية / الداخلية ويُسعى إلى الاستعانة بها، ويتجنــب إغضــابها أو تنفيرها، كل من الحزبين المتنافسين، وذلك لتدفق اليهود من روســيا سنة ١٨٨١ وما بعدها. وثاني هذه العوامل الحاسمة القتل الجماعي لليهود في أوروبــا فيما بين سنوات ١٩٣٣ و١٩٤٥ على يد الألمان المسيحيين وثالثها اندلاع الحــرب الــباردة بــين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. و لم يكن لهذه العوامــل الثلاثة على انفراد أية علاقة ذاتية بالخلاف بين اليهود والعرب في فلسطين. ولكــن كان لهذه العوامل مجتمعة، تأثير حاسم وغير متوقع / وعادل على مسيرة هذا الفصــل من المأساة و لم تكن ثمة أية عدالة، أو مصلحة، في إرغام عرب فلسطين على تعويض اليهود الأوربيين عن جرائم ارتكبها بحقهم مسيحيون أوروبيون. وكان العدل يقضي أن تعوض الدول الغربية يهود أوروبا عن الجرائم التي ألحقها بهم شعب أوروبي.

لم تكــن المجــازر الألمانية هي الأولى في التاريخ، فلقد سبقتها الكثير في تاريخ الــيهود خلال وجودهم في بلدان عديدة و لم يرافقها هذا الزخم من الاهتمام والمبالغة وقــد أشــار العالم المعروف أرنولد توينبي إلى أخر مقاومات اليهود قد انهارت أمام الرومان عام ١٣٠م و لم تبق لهم دولة و لم يجتمعوا في وطن.

وعاشــوا أقليات منتشرة في أقاليم الشرق الأدنى والإمبراطورية الرومانية التي فســحت لهم مجال العيش وتركتهم يمارسون عبادتهم بحرية. وفي ظل الدولة الإسلامية وجدوا الأمن والحرية والمعاملة الحسنة ولكن وضعهم في أقطار أوروبا الغربية، المعاصرة للإســلام في العصــور الــتي تسمى بالعصور الوسطى، كان يزداد سوءاً ويلاحقهم الاضــطهاد جــيلاً بعد جيل. وهنا ينشأ تاريخ جديد لليهود، هو تاريخ علاقتهم مع الغــرب، حيث نشأت المشكلة اليهودية،وتعقدت، وحلت بفاجعة وسوف نرى من مــتابعة مســيرة هذه المشكلة كما يعرفها توينبي ويحلل أسبابها ونتائجها، أنها مشكلة

أنتجـــتها الظــروف السياسية / الاجتماعية والاقتصادية / والإيدولوجية في الغرب. وعقدها إصرار اليهود وعنادهم على الاحتفاظ بهويتهم القومية والدينية والمتميزة.

مـــنذ(*) بدايـــات تشـــكل الـــدول والإمـــارات في أوروبا الغربية بعد انهيار الإمـــبراطورية الرومانـــية، صار المثل الأعلى الذي يطمح إليه المسيحيون الغربيون هو تجانس الجماعة في إقليم معين، وتظهر العلاقة الوطيدة بين نزعة العداء لليهود، المعروفة في الغرب باسم اللاسامية، بين هذا المثل الأعلى في تجانس السكان،واضحة في تاريخ الأقلـــية الـــيهودية في شـــبه جزيرة "إبيريا" التي تضم إسبانيا والبرتغال. وظهر عداء المسيحيين لليهود في "أبيريا" في القوانين التي أصدروها ضدهم ... و لم يطل اضطهاد الـــيهود ومحنـــتهم إذ حـــررهم الفتح الإسلامي لشبه جزيرة "إبيريا" عام ٧١١م من عبوديـــتهم وظلـــوا يتمتعون باستقلالهم الذاتي، طائفة لها حق ممارسة شعائرها الدينية والاحـــتكام إلى شرائعها المأثورة طوال أكثر من خمسة قرون ٧١١م — ١٢١٢م. و لم يـــأت تســـاهل المسلمين مع اليهود بسبب عدم وجود عوامل للتوتر والاحتكاك بين الفريقين. وإنما نتيجة للضمانات الصريحة الواردة في القرآن والشريعة الإسلامية لأهل الكتاب عموماً، ومنهم اليهود.

وبعد استيلاء المسيحيين على الأندلس، وقع اليهود تحت محنة الاضطهاد مجدداً ، واضـــطروا في الفترة الواقعة بين عامي ١٣٩١ و١٤٩٧ إلى الخروج من شبه جزيرة "أبيريا" منفيين / مشردين أو اعتناق الدين المسيحي الكاثوليكي.

ونجـــد في إعـــادة طـــرح السؤال ضرورة ملحة، لماذا هذا الاهتمام بالمجزرة / والاضطهاد الذي تعرض له اليهود خلال الحرب العالمية الثانية؟ مع كونهم عرفوا أنواعاً

(*) د. محمد توفيق حسين، أرنولد توينبي والصهيونية، سبق ذكره، ص٢٥.

من الاضطهاد / والتعذيب الجسدي / والنفسي. إننا نعتقد بعدد من الأسباب الموجبة وتقترح القراءة ما يأتي:

كـــان الـــيهود طائفـــة لا يمكـــن الاستغناء عنها في المجالات(*) الحيوية لعمل الـــبرجوازية الغربية، لأنها تمثل عمالة رخيصة وطيعة / تستجيب للأوامر الموجهة لها. وأتـــاح لها الوضع الاقتصادي المتردي في الغرب إلى التغلغل فيه، وخصوصاً بعد الغزو الروماني، وقدموا للبرجوازية المتضعضعة ما يلزمها من الخبر والمهارة المتراكمة اقتصادياً / وتجارياً.

وكـــان اليهود يشعرون بكراهية المسيحيين لهم، لأنهم كانوا يقدمون لهم المبالغ الطائلة لتغطية الكثير من المفروضات عليهم. وقد أدى هذا النجاح الذي حققه اليهود، بطـــبقة مـــن(**) المسيحيين إلى منافسة اليهود وذلك بالسعي الدؤوب لتعلم المهارات الأساسية التي كان اليهود يعرفونها في المجالين الاقتصادي / والتجاري، وابتدأ الصراع والمنافســـة ومحاولة المسيحيين لطرد اليهود وهذا ما حصل في إنكلترا في القرن الثالث عشر، وإسبانيا في القرن الخامس عشر وبولندا والمجرد في القرن العشرين.

تحقـــق التحرر الاجتماعي بعد تحررهم الاقتصادي(***) نتيجة للثورات الدينية / والإيدلوجـــية، حيث حطم الإصلاح البروتستانتي جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة والمعادية لليهود. وقد أفاد اليهود من روح التسامح واللامبالات الدينية. وعندما حل عـــام ١٩١٤ تحرر اليهود رسمياً في جميع مجالات النشاط، وذلك يمثل حقيقة مقررة في أوروبا.

(*) ن.م، نفس المعطيات، ص٢٦.

(**) ن.م، ص٢٦.

(***) د. محمد توفيق حسين. سبق ذكره، ص٢٦.

خيبة الأمل في حل المشكلة اليهودية في الغرب عن طريق الامتزاج الطوعي بين اليهود والمسيحيين(*). ولقد هاجمت الروح القومية الحديثة فكرة الانتشار اليهودي في الغــرب وعلى جبهتين في وقت واحد، فإن الروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية، وضــغطها في الوقــت نفسه من ناحية أخرى، قد دفعت باليهود الغربيين إلى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم، ويمكن وصفها بأنها شكل جماعي للاقتباس من الغرب.

الحــلم بجمــع الــيهود في الشتات في دولة قومية واحدة وتبلورت المفاهيم الصهيونية.

صــعود الرأسمالــية اليهودية وقيادة، وهيمنتها على الاقتصاد الغربي، وتحكمها بطبيعة النظام السياسي / الاجتماعي / الاقتصادي وتحولت إلى قوة ضاغطة.

وقــد استعارت الحركة الصهيونية(**) رداء الحركة القومية الأوروبية وذلك في محاولــة لكسب عطف تلك الحركة وتأييدها في مسعاها للحصول على أرض تجتمع فوقهــا (الأمة اليهودية المبعثرة) في الشتات، ومن أجل أن تنتزع لنفسها فضيلة التعبير عــن أمان شمولية مفترضة لمجموعة بشرية معينة، بهدف اكتساب شرعية تمثيلها لتلك المجموعة ولكسب احترام العالم.

إن نمــو الــرأسمال وتراكم الخبرات المتنوعة، أوجب التفكير بوطن يستثمر فيه الــيهود الرســاميل والخبرات الطويلة وكانت الحرب العالمية فرصتهم الذهبية لترويج المجزرة من أجل إثارة عطف الغرب وضرورة التفكير بمكان يأويهم ويحميهم من الإبادة المستمرة والمتكررة.

(*) ن.م، ص٢٧.

(**) بديعة أمين، الحركة الصهيونية أهي حركة قومية تعبر عن إيديولوجية البرجوازية اليهودية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٥، ص٦٤.

أثارت المذابح ردود فعل متصاعدة وخصوصاً في أوروبا، لذا صار لزاماً عليها إنقــاذ ضـــميرها الإنســاني مـــن التأنيب، وهذا ما سعت إليه الصهيونية من وراء الهولوكوست.

وكـــان تعـــاطف الغـــرب مع الحركة الصهيونية، تعاطفاً مبنياً على عناصر تم التخطيط لها ومنها افتعال الهولوكوست وتضخم المجازر من أجل جمع اليهود في وطن، ليــتحول – لاحقاً – إلى قاعدة استعمارية في منطقة تتمتع بحيوية كبيرة جداً بالنسبة للمصالح الغربية المتنوعة، العسكرية / والاقتصادية.

٥. خرافة الملايين الستة

كـل شـخص ينشأ ويتربى في مجتمع غربي، يتعرض بلا انقطاع منذ(*) نعومة أظفاره وبدايات طفولته الطرية، لتذكيره بموضوع إبادة اليهود. وفي مثل هذه الأحوال فـإن أقل شك يصدر بشأن هذا الموضوع يبدو للوهلة الأولى عبثياً كعبثية الطعن في حقـيقة وقـوع الحـرب العالمية الثانية، وحتى من يلتقي ببراهين ودلائل حول الغش والتضـليل هـذا الصـدد، فإنه يبدو في أغلب الأحيان غير قادر، بعد هذه السنوات الطويلة من غسل الدماغ، أن يغير ويعدل طريقته في التفكير والتحليل ورؤية الحقائق. بالطـبع هناك ناس يعرفون أو على الأقل يخمنون ويشمون من بعيد بأنه كذب علينا وخدعنا لكنهم لا يهتمون على الإطلاق بقول ذلك علناً وبصوت عالٍ لأنهم يعرفون الـثمن الـذي سـيدفعونه للديمقراطية الليبرالية لمثل هذه المخالفات للمألوف السائد والمفـروض، الـتعرض باستمرار وبلا انقطاع لهجمات من جانب وسائل الإعلام. الترهيب والضغوط على عوائلهم وتدمير وجودهم وحياتهم العملية والمهنية وفي بعض البلدان الحكم عليهم بدفع غرامات ثقيلة وأحكام بالسجن.

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص١٤٧.

إن انتصار الحقيقة التاريخية تمثل بالنسبة لقادة(*) دول إسرائيل وزعماء المنظمات الصهيونية، كارثة حقيقية.

بالنسبة للغالبية الساحقة من اليهود، أي أكثر من ٩٩% من الذين يؤمنون ويصدقون أن يعتقدون بالهولوكست لأنهم قد كُذِّبَ عليهم وخُدعوا كما هو الحال مع غير اليهود، فإن الكشف عن هذه الكذبة أو الخدعة والغش، بعد مرور مفعول الصدمة الأولى، سيكون بمثابة خلاص لهم وإنقاذ: ففكرة إبادة ستة ملايين من أبناء دينهم لا لشيء إلا لكونهم يهوداً والخوف من أن تتكرر نفس المأساة، لا يمكن إلا أن يكون لليهود كابوس دائم لا ينتهي، يقلق راحتهم. وكما كتب روبير فوريسون أن خرافة الهولوكوست تحبس اليهود في غيتو غير مرئي، يعزلهم عن بقية الإنسانية.

إن سقوط جدران هذا الغيتو، سيكون بالنسبة للشعب اليهودي، بمجموعه بركة ونعمة ربانية.

لقد حصل استغلال للمجازر بشكل تجاري صارخ، واستغفلت الجماهير واحتقرت العقول ونبذت القيم(**) العلمية / والأخلاقية، من أجل الحصول على فوائد سياسية واقتصادية معينة. ولكن الناس، عرفت بأن ذلك هو اختلاق وأكاذيب واكتشف الإنسان بأنها لم تلق أذناً صاغية أو شعبية واسعة إلا بفضل الدعايات التي راجت بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى نطاق واسع، وإن وجدت قبلها وأثناءها همساً خفيفاً خافتاً، وجهداً ضعيفاً متقطعاً. ولا يوجد شيء جديد في الدعايات المتبادلة والحروب النفسية بين الأطراف المتقاتلة. ولكن القياس – مع الفارق – في الفظائع والجرائم، ومنها ما وقع فعلاً ومنها ما افتعل حقاً. ففي الحرب العالمية الأولى، لم يتورع

(*) يوغرن غراف، ص١٤٨.

(**) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي، سبق ذكره، ص٣٣.

الحلفاء عن اتهام الجنود الألمان بأنهم يأكلون الأطفال البلجيكيين(*).. وقد اعترفت بريطانيا بأنها اختلقت ذلك في نطاق الدعاية العسكرية والحرب النفسية واعتذرت رسمياً عن الإهانات الجارحة التي أنزلتها بالشرف القومي الألماني...

ولخص الباحث "ريجارد هاروود" الأسباب التي دفعت بالصهيونية لاختلاق هذه الأسطورة: إن الغاية الأساسية من الخرافة الصهيونية المذكورة، هي محاربة الحقيقة القومية، وكبتها، أو نزعها تماماً في الواقع التاريخي والضمير الإنساني أو تحويلها إلى قشرة خارجية.

إن تحديد عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود بالرقم(**) ستة ملايين، قد نشأ من توفيق غامض بين تقديرات مختلفة لا يستند أي منها إلى دليل ثابت أو برهان قاطع. ولعل الظاهرة البارزة التي أجمعت عليها واتفقت فيها تلك الصور المتعددة والأشكال المتباينة والصيغ المتناقضة للخرافة المذكورة، هي افتقارها كلها إلى الوثائق الأصلية والأوامر الرسمية والنصوص المدونة والمحفوظة، وقد عمد بعض المؤلفين إلى تقليل الرقم وتخفيض العدد للظهور بمظهر الدقة والصحة والأمانة والموضوعية. فزعم الفيلسوف البريطاني المعروف "برتراند راسل" في كتابه "لعنة الصليب المعقوف" بان عدداً من اليهود لا يقل عن الخمسة ملايين. قد لاقى حتفه في المعتقلات الألمانية(***) ومن الواضح أنه قد أقنع نفسه بالوقوف موقفاً متوسطاً بين المصادر التي مالت إلى الرقم ستة ملايين وتلك التي مالت إلى الرقم أربعة ملايين. ولكنه عاد فاعترف في كتابه المذكور الذي ترجم في حينه فوراً إلى اللغة العربية، وعلى نطاق واسع بواسطة

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادت ستة ملايين يهودي، سبق ذكره، ص٣٤.

(**) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص٣٨.

(***) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص٣٨.

مكاتـــب الاستعلامات ونوادي إخوان الحرية، بأن العدد الحقيقي لا يمكن أن يعرف على الإطلاق وإذا كان الوضع كما وصفه وذكره، فمن الصعب بل من المتعذر على الإنســـان أن يفهم كيف ولماذا قرر أن العدد لا يقل عن الخمسة ملايين، إلا إذا كان اختـــياره كيفـــياً وعشـــوائياً. وقد مالت اللجنة اليهودية المشتركة للتوزيع إلى الرقم ٥,٠١٢,٠٠٠ ولكـــن "الخـــبير" اليهودي "رايتلنجر" قد اختار الرقم الجديد المبتكر "للمفقودين" من اليهود البالغ ٤,١٩٢،٢٠٠٠ وأضاف مستدركاً بأن ثلثهم تقريباً قد توفي لأسباب طبيعية.

وبذلـــك انخفـــض عدد اليهود الذين (أبيدوا) عمداً إلى ٢,٧٩٦,٠٠٠ إلا أن الدكتور "برلز فايك" المندوب عن(*) نيويورك إلى المؤتمر اليهودي العالمي الذي عقد في جنيف عام ١٩٤٨، لم يجد حرجاً في تصريحه للمراسلين، بأن "سبعة ملايين يهودي قد ضحوا بأرواحهم على مذبح الهجمة اللاسامية، ودفعوا الثمن فادحاً من أجل إسقاط القومـــية الاشـــتراكية والفاشية. وقد ارتفع الرقم المذكور إلى ثمانية ملايين، بل وحتى تسعة ملايين. وهي أرقام لا تعقل، ومن المحال أن تصدق، ولا يمكن أن تقنع أحداً، ولا تثير إلا عاصفة مدوية ونوبة حادة من الضحك عند الإنسان الواعي.

إن أول اتهام للألمان في الحرب العالمية الثانية، قد جاء على يد اليهودي البولوني "روفائـــيل ليمكن" وزعم بأن النازيين قد قضوا القضاء(**) المبرم على ملايين اليهود، وربمـــا وصل عدد هؤلاء إلى ستة ملايين ولكن تلك العبارة، لا يمكن أن تكون مثاراً للشك والاستغراب، لأن الاتهام المذكور الذي سيق في ١٩٤٣، قد انطوى أيضاً على الزعم بان التنفيذ الفعلي للقتل الجماعي لم يبدأ إلا في صيف ١٩٤٢ ولو كانت الإبادة

(*) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص٣٨.

(**) د. حازم طالب مشتقا، سبق ذكره، ص٣٨.

قد نفذت بتلك النسبة والدرجة، لكانت وجوباً قد أتت على يهود العالم عن آخرهم فرداً فرداً والتهمتهم عن بكرة أبيهم بحلول عام ١٩٤٥.

وزعـــم اليهودي الألماني "كورت كيرشتاين" والمعادي للحزب النازي والرايخ الثالث، أنه استطاع التسلل إلى الحرس الهتلري والبوليس السياسي، وهي رواية مسلية حقاً ولكنها للأسف الشديد ومن سوء الحظ اليهودي، لا تحمل على محمل الجد، ولا أن تكتــب التاريخ المعنى الصحيح والدقيق. وأفاد المحقق الفرنسي "ريموند كارتيه" في بيان مكتوب وموقع، بأنه يعلم تماماً أن عدداً من النزلاء في المعسكرات الألمانية، لا يقل عن أربعين مليوناً، قد قتل اختناقاً في غرف الغاز. ولكنه عاد فقام بتخفيض هذا الرقم.

٦. روايات اليهود عن الهولوكوست

إن تدوين روايات اليهود الملفقة عن الهولوكوست ضرورة جداً بالنسبة للقارئ، حتى يستعين بها من أجل صورة جديدة ومختلفة عن المجازر، وسأعتمد على كتاب الأستاذ يورغن غراف، باعتباره مصدراً ومرجعاً، احتوى على العديد في الروايات والمعلومات الدقيقة والتي لم تتوفر عليها مصادر كثيرة.

وستتوفر فرصة واسعة للقارئ من أجل أن يتعرف على الزيف والطرق الخبيثة التي استعانت بها الصهيونية من أجل صياغة الأسطورة الخاصة بالهولوكوست وتكريسها.

"خلال ساعات طويلة كانت أفران حرق الجثث تشتعل هذه الليلة وينبثق من المداخن لهيب برتقالي باتجاه السماء السوداء الحالكة".

"روث إيفا سشلوس"

"نزل مهندس أعمال الموت برفقة مساعده إيكارد إلى عمق إحدى هذه الحفر حيث حدد خطين أو شقين وفسحة ٢٥ إلى ٣٠ سم بينهما ومدها باتجاه طول، وتوجب الحفر في هذا الموقع المحدد باتباع تحديدات المهندس حيث يجب حفر أخدود مائل من وسط الحفرة إلى الجانبين المتضادين وذلك لسيلان دهون الجثث في لحظة

احـــتراقها. وهـــناك حوضان موضوعان في طرفي الخندقين — الساقيتين — الصغيرتين لاستقبال الدهون"

"فيليب موللر"

"علمـــت فيما بعد من أحد الشهود أن الأرض لم تتوقف عن الاهتزاز خلال شـــهور وشـــهور وأنـــه بين الحين والآخر ينابيع من الدم كانت تتدفق من الأرض

"ماريك فولسكي"

"وضـــع الخشب تحت مشبك الحديد في المحرقة على شكل أكوام صغيرة تشبه نـــيران المخيمات السياحية.دقت أو حانت لحظة الحقيقة وقد حملوا إليه علبة كبريت انحـــنى الســـيد فلوس وأشعل رسمياً أول كومة حطب تحت مجموعة من الجثث المعدة لـــلحرق وبينما بدأت الأخشاب بالاشتعال. التحق بخطواته الغريبة بمجموعة الضباط الذين كانوا ينتظرون على بعد خطوات.

بـــدأ اللهيب ، الذي صار يتصاعد ويتأجج أكثر فأكثر يتلذذ بالجثث بفتور في بـــادئ المر، ومن ثم بهمة عالية ومستمرة كلهيب مصباح اللحيم، الكل يحبس أنفاسه، الألمان قلقون ونافذو الصبر، السجناء مصدومون ومضطربون، مرعوبون ومرهوبون، هربـــيوت فلوس وحده الذي يبدو مرتخياً ومنشرحاً ويردد مع نفسه وبهيئة الواثق من نفسه "تاديلوس، تاديلوس" اهتاج اللهيب فجأة وانطلق عالياً محرراً غيوماً من الدخان الكثـــيف وارتفع شخير عميق وانبعجت وجوه الموتى من الألم وتنفسخ اللحم. كان لهـــذا المشهد طابعاً جحيمياً، حتى أن رجال الأس أس ظلوا برهة من الزمن مذهولين وهـــم يتمتعون بهذا اللغز ويستمتعون بهذه الأعجوبة. أما "هربيوت فلوس" فقد كان متألقاً لأن هذه المحرقة هي أجمل شيء في حياته.

كان يتوجب الاحتفاء بمثل هذه المناسبة، لذا فقد جلبت الطاولات التي وضعت أمام المحرقة والتي غطيت بقناني الكحول من النبيذ والجعة.

انتهى النهار باعثاً لهيب المحرقة المحترق إلى السماء المضطرمة والمشتعلة في طرف السهل حيث اختفت الشمس وسط حريق كبير. وبإشارة من "لالكا" فتحت القناني وبدأ حفل خارق وكبير وأول نخب شُرب وقدم باسم الفوهرر. عاد سائقو الحفّارات إلى آلاتهم وعندما رفع رجال الأس أس كؤوسهم وهم يصرخون تحركت الحفارات بدورها رافعة فجأة أذرعها الطويلة نحو السماء بتحية هتلرية مهتزّة ومرتجة. كانت كأنها إشارة رفع الرجال عشر مرات أذرعهم وهم يرددون في كل مرة التحية الهتلرية والمكائن المتحفزة والنشطة ترد عليهم التحية والهواء يرتج ويهتز هو بدوره من صرخات التمجيد للفوهرر، واستمر الحفل إلى أن انتهت وخفتت المحرقة. وبعد الأنخاب جاء دور الأغاني، المتوحشة والفظة القذرة والقاسية، غناء الحقد وغناء الجنون والهيجان، غناء في تمجيد ألمانيا الخالدة".

"جون فرانسوا ستينر"

"نعمل ليلاً ونهاراً. ويروي ناس شاركوا في حرق وتذويب الجثث. إن تلك الأفراد تشبه براكين هائلة وعملاقة والتي تشوي حرارتها الرهيبة وجوه العمال ويبلغ ارتفاع اللهيب الخارج من (٨) إلى (١٠) أمتار.. أصبحت الحرارة خانقة في نهاية تموز عندما نفتح الحفر، كان البخار يغلي كما لو كان خارجاً من قدور معدنية هائلة تغلي. إن الروائح الكريهة والعفونة القاتلة وحرارة الأفران تقتل الناس الضعفاء والمنهكين حيث ينهارون أمواتاً وهم يسحبون جثث الأموات إليهم ويسقطون على شبكات الشوايات الحديدية في المحارق".

"فاسيلي غروسمان"

"تبلل الجثث وترش بالبترين ويكلف ذلك نفقات وتكاليف هائلة والنتائج غير مرضـــية فالجثـــث الذكرية لا تريد أن تحترق وفي كل مرة تظهر فيها طائرة في الجو يتوقف العمل وتغطي الجثث بالأوراق والنباتات لحمايتها وإخفائها عن مراقبة طلعات تجســـس واستطلاع الحلفاء الجوية. كان ذلك استعراضاً بشعاً ووحشي الأثر، بشاعة وفظاعـــة ووحشية أكثر مما شاهدته عين بشرية لحد الآن. عندما تذوب وتحرق جثث النســـاء الحوامل تنفجر بطوهن ويمكننا مشاهدة أو رؤية الأجنة تشتعل داخل أجساد أمهاهم.

القـــتلة يقفـــون قرب الرماد وبقايا الأموات وتعتريهم ضحكات هستيرية هز أجســـامهم. وجوههم متألقة بفرحة شيطانية حقاً يتبادلون الأنخاب في أماكن القتل. والإعدامات الجماعية ويشربون — الكحول — ماء الحياة والمشروبات الروحية المنتقاة. يأكلون ويلهون كالصبيان ويرخون أجسامهم ويتدفأون بالنار"

"بانكل فيرنيك"

"كـــان يجـــب على كل الضحايا أن يترعوا عنهم ملابسهم وأحذيتهم ومن ثم يُجمعـــون حيـــث يتم دفع الضحايا وعلى رأسهم الأطفال والنساء عراة، إلى غرف المـــوت.. وما أن تزدحم الغرف بهؤلاء الضحايا، تغلق خلفهم غلقاً محكماً لا يسمح بترسيب أي شيء، لا الصوت، ولا الهواء. ثم يُفتح عليهم البخار السام".

وثائق نورمبرغ"

"تضم طاحونة الرجال مساحة يبلغ حجمها سبعة كلم. إن هذه المنطقة محمية بأســـلاك حديد مكهربة إلى جانب كافة أنواع الاستعدادات والإجراءات الأمنية. لا يحق لأي شخص الاقتراب من هذه المنطقة... أما القطارات المحملة باليهود فتدخل عن

طـــريق نفق من مواقع تحت الأرض هي مكان الإعدام.. يجردون من كل شيء تُرتب بالأشـــياء بعـــناية وتعد أو تحصى وتسجل ثم توضع في خدمة العرق الأرقى بالطبع. وللـــتهرب من هذا العمل المعقد والطويل، فإن أغلب الشحنات والقوافل البشرية من اليهود كانت تسلم عارية في الأصل. يُقاد اليهود العراة إلى صالات ضخمة يمكن لهذه الصـــالات أن تضـــم عـــدة آلاف من الأشخاص في كل مرة ولا يوجد فيها نوافذ ومصنوعة من المعادن وأرضيتها مواراة أو قابلة للإخفاء.

إن أرضية هذه الصالات تنزل وفوقها آلاف اليهود إلى حوض يقع تحتها مليء بالمـــاء بطـــريقة لا يبدو فيها الناس الواقفون على الرقعة المعدنية التي تغلف الأرضية، وعندما تغمر المياه كل اليهود الواقفين إلى مستوى أحواضهم أو تحت السرة يُمرر تيار كهربائي ذو تردد عال في الماء وبعد ثوان قليلة يُقتل جميع اليهود بالآلاف مرة واحدة.

بعد ذلك ترتفع الأرض المعدنية من الماء إلى ما فوق الحوض. إن جثث الضحايا ما زالت تتحرك فيها الروح هناك خط كهربائي آخر موصول بالرقعة المعدنية الأرضية تحولها إلى نعش حارق، حيث يتم تسخينها حتى الاحمرار لكي تتحول كافة الجثث إلى رماد وبعدها تأتي رافعة عملاقة لترفع هذا النعش. الفرن لسحب الرماد، بينما تسحب مـــنافذ معمل ضخمة الدخان المتصاعد، جراء إفراغ الرماد، وبذلك تكون المهمة قد تمت ونفذت على أكمل وجه".

"ستيفان زيند"

"الـــناس متسارعون أحدهم يسابق الآخر، يلاحقهم رجال الأس أس، يدخلون راكضـــين على الباب المفتوح "للحمام" الذي يمكن أن يضم "٥٠٠" شخص في كل مـــرة كانت أرضية الحمام معدنية وكانت الحنفيات تتدلى من السقف وعندما يمتلئ الحمام يرسل رجال الأس أس تياراً كهربائياً ذا تردد عال يبلغ (٥) آلاف واط خلال

الـــرقعة الأرضية المعدنية وفي نفس الوقت تبزق الفوهات المعلقة – الحنفيات – الماء، وبعد صرخة مختصرة تنتهي عملية الإعدام. ثم يشخص طبيب عسكري في الأس أس ، ويتثبـــت من موت الضحايا من خلال النافذة البيضاوية الصغيرة، ثم تُفتح الباب الثانية ويـــأتي فريق الجثث، ليدخل الحمام ويرفع الأموات بسرعة، وزمن جديد يتوفر مكان لخمسمائة يهودي آخرين".

"سيمون فيسونتال"

"إن جدران القطار الذي يضم اليهود مغطاة بطبقة ثخينة من المسحوق الأبيض، مـــن الكلـــس الحي، والجميع يعرف ماذا سيحدث لو صُبّ الماء على الكلس الحي. فالـــلحم البشـــري الـــذي يوجد نصفه على اتصال بالكلس ينشف بسرعة ويحترق الموجودون داخل القطار يذوبون ببطء حتى العظم وعندما يأتي الغسق تكون العربات ومجموعهـــا (٤٥) – كمـــا أحصـــيتها بنفسي – مليئة والقطار بحمولته المعذبة يهتز ويصرح كما لو كان مسحوراً".

"روبير فوريسون"

٧. رصاصة الرحمة نحو الهولوكوست

إن استحالة التقنية – التكنيكية – التي تشكلها ادعاءات(*) تعريض المعتقلين بصورة جماعية وبأعداد هائلة للغازات السامة ومن ثم حرق جثثهم/ قد جذبت انتباه باحثين من أمثال فيلدر وفوريسون منذ سنوات السبعينات، ولكن من أجل تسديد الضربة القاضية، لهذه الأسطورة، احتاج الأمر إلى متخصص في غرف الغاز وتم استدعاء المهندس "لوشتير"(**) الذي غادر إلى بولونيا مع زوجته سنة ١٩٨٨ ومصور سينمائي "يوغن ومان" ومصمم ورسام تخطيطي "هوارد ميللر" والمترجم البولوني "تجودار رودولف" لإخضاع غرف الغاز في معسكرات الاعتقال في "أوشفيتز".

وأوشفيتز بيركنو وماجدانيك للفحص والاختبار العلمي الدقيق وأثر ذلك حرر المهندس تقريراً علمياً عن نتائج فحوصاته وكانت الاستنتاجات الختامية لوشتير لا تقبل الدحض أو الجدل وهي: لم يكن هناك، في أي من المعتقلات الثلاثة المذكورة غرف غاز مخصصة لاستئصال وإبادة كائنات إنسانية أو بشرية وغرف الغاز الوحيدة التي

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص٦٠.

(**) مهندس أمريكي، متخصص تنفيذ حكم الإعدام بغرف الغاز.

كانـــت موجـــودة هـــي غرف مخصصة لعمليات التطهير والتقييم من أجل مكافحة الحشرات والجراثيم، وكان عرض "لوشنير" يستند إلى ثلاث نقاط هي:

١. إن غرف الغاز(*) لم تُبنَ أو تشيّد على أساس أنها غرف غاز، وما كان بإمكانها أن تعمـــل كونها مشيدة خصيصاً لإبادة واستئصال البشر، فهي ليست محكمة العزل وإلا لكان الغاز السام يتسرب بلا انقطاع إلى خارجها،ولكان من الجنون الخالص بناء غرف غاز إلى جانب أو تحت محارق الجثث مباشرة. وهناك فقدان أو غياب لآلـــية – ميكانـــيزم – لبث ونشر الغاز، إضافة إلى فقدان التجهيزات والمعدات اللازمة، التي تتيح التسخين المسبق للغرف. وأخيراً فإن تجهيزات التهوية التي عُثر عليها ليست كافية إطلاقاً. فتهوية غرفة الغاز في "كريما" على سبيل المثال لم تكن مؤمـــنة ســـوى من خلال كوة صغيرة. مما كان سيؤدي حتماً وعلى الفور إلى انتشـــار الغـــاز داخل مستشف الأس أس – قوى الأمن والمخابرات والميليشيا الحزبية – والموجودة في مواجهة "غرفة الغاز" المذكورة ولكانت قد قتلت الأطباء والمرضـــى، ويمكننا أن نفترض بقاء كمية كافية من زيكلون ب، في غرف الغاز لمدة أسبوع بعد كل عملية إعدام جماعية بالتسميم بالغازات داخل تلك الغرف، قادرة على أن ترسل على العالم الآخر كل شخص يدخل إليها. ولما كان بوسع الأقـــنعة الواقية أن توفر الحماية الكافية في هذه الحالة. فإن غرف الغاز كانت في الحقـــيقة عـــنابر لحفـــظ الجثث وقد حُول "كريما ١" فيما بعد إلى ملجأ مضاد للقصف الجوي.

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص٦٦.

٢. مـــا كان بوسع محارق الجثث[*] أن تأتي على جزء من الضحايا المفترضين، وإن حُفر حرق الجثث ليست سوى محض خيال.

٣. اخـــتار "لوشـــتير" وفريقه عينات من الجرن سواء من غرف الغاز أو من "غرف التطهير أو التعقيم" وتجدر الإشارة إلى أن السينانور يبقى في الجرن أو على الحجر لعدة قرون. والحال أن العينات التي أخذت من غرفة التطهير أو التعقيم ما زالت تحتوي على بقايا من السيناتور بعد مرور (٤٤) عاماً وبنسبة مرتفعة جداً، بينما كانت آثار السينانور التي أُخذت من غرفة ضئيلة جداً، بل وحتى يمكن القول أنها شبه معدومة. وإذا كانت هناك بعض الرواسب المتبقية القليلة في بعض العينات، فذلـــك عائد، حسب تفسير "لوشتير" إلى أن هذه الأماكن جرى تطهيرها، أو تعقـــيمها مرة أو عدة مرات يجب القول أن "جيرمار رودولف" يقدم في كتاب حديث له عن غرف الغاز توضيحاً آخر "إن الذي حصل هو ظاهرة كيمياوية / طبيعـــية. وهكذا عثرنا في مزرعة بافاريا على ترسبات من السينانور أكثر وأكبر أهمية مما عثرنا عليه في ما سمي بـــ "غرف الغاز" في معتقل "بيركنو".

وجـــددت محاولـــة اختبار السينانور مرتين، الأولى من قبل معهد الفحوصات المختبرية الطبي / الشرعي في كراكوف، وبطلب من متحف "أوشفتينر"، والثانية على يـــد الكيمـــيائي الألماني "جيرمار رودلف" وقد توصل هذا الأخير في دراسته الدقيقة والتفصيلية جداً إلى نفس الاستنتاجات التي وصل إليها "لوشتير" الذي انتقده في بعض النقاط الثانوية.

عـــثر الكيميائـــيون البولونيون في العينات المأخوذة من غرف الغاز على بقايا وترســـبات مـــن السيانور أكثر مما عثر الدكتور "روت" وحتى يتفادوا الاعتراضات

---

[*] يورعن غراف، سبق ذكره، ص٦٨.

الكثيرة الإحراج، أخذوا عينات أخرى للمقارنة من غرف التطهير والتعقيم، والتي سبق لجدرانهـــا أن بيّضت أو كلّست ولكن مع ذلك ما زال هناك بقايا من السيانور أكبر كمية من تلك التي عثر عليها في عينات "غرف الغاز".

إن مـــندوبي الصليب الأحمر الدولي لم يجدوا دليلاً على الإطلاق، في المعتقلات الموجودة في المناطق التي احتلها المحور في أوروبا، يثبت وجود سياسية رسمية / منظمة ومقصـــودة راقـــية إلى إبادة الجاليات اليهودية، لا تخطيطاً ولا تنفيذاً بل إن التقرير لا يحـــتوي عـــلى إشـــارة واحدة إلى "غرف الغاز" في جميع صفحاته البالغة (١,٦٠٠) صـــفحة، إلا أنه اعترف بأن الجاليات اليهودية – مثلها مثل غيرها من الجاليات – قد ذاقـــت الويـــلات وعانـــت الشـــدائد، ولكن صمته المطبق وسكوته المفعم بالمعاني والـــدلالات، عـــن سياسية أو عملية إبادة مخططة، قد فضح خرافة السنة ملايين إلى الأبد، واثبت زيفها وبطلانها للعالم أجمع. ومن هنا امتنع الصليب الأحمر الدولي، تماماً – كمـــا فعل الفاتيكان – عن المساهمة في ترويج مارجوه الآخرون من خرافات عن الضـــحايا الســـتة ملايين وغرف الغاز وأفران الحرق ومعسكرات الاعتقال وخطط وأعمال الإبادة.

وفي دراســـة لم تنشر كان(*) "والتر لوفتل" رئيس الغرفة الفيدرالية / الاتحادية / النمساوية / للمهندسين والخبراء القضائيين / المحلّفين قد قال باستحالة التقنية للإدعاء بالـــتعرض الجماعي للغازات في "أوشفتينر" ونتيجة لهذا الموقف اضطر أو أُرغم على تقـــديم الاســـتقالة مـــن منصبه وأصبح عرضة لملاحقة قانونية ومحاكمة جنائية بتهمة انتهاك، قانون يهدف إلى منع ظهور أو إعادة بروز الحزب القومي / الاشتراكي.

(*) يورن عراف، سبق ذكره، ص٧٠.

لقد أصدر "راسينييه" بجلدين هما(*) الحقيقة عن محاكمة أيخمان، في عام ١٩٦٢ ومأساة اليهود الأوروبيين عام ١٩٦٤. وفي هذين المجلدين، وبالأرقام الأكيدة والإحصائيات الدقيقة، كشف الأباطيل الرائجة والأكاذيب الصارخة عن إبادة اليهود في الحرب العالمية الثانية، وفي المجلد الثاني،/ عكف على دراسة خرافة الإبادة، دراسة تحليلية / نقدية / مقارنة في ضوء ما ترتب عليها وارتبط بها من ابتزاز سياسي / واحتيال مالي / وإرهاب فكري / وخداع أخلاقي. مارسه الكيان الصهيوني، والقوى التي ركعت له، وآمنت به، عجلاً ذهبياً، وصنماً جديداً / ومعبوداً مقدساً وقد كشف الحقيقة التاريخية التي حجبتها الدعايات الحاقدة / المعادية العمياء. وأعاد ما أصاب اليهود في الحرب العالمية الثانية إلى واقعه الصحيح وحجمه الحقيقي، باعتباره فصلاً واحداً فقط من مأساة أوسع وأشمل، أصابت العديد من الأمم والشعوب والقوميات بما في ذلك الألمان أنفسهم، والعرب أيضاً، فضلاً عن اليابانيين والسوفيت مثلاً.

وأثبت(**) "راسينييه" بالإحصائيات الدقيقة، المعقدة والمفصلة والمتقاطعة، بأن عدد الضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية، لا يمكن أن يكون قد تجاوز ١,٢٠٠,٠٠٠ في الحد الأقصى، وأن العدد الحقيقي للضحايا قد يكون في الواقع أقل من ذلك بكثير. ولاحظ أن المركز العالمي للتوثيق اليهودي المعاصر قد وافق في النهاية على الرقم المذكور، لكنه أشار إلى الرقم الأصغر البالغ (٨٩٦,٨٩٢) الذي قرره الإحصائي اليهودي (راوول هيلبرغ) في دراسة عن هذا الموضوع. وأفاد بأن الكيان الصهيوني، على الرغم من تلك الأرقام والإحصائيات، لا يزال يوالي إصراره المحموم

(*) د. حازم طالب مشتاقا، سبق ذكره، ص٤٤.

(**) د. حازم طالب مشتاقا، سبق ذكره، ص٤٤.

للحصـــول عـــلى تعويضات عن (ستة ملايين) ضحية مزعومة، ويقبض بالفعل مبلغاً مقدار (٥٠٠٠) مارك ألماني اتحادي / غربي عن الضحية الواحدة.

واقتـــنع "راســـينييه" بأن الكيان الصهيوني، قد أصر على خرافة الستة ملايين مدفوعاً بأسباب مادية / ومالية / واقتصادية خالصة، لا تتعلق الاعتبارات الأخلاقية / أو العاطفـــية / أو الإنســـانية أو حتى الدينية، في قليل أو كثير، وأفاد في كتابه باللغة الفرنسية "مأساة اليهود الأوربيين" ص٣١ و٣٩ ما يلي بالحرف الواحد.

... إنهـــا ببساطة مسألة إيجاد المبررات الكافية، المتمثلة في الإعداد المناسبة من الجثـــث، للأموال الطائلة التي دأبت ألمانيا على دفعها سنوياً منذ انتهاء الحرب للكيان الصـــهيوني. وهـــي تعويضات عن مظالم لم يكن في وسع ألمانيا أن تنـــزلها بالكيان المذكـــور، لا أخلاقـــياً / ولا قانونـــياً، لأنه لم يكن قد ظهر بعد ولا كان قد وجد حيـــنذاك، في وقـــت ارتكاب تلك المظالم المزعومة، ومن هنا فهي لا تعدو أن تكون مسألة مادية حقيرة خالصة..

وربمـــا كان من واجبي أن أستميحكم عذراً، وأن أستعيد إلى الذاكرة، هنا، أن الكـــيان الصهيوني لم يتأسس إلا في شهر أيار سنة ١٩٤٨. وأن اليهود، كانوا رعايا جميع الدول ما عدا الكيان الصهيوني، لكي أكشف أبعاد الاحتيال الرهيب الذي يفوق الوصف ويصيب العقل بالذهول. فمن جهة، تدفع ألمانيا إلى الكيان الصهيوني تعويضاً إجمالـــياً عـــن ستة ملايين ضحية يهودية مزعومة. ومن جهة أخرى، تدفع تعويضات فـــردية إلى ضحايا ألمانيا الهتلرية من اليهود الناجين والمتشردين في جميع البلدان ما عدا الكيان الصهيوني، أو إلى ورثتهم الشرعيين وكما أن أربعة أخماس تلك الملايين الستة / المزعومة من الضحايا اليهود، كانت ولا تزال على قيد الحياة تماماً بعد انتهاء الحرب.

ومعنى ذلك أن ألمانيا، قد دفعت ولا تزال تدفع التعويضات مرتين للغالبية العظمى من تلك الملايين الستة من اليهود.

وســـتحاول الدراســـة التركـــيز على مجال التعويض وكيفية تمويله وخصوصاً موضـــوعة الأسنان والطريقة الصهيونية الناجحة التي جعلت منها "ميزانية" والأسنان، موضوع بسيط، لكنه ضمن حملة التركيز الإعلامي، صار موضوعاً إنسانياً مثيرً للغاية وقدرة الأدب الفائقة على تصويره بطريقة بشعة جداً وهذا ما سنحاوله الآن.

استعان اليهود بما ساعدهم على رسم صورة خاصة للمحارق وأضافوا لها شيئاً مهماً من قدراتهم على الوصف واستعطاف الناس، وتحشيد التأييد بواسطة إثارة مشاعر التضـــامن الـــتي لم يكـــن أساســـها صحيحاً. ومن تلك الوسائل ما ابتدعته الذهنية الصـــهيونية. في إشارتها لأنواع من القهر والتعذيب الإنساني، قبل الموت / وبعده. مما كتـــبه الأب جـــورج هينوك في كتابه "مدخل الحيوانات" عن غرف الغاز في معتقل "بوكونفالد"

"جثث(*) مكدسة بصور أوضاع غريبة. الأسنان، والأحناك والفكوم مهشمة، لاقتلاع أطقم الأسنان الصناعية وأسنان الذهب. هذا عدا الحديث عن التفتيش المخجل الممـــارس عـــلى الجثث للتأكد من عدم إخفاء أية جواهر أو حليّ يمكن أن تزيد من كنـــز النازيين الممسوخين أو الوحوش والفاقدين لإنسانيتهم".

ويصف "موللر" في كتابة ثلاث سنوات في غرفة الغاز في أوشفيتز(**).

(*) يورعى عراف، سبق ذكره، ص٩٥.

(**) يورعى عراف، سبق ذكره، ص٥٧.

"كـــان هناك أمامي أولاً جسد امرأة وكان عليّ أولاً حيث يكون واحداً من الأسئلة في الحوارات التي أجراها الروائي والصحافي الأمريكي "روبرت ليتل" الموجهة إلى شمعـــون بيريز. وحتماً لم يكن هذا السؤال عفوياً مثل غيره من الأسئلة، بل كان معـــدّاً بذكـــاء وقصـــدية. وحتى هناك اختيار وتحديد لموقع هذا السؤال بين مجموع الأســئلة، الـــتي صـــاغت الحوارات المطولة. وكان شمعون بيريز يؤكد على "ميزانية الأسنان" من جديد ويشير إلى بقائها حية ويقظة في الذاكرة الصهيونية.

س: إن جزءاً من مخزون النازيين من الذهب والنقود، سرق من الضحايا اليهود في المحرقة، بما فيه ذهب الأسنان الاصطناعية لليهود الذين قتلوا في معسكرات الموت. وقد وجد ذلك طريقه إلى بنوك سويسرا إبان الحرب العالمية الثانية. وهذا أيضاً — يبدو واضحاً من أن السويسريين لعبوا دور الوسيط بالنسبة للألمان في تحويلهم لبعض أموال الـــنازيين إلى إســـبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينية. وتقدر الجماعات اليهودية اليوم أن البـــنوك السويســـرية تحتوي على ما قيمته سبعة بلايين دولار، تعود إلى ورثة ضحايا المحـــرقة. وبعد البحث في سجلاتهم لعدة شهور، ادعت البنوك السويسرية بأن الرقم الحقـــيقي كـــان جـــزءاً يسيراً، إلا أنه بعد إلحاحات عدة، عرضت الحكومة والبنوك السويسرية تقديم تعويضات لضحايا النازية.

ج: شمعون بيريز:

أعـــتقد بأنـــه يجب على السويسريين أن يكونوا منفتحين تماماً فيما يتعلق بهذه المســـألة. ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك حول إعادتهم لآخر بنس يعود للشعب اليهودي مجتمعاً أو للأفراد اليهود.

س: روبرت ليتل: هل تعتقد بأنهم سيقومون بذلك؟

ج: شمعون بيريز: نعم، إذا ما كان هناك ضغط كافٍ.

تكشف موضوعة الأسنان / التي هي أكذوبة أخرى من أكاذيب الهولوكوست طـريقة اشـتغال الصـهيونية على موضوع ما، والتركيز عليه في الصحافة والإذاعة والأدب، حـتى يتحول من وهم إلى حقيقة، والتأكيد عليه يبدأ من الفرد اليهودي – لأنـه يعـتقد بأنه الذي سيستفيد من التعويض، لأنه حفيد لأحد الضحايا – وحتى الحركات الدينية / والسياسية والدولة ومن أجل إظهار الاضطهاد مستمراً وباقياً، لأن المماطلـة في التعويض يعني ممارسة لعنف آخر، أنه عنف رمزي، يفعل فعله في النفس اليهودية، ولذلك مجال آخر، لأنه يستدعي التعويض أيضاً.



شكل (٣٠): يشوع بن نون خليفة موسى كما تخيله الفنان ثامر عبدالله

٨. أكذوبة الهولوكوست

يوثق يورغن غراف معلوماته الدقيقة بالدلائل والاثباتات التي لا يتسرب الشك إلـــيها ولا يطعـــن بها، معتمداً على وثائق المخابرات البريطانية في الإنصات والتقاط الاتصـــالات السلكية واللاسلكية بين قيادة الأس أس في برلين ومعسكرات الاعتقال وفـــك رموزها وكذلك الوفيات المعلنة عبر التقارير اليومية والتي كانت بسبب المرض والـــبعض منها أشار إلى أنها حصلت نتيجة تنفيذ عمليات إعدام بالرصاص أو الشنق. أما عن الرّش بالغازات، فلم ترد كلمة واحدة بهذا الخصوص ولا حتى في "أوشفيتنر".

وأكـــد البروفيســـور "هينسلي" الأستاذ في جامعة كمبردج والمتخصص أثناء الحرب بفك رموز وشيفرة الأعداء، ويؤكد هذه الحقيقة في كتابه "المخابرات البريطانية إبـــان الحـــرب العالمية الثانية": إن الرسائل الإذاعية عن طريق الراديو الألماني لم تكن تحتوي على أية إشارات إلى استخدام الغازات بحق السجناء. ويستطرد يورغن غراف بالقول: بدأت طيارات التجسس والاستطلاع التابعة للحلفاء بتصوير معسكر أوشفيتنر وخـــلال ٢٢ مهمة لا يمكن رؤية ومشاهدة أية صورة من صور طوابير الناس منتظرة أمام غرف الغاز، التي يسهل التقاطها والتعرف عليها.

في كـــتاب (التـــناقض اليهودي: منشورات ستوك / باريس ١٩٧٦ – كتب نـــاحوم غولدمـــان، الذي كان لمدة سنوات طويلة رئيسً للمؤتمر اليهودي العالمي ما يلي:(*)

"ولكـــن في عـــام ١٩٤٥، كان هناك (٦٠٠) ألف ناجٍ من الموت من يهود معســـكرات الاعـــتقال، لم يكن يوجد أي بلد مستعد لاستقبالهم "لو أراد النازيون استئصـــال وإبادة اليهود نهائياً كيف أتيح لـــ (٦٠٠) ألف يهودي أن يظلوا على قيد الحياة وينجوا من الموت في المعتقلات الألمانية؟ كان أمام الألمان ثلاث سنوات وثلاثة اشهر لإتمام وإنهاء مهمتهم في استئصال وإبادة كافة اليهود.

واستعان الأستاذ يورغن غراف بتصريحات الشهود الثلاثة وهم (هوس / وموللر و/ وفيريـــا) الذين قدموا مجموعة من المستحيلات الداحضة للقتل والإبادة من خلال غرف الغاز وأهم هذه المستحيلات وأكثرها بديهية وبراءة(**):

المستحيل الأول:

لا يوجـــد أي مهندس معماري يمتلك خبرة تقنية عالية يستطيع أن يبني محرقة جثث في نفس المبنى الذي توجد فيه غرفة غاز تجري فيها مذابح بواسطة غازات قابلة للانفجار. صحيح أن (زيكلون ب)، ليس شديد الانفجار، ولكن لمجرد وجود احتمال وقوع انفجار، يمكن أن ينتج من جثث مسممة أو مشبعة بمادة "زيكلون ب" فإن مثل هذه الطريقة في المعمار تشهد على جنون انتحاري، خصوصاً أنه حتى يمكن قتل حوالي ألفي شخص خلال ثلاث دقائق (حسب شهادة هوس). ينبغي إذن استخدام كميات

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص١٣٤.

(**) يورغن عراف، سبق ذكره، ص٦١.

هائلة من الغاز. في "كريما ١" لا توجد المحرقة فوق "غرفة الغاز" بل بالقرب منها، أو بجانبها ولكان هذا المبنى أول من ينفجر برمته ويتسبب في تفجير المعتقل بأسره وبضمنه مقر الأس أس النازي.

المستحيل الثاني:

إن درجة حرارة غرف تفلية القمل، يجب أن ترتفع إلى ٢٥ درجة مئوية، حتى يمكـن لأكبر قدر من "زيكلون ب" أن يذوب ويتبخر في فترة نصف ساعة وأن مثل نظام التسخين هذا لا يوجد في غرف الغاز ويحتاج الأمر في الشتاء إلى ساعات طويلة حـتى يتحرر الغاز من مادة "زيكلون ب" بعبارة أخرى، في غرف مكتظة بـ "ألفي شخص في مساحة ٢١٠م٢" لا يمكن أبداً للغاز أن ينتشر بسرعة.

المستحيل الثالث:

إن جمـيع أبواب غرف الغاز تفتح للداخل ونتيجة لذلك ما كان يمكن لأفراد الفرق الخاصة أن تلج أو تدخل إلى داخل هذه الأماكن وهي مكتظة ومزدحمة بالجثث حتى آخر سنتمر مربع.

المستحيل الرابع:

حسب شهادة "هوس" فإن أفراد الفرق الخاصة يدخلون غرف الغاز بعد نصف ساعة – بضع دقائق حسب شهادة موللر – من المذبحة ويندفعون مسرعين نحو الجثث لـيجردوها مـن خواتم الذهب (هوس) وتجريدها من ملابسها "موللر" وقص شعور النساء (فيريا) واقتلاع الأسنان الذهبية. إن مثل هذه العملية كان يمكن أن تكون عملية انـتحارية بحـتة، ولما كان بإمكان فرد واحد من أفراد الفرق الخاصة البقاء على قيد الحـياة، بعد هذا العمل الانتحاري / الطوعي (لا تنس أنه بعد تنفيذ الحكم بمحكوم

واحد بالإعدام فإن غرف الغاز الأمريكية تُعرّض بعناية للتهوية، قبل أن يلج إلى داخلها طبيب مختص، مرتدي صدرية واقية وكفوف حماية وقناع مضاد للغازات السامة) أما غرف الغاز في "أوز فيتش" فهي غير مجهزة سوى بنظام تهوية بدائي / بصورة لم يكن فيها أقنعة، مضادة للغازات، تكفي لحماية أفراد الفرق الخاصة خصوصاً وأن السُّم يلتصق أيضاً بجثث الضحايا، التي من المفترض أن أفراد الفرق الخاصة سيهتمون وينشغلون بها. مما كان سيؤدي حتماً إلى آثار ونتائج مميتة، لأن الغازات تتسرب وتتغلغل تحت الجلد والأكثر من ذلك أن أعضاء الفرق الخاصة لا يلبسون الأقنعة الواقية من الغازات، وحسب شهادة (هوس) فإنهم يدخنون وهم يؤدون عملهم المريع هذا.

المستحيل الخامس:

حسب ما تظهره خرائط البناء التي احتُفظ بها، فإن الطريقة الوحيدة لبلوغ محرقة الجثث من غرفة الغاز هي (مصعد كهربائي) صغير تبلغ مساحته ٢,١م ×١,٣٥م أقصى ما يستوعبه هو أربع جثث إضافة للذين يستخدموه. وأن نقل الجثث يجب أن يتم في عجلة كبيرة لأن المحكومين القادمين ينتظرون أصلاً أمام "حنفية الغاز" (في بداية صيف ١٩٤٤ كان يتم تعريض حوالي ١٢ ألف شخص للغازات يومياً. ويصل العدد أحياناً إلى ٢٤ ألفاً حسب مصادر أخرى). وأنهم – أي الضحايا – لم يلاحظوا أن هذه الحنفية لم تكن حقيقية إذ كانوا – أي النازيين – يضعون لهم الصابون "وحسب شهود عيان آخرين كانوا يضعون صابوناً اصطناعياً، ومناشف حمام" وهم ينتظرون بصبر مجيء دورهم للاستحمام، وأن صبي المصعد الكهربائي يقوم بخمسمائة رحلة ذهاباً وإياباً بين غرفة الغاز ومحرقة الجثث ويحتك بلا انقطاع بجثث مشبعة بمادة "زيكلون ب" في محل مشبع هو الآخر بالسم دون أن تمس صحته بسوء.

المستحيل السادس:

إن كــريما "٢" وكريما "٣" يحتوي كل واحد منهما على "١٥" فرناً أما بقية المحارق فتحتوي على "٨" أفران. وحتى في أغلب المحارق المستخدمة اليوم، فإن حرق وإذابــة جثة يستغرق حوالي ساعة ونصف (ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقل الوقت عن ساعة وربع وان هذه العملية لم تكن بطبيعة الحال بالتأكيد أكثر سرعة من الآن في عام ١٩٤٤. ولنأخذ مثلاً حالة "كريما ٢" عندما يتم حرق "٦٠" جثة خلال ســتة ساعات في الخمسة عشر فرناً فستبقى جثث ١٩٤٠ ضحية داخل "الحنفية" مما سيمنع حتماً الــ "الفي" شخص من المحكومين بالإعدام تسميماً بالغازات الذين جاء دورهم من الدخول إلى غرفة الغاز على الفور.

وفــيما يتعلق بالمحارق: نجد في المُؤلّف – المرجع – الأساسي لرؤاول هيلبيرغ "تدمير يهود أوروبا" لكل واحد من المحارق الأربع في بيركنو معطيات وتفاصيل دقيقة تتعلق بالفترة الزمنية لاستغلالها وتشغيلها في طاقتها القصوى. إن أغلب المحارق الحالية، لا يمكنها حرق وتذويب أكثر من خمس جثث يومياً للفرن الواحد، لأنه يجب تبريدها بانــتظام. ولنفــترض إن محارق معتقل بيركنو، تمتلك قوة مشابهة لمحارق اليوم (وهو افتراض غير محتمل أبداً) فإن عدد عمليات الحرق المحققة والممكن تنفيذها خلال فترة وجــود المعتقل، ستصل من ١٢٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً جثة. والحال وحسب مؤرخي "الأبــاديين" تم قتل مليون شخص تقريباً في بيركنو (وفي السابق كان الحديث يدور حــول ٣ إلى ٤ ملايــين). وعــندما كتبنا أن أغلب المحارق الحالية لا يمكنها حرق وتذويب أكثر من خمس جثث في اليوم في كل فرن.

اســتندنا في ذلك إل معلومات حصلنا عليها من محارق "لير مونت فيرون" في فرنســا، "وكالغازي" في كندا وكان بإمكاننا أن نشير، على سبيل المثال، أن أغلب

المحـــارق الألمانية والسويسرية تعمل بمعدل ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة، لكان بإمكانها حرق ٢٣ جثة يومياً في كل فرن. لو أخذنا بأقوال أحد الخبراء السويسريين في حرق الجثث، ولكن المقصود بذلك أفران تغذى بالغاز والأمر يختلف بالنسبة لمحارق بيركنو، لأنها تعمل بالفحم الحجري، "أيفان لاغاسية" أراد أن يعرف بضمير مرتاح، وهو مدير محرقة "الغازي" الكندية، الكمية القصوى لعدد الجثث التي يمكن حرقها في نهار في فرن يعمـــل على الفحم الحجري، لذلك فقد أجرى التجربة ولاحظ بنفسه أنه بعد الجثة السادســـة يـــتفجر الفرن أو يتفسخ. وقد قدر لاغاسيه قدرة أو قابلية حرق مثل هذا الفـــرن فوجد أنها لا تتجاوز أربع جثث في اليوم لكل فرن لأنه يجب تبريد التجهيزات أو الآلـــة بانتظام إذا أردنا تفادي تصدعات خطيرة. وأن المعطيات التي أخذناها بعين الاعتبار فعالية في التقدير بدلاً من أن تكون ناقصة التقدير، علاوة على ذلك، لم نحصل أبداً على إجابات دقيقة فعلاً من أغلب المحارق المتطورة جداً والموجودة حالياً.

٩. الهولوكست والوعد الإلهي

يـــرى الفيلسوف "روجيه جارودي" بأن موضوعة الإبادة الجماعية شأنها شأن الوعـــد الإلهـــي في التوراة، وهي إحدى الذرائع الإيديولوجية لإنشاء دولة إسرائيل. وعادة ما تستخدم ثلاثة مصطلحات للإشارة إلى المعاملة التي لاقاها اليهود على أيدي الألمـــان وهي/ الإبادة الجماعية / الهولوكوست وشواه. أما مصطلح الإبادة الجماعية، فهـــل مدلـــول محدد، وهو إبادة عرق أو جنس. فلو افترضنا أنه كان هناك "جنس" يهـــودي، كمـــا ادعت المقولات العرقية النازية، وكما يدعي القادة الإسرائيليون في الوقت الراهن، لكان علينا أن نتساءل(*):

هل حدثت فعلاً "إبادة جماعية" لليهود أثناء الحرب؟ تقدم المعاجم تعريفاً محدداً لمصطلح الإبادة الجماعية. ويذكر معجم لاروس مثلاً أن الإبادة الجماعية، هي القضاء عـــلى جماعة عرقية وبشكل مخطط ودؤوب بإفناء أفرادها، ولا يمكن لهذا التعريف أن ينطبق بشكل حرفي إلا في حالة غزو يشوع لبلاد كنعان وكما تصف التوراة: واستولى يشـــوع في ذلك اليوم على مقيدة وقتل بالسيف مليكها وكل نفس فيها. فلم يُفلت

(*) روجيه جارودي، الأساطير الإسرائيلية المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، سبق ذكره، ص٢٠٠.

منها ناج. وصنع بملك مقيدة ما صنعه بملك أريحا. ثم توجه يشوع على رأس جيش من مقيدة إلى لُبنة وحاربها، فأسلمها الرب هي أيضاً إلى يد إسرائيل مع ملكها، فدمرها وقتل كل نفس بحد السيف فلم يفلت منها ناج، وصنع بملكها ما صنعه بملك أريحا. بعد ذلك تقدم يشوع من لبنة إلى لخيش وحاصرها وهاجمها، فأسلم الرب لخيش إلى يد إسرائيل، فاستولوا عليها في اليوم التالي، ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف، نظير ما صنعوا بلبنة عندئذ قبل هوارم ملك جازر لمعونة لخيش فقضى يشوع عليه وعلى جيشه فلم يفلت منهم ناج. ثم تحرك يشوع وجيش إسرائيل في لخيش نحو عجلون فحاصرها وحاربوها، واستلوا عليها في ذلك اليوم ودمروها، وقضوا على كل نفس فيها بحد السيف، على غررا ما صنعوا بلخيش. ثم اتجه يشوع بقواته من عجلون إلى حبرون وهاجموها، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتلوا ملكها وكل نفس فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج على غرار ما صنعوا بعجلون وهكذا قضوا على كل نفس فيها.

ثم عاد يشوع إلى دبير وهاجمها، واستولى عليها ودمرها وقتل كل ملوكها، و لم يفلت منها ناج، بل قضى على كل حي كما أمر الرب إله إسرائيل.

يشوع ١٠: ٢٨ — ٤٠

هذه هي الإبادة الجماعية، الكلية، التي لا تترك فرداً واحداً. إنها نموذج للتصفية العرقية، المحمية بإله إسرائيل، يهوه الدموي، وهو الذي فوض يشوع أن يبدأ بإبادة قدسها الإله اليهودي. ولأن إبادة يشوع قد قدسها الإله، فإنها لم تكن في المفهوم الديني / اليهودي نوعاً من أنواع الإبادة الجماعية وأجد من الضروري تدوين بعض نصوص توراتية، كي يكون القارئ على اطلاع بما حصل للمدن الكنعانية (الفلسطينية) أثناء زحف العبران / اليهود نحو كنعان، وبعد وفاة موسى. حيث تكفل

يشـــوع مهمة قيادة حشود العبران نحو العبور واجتياح المدن جميعها. ويقدم لنا سفر العدد نوعاً وحشياً من أنواعه الاجتياح والدمار:

"فحـــاربوا المديانـــيين كمـــا أمر الرب وقتلوا كل ذكر وقتلوا معهم ملوكهم الخمســـة: أوى / وراقم / وصور / وحور / ورابع / كما قتلوا" بلعام بن يعور" بحد الســـيف واسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدهم كلها بمساكنها وحصوها، واستولوا على كل الغنائم. والأســـلاب من الناس والحيوان، ورجعوا إلى موسى والعازر الكاهن وجماعة إسرائيل بالسبي والأسلاب والغنيمة إلى المخيم في سهول مؤاب بالقرب من نمر الأردن مقابل أريحا.

فخرج موسى والعازر وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موســـى ســـخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم:

لمـــاذا استحييتم النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بني إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة الرب، فتفش الوباء في جماعة الرب، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفـــال واقتلوا أيضاً كل امرأة ضاجعت رجلاً ولكن استحييوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً.

العدد: ٣١: ٧ — ١٨

لن ندرس عملية إقحام الأسطورة في التاريخ والإدعاءات المرتبطة بهذا "الترقيع التاريخي(*)" لتبرير سياسية ما، إلا في حالة واحدة: ألا وهي استخدام الروايات التوراتية

(*) روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسية، سبق ذكره، ص٦٤.

كأداة فما برحت هذه الروايات تلعب دوراً حاسماً في مصير الغرب. حيث استخدمت كستار لأشد الأعمال الدموية، منذ اضطهاد اليهود على أيدي الرومان، ثم على أيدي المسـيحيين مـروراً بالحروب الصليبية / ومحاكم التفتيش والحلف المقدس، والهيمنة الاستعمارية التي تفرضها "شعوب مختارة" وحتى عمليات الاغتصاب التي تمارسها دولة إسرائيل.

ويتضـح من كثرة إلحاح شمعون بيريز، على الإبادة / والملاحقة / والشتات / وتكرار المحارق، هدف سياسي، يرمي لتبرئة الضمير اليهودي من جرائمه التي اقترفها خـلال التاريخ الطويل، ابتداءً بدمارات يشوع وانتهاءً بإبادة أطفال الحجارة والقتل العمد للأطفال العراقيين، لذا فإنه يحاول إشراك غير اليهود في تاريخ المجازر التي عرفتها البشرية.

النازية حليف علني لليهود:

تجـاوزت الحركة الصهيونية اللقاء مع النازية بالخطوط العريضة إلى الوقوف في صفها عن طريق كسر الحصار الاقتصادي المضروب حول ألمانيا النازية.

"حنة أردنت"

وفي الوقـت الـذي كانت فيه بريطانيا تعتذر(*) عن قبول اللاجئين اليهود من فرنسـا ومن غيرها أثناء الحرب بحجة مصاعب الإيواء أعربت عن استعدادها لقبول ٣٠٠ ألـف لاجئ هولندي / وبلجيكي، عندما احتلت القوات ألمانية بلادهم. وابتدأ

(*) بـرنارد وسرستاين، بريطانيا ويهود أوروبا ١٩٣٩ – ١٩٤٥، ترجمة: ناجي الحديثي، مجلة آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.

فــرار اليهود، بعد ابتداء حملة القمع النازية، واضطرار الكثير منهم للفرار خارج ألمانيا والمناطق الخاضعة للحكم النازي.

... وقــد اتجهــت عــدة قوارب مليئة باللاجئين اليهود إلى فلسطين وتردد الــبريطانيين في الســماح لهم بالدخول في فلسطين ومن بعد تراجعوا وفق إجراءات مغطاة ببعض الخطوات ذات الطابع البريطاني في إخفاء الهدف الحقيقي من التواطؤ مع الصهاينة بشأن فلسطين... كما أعلنت عدداً من الدول الإحدى عشر / المتحالفة ضد (الجــرائم النازية ضد اليهود) والذي أفسح المجال أمام قبول المزيد من اللاجئين اليهود وإرســالهم إلى فلســطين، ضــمن إطار المخطط الاستعماري / الصهيوني لاحتلال فلسطين.

وقــد هيأت بريطانيا عدداً من المعسكرات لاعتقال اليهود في بريطانيا، وقد تم هــذا بمباركة من الحركة الصهيونية وذلك بدعوى أنهم يشكلون طابوراً خامساً وأن بينهم "٢٠" ألفاً من جواسيس هتلر، كما أشار لذلك "تشرشل".

ويســتمر بــرنارد وسرســتاين" في روايته عن ضعف النشاط الخاص بفصائل التجســس الــنازية، لأن عمــلها كان بدائياً وغير محترف، كما كان مخترقاً من قبل المخابــرات البريطانية. وموجهاً لخدمة السياسية البريطانية، ومما يشير إلى طبيعة هذا الموقف ترحيب الصهاينة به وترويجهم له، رغم أنه موجه ضد اللاجئين اليهود.

ويقــدم الســيد شامير رأياً واضحاً وصريحاً، ولا يقبل الاختلاف، أو الجدل، حيث صارت المجازر سبباً موضوعياً وراء نشوء الكيان السياسي لدولة إسرائيل. وعلى هــذا الكــيان أن يســتمر بحملته الواسعة، الخاضعة لتنظيم أكثر، بعد توفر ممكنات الإشــراف عــلى الحملات والدقة في صياغة وتوجيه كل الخطابات الكامنة وراءها، والمحــركة لها، من أجل أن يحصد الكيان السياسي الجديد، كل الذي يريد والحلم به

وأشرنا لذلك – من أجل صيانة النظام وترميم مداراته الداخلية، والحيوية وهذا واضح كثيراً في مسعى إسرائيل من أجل الحصول عل السلاح من فرنسا (ص٥٤ / مستقبل إسرائيل) وذلك لأن فرنسا، تشعر بموقف تكافلي مع اليهود بسبب الإبادة، ويتجسد الموقـــف الفرنسي لاحقاً. وكان لتلك العلاقة مكونات عديدة، منها العناصر الدينية للمسؤولين الفرنسيين.

ولفرنسا قراءة خاصة بها عن المجزرة وطريقة(*) تنفيذها، وكذلك الموقف الخاص بالمواطنين. هذا كله، له تأثير في صياغة السياسية الفرنسية لاحقاً.

ومما لا شك فيه أن فرنسا(**) كانت سباقة في مساهمتها بخلق قاعدة تكنولوجية / عســـكرية للكـــيان الصهيوني، وذلك بفعل التحالف الذي نشأ بينهما عشية حرب السويس ١٩٥٦. وما استتبع ذلك من تدفق الأسلحة الفرنسية على الكيان الصهيوني ونشوء تعاون في المجال العسكري امتد من عام ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٧، أي عند فرض الحظر الفرنسي على إرسال الأسلحة إلى الكيان الصهيوني. وفي ظل التعاون الفرنسي / الصـــهيوني الوطـــيد على الصعيد العسكري، وتدفق الأسلحة الحديثة / والمعدات الإلكترونية المتطورة. تدفقت التقنيات العسكرية / الفرنسية والخبرات في مجال الإنتاج والتخطيط الهندسي. لقد كان لفرنسا – وهذه الحقيقة يعترف بها شمعون بيريز، الذي واكـــب مراحل التعاون الفرنسي / الصهيوني وعايشه خطوة خطوة – الدور الرئيس لـــيس في تسليح الكيان الصهيوني حتى التخمة فحسب بل وفي مساعدته على تصنيع

(*) روبـــرت ليـــتل، مســـتقبل إسرائيل،ترجمة محمد نجار، تقديم ناجح المعموري، الدار الأهلية للنشر والإعلان، عمان، ٢٠٠٠، ص٣٥.

(**) آفاق عربية / العدد ١، ١٩٧٩، سبق ذكره، ص١٠.

هذا السلاح بنفسه. وذلك عن طريق نقل التكنولوجيا إليه بمقتضى الاتفاقيات العلمية والتعاون بينها وبين العدو.

ومـــن حيـــث دور فرنســـا في خلق ودعم القاعدة التكنولوجية العسكرية / الصهيونية، فقد أفرز هذا الدور النتائج التالية:

تمكـــين العدو الصهيوني من إنشاء صناعة عسكرية أهمها الصناعة الجوية وذلك في ظـــل الـــتعاون. ومنحت فرنسا الصناعة الجوية / الصهيونية ترخيصاً لإنتاج طائرة "الفوجا" ومن المشاريع العسكرية الأخرى، إنتاج أسلحة الزوارق الحاملة للصواريخ، وســـاعدت إسرائيل على إنتاج صاروخ أرض أرض متوسط المدى. ولقد بدأ تطوير هذا الصاروخ بين الكيان الصهيوني وشركة مارسيل داو.

أمـــا في الحقـــل النووي، فقد بدأت فرنسا ومنذ منتصف(*) الخمسينات تقدم الخبرة العلمية في مجال الذرة وإقامة مفاعل نووي في ديمونة. واعترف العدو، بأنه لولا فرنســـا ومساعداتها في مجال التسليح وصناعة الأجهزة الإلكترونية ومحركات وأجزاء الطائـــرات والصـــواريخ المضـــادة للدروع، وصواريخ أرض أرض والزوارق الحاملة للصـــواريخ، لما صمدت إسرائيل في حرب ١٩٥٦ / و ١٩٦٧ لأنها قاتلت بالأسلحة الفرنسية أو الأسلحة التي صنعت في إسرائيل وعلى أساس التكنولوجيا الفرنسية.

وتغـــذي الصهيونية وقائع المجزرة النازية كثيراً لدرجة أنها تستيقظ أحياناً، وفي ظـــروف خاصـــة، من أجل أن تساهم بتصعيد ردود الفعل الإنسانية للتكافل معهم، و"تحريـــر" الضمير الإنساني من بعض هفواته في العلاقة وإياهم. لذا نجدهم يؤكدون دائمـــاً، بـــأن المجزرة ما كان لها أن تحصل لولا كونهم يهوداً، ولذلك، ظلت المجازر

(*) آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩.

النازية مشتعلة بهم، و لم تعرض شعوب أخرى كثيرة لما تعرض له اليهود، بينما يعرف المتابع البسيط الأهوال التي تعرضت لها بولندا مثلاً والخسائر البشرية الخيالية التي صارت حطباً لمجازر حروب الإبادة.

"كاستنر" وبيع اليهود:

وإضافة لما قاله "برنارد وسرستاين" هناك وقائع خفية، سرية في هذه التراجيديا وخصوصاً قضية "كاستنر" الذي باع يهود معسكرات الإبادة بالتعاون مع (إيخمان).

وهي وقائع رهيبة / وخطيرة، ومارست فعلاً دورها في إيقاظ الوجدان الإنساني، وهزت كيان إسرائيل من الداخل، لدرجة أن العالم ابتدأ يتعامل مع المجازر، بوضوح أدق.

وكشفت قضية "كاستنر" أن كبار رجال الصهيونية، قاموا بتجهيز الأغنياء والأثرياء جداً من اليهود، وترحيلهم إلى فلسطين، مع أعداد كبيرة من العلماء / والطاقات/ والكفاءات التخصصية العالية. وتركوا في معسكرات الاعتقال أعداداً أخرى، وهي الحشود غير المرغوب فيها، ضمن نسيج المسرحية التي أعدها "كاستنر". وهم الذين حصل لهم فعل الإبادة، وهذه،/ الحقيقة هي التي ساهمت بنشوء وقيام الكيان الصهيوني. واستطاع (إيخمان) توفير قطار للإنقاذ، وحمل المهجرين، الذين تم اختيارهم وفق امتيازات وصفات خاصة، ودقيقة جداً. وقد وفرت النازية حماية لقطار الإنقاذ، من أجل ضمان وصولهم إلى الحدود. وحدد "كاستنر" عددهم بأكثر من (١٦٨٤) شخصاً تحقق لهم فعل الخلاص والمغادرة، بعيداً عن المجزرة، وأشار "كاستنر" إلى أن العدد الذي دفع به إلى المحرقة، كان ٤٧٦,٠٠٠ شخصاً وهو عدد قريب للعدد الذي أشارت له الدراسات الموضوعية / الخاصة بالهولوكوست.

وقد شهد على هذه المؤامرة الكبرى – كما قال د. سيد محمود القمني – أحد القلائل الذين تمكنوا من الفرار من معسكر "أوشفيتنر" وهو رودلف فيريا" (والذي قدم مع اثنين ذكرناهما قبلاً. في الاستحالات الستة) والذي نشر رأيه في جريدة لندن ديلي هيرالد عام ١٩٦١ وقال:

"نعـــم. أنا يهودي. لكني أقم قيادة اليهود بأهم أبشع ممارسي الحروب، فتلك المجموعـــة كانت على علم مسبق، بما سيحدث لإخوانهم في غرف الغاز النازية ومن بينهم "كاستنر" رئيس مجلس يهود هنغاريا، وقد استقل عدد من يهود هنغاريا الفقراء قطـــارات الـــنقل طائعين بدون مقاومة، لأهم، كانوا قد أخذوا تطمينات من القادة الصـــهاينة، أهم في طريقهم إلى الحرية، بينما يساقون إلى الإعدام، أما جريدة صوت الشـــعب الإســـرائيلية فقد قالت عام ١٩٥٥: أن كل أولئك الأشخاص، الذي ذبح الألمـــان أقرباءهم في هنغاريا، يعلمون الآن وبوضوح، أن قيادات الصهاينة، هي التي دبرت الجريمة مع النازي. ولما فاحت الفضيحة، قدم "كاستنر" للمحاكمة في إسرائيل بضغط الرأي العام من أجل كشف الحقيقة.

عقبت صحيفة إيدعوت أحرونوت في ١٩٥٥ بقولها: أنه إذا تم تقديم "كاستنر" لـــلمحاكمة فـــإن الدولة برمتها تنهار سياسياً وطنياً، نتيجة لما ستكشف عنه تلك المحاكمـــة. و لم يمـــض وقـــت قليل على هذه المحاكمة، حتى سقط "كاستنر" صريعاً بالرصـــاص من مجهول، وكشف بعد ذلك أن قاتله هو (أكشتاين) العميل السري في جهاز الموساد وكان السؤال:

هل من المعقول أن تقدم القيادة الصهيونية هذا العدد من اليهود للذبح؟

ويجـــد السؤال إجابته أولاً في قيام الدولة، وثانياً شهادات العديد من الشهود، ومـــنها شـــهادة (موش شوليفر) مساعد "كاستنر" الذي قال بهدوء: نعم كان يهود

هنغاريا عدداً كبيراً، لكنهم للأسف، لم يكونوا يتمتعون بأي إيديولوجية يهودية. أما قـــائد (الهاجانا فايغل بولكس) فقد التقى بأيخمان في جروبي / القاهرة، وأبدى رضاه التام عن سير التعاون اليهودي مع النازي، كما هو مرسوم له.

وما زالت إلى الآن تتكشف كثيراً من حقائق ذات صلة مباشرة بالمجازر النازية الـــتي حصــــلت. ولعل آخر تلك الحقائق ما صرح به أحد الشباب الألمان، وهو من الجماعة النازية، الجديدة، وفي مقال مهم، نشرته صحيفة نيويورك تايمز. ذكر فيه بأن ما حدث في "أوشفيتز" كان مبالغاً فيه للغاية. وكان نتيجة الحرب، هي انتصار اليهود فيها، حيث خرجوا رابحين منها، وهم الذين كتبوا مسرحية "أوشفيتنر" هذا المعسكر الذي ضم أعداداً كبيرة من اليهود، وتوفر على وسائل للراحة، ومنها أحواض خاصة للسباحة.

لقد مارس اليهود(*) التعاليم العنصرية عملياً من خلال العلاقات البرغماتية التي أقاموهـــا مع النظام الهتلري في ألمانيا لتحقيق الشعار اليهودي / التوراتي "بالمجر سيقطع الرب دابر الضعفاء عديمي القيمة "مقابل تحقيق الغرض الصهيوني بإنشاء دولة يهودية وبالتعاون مع الفاشيين على هجرة الشباب ورؤوس الأموال اليهودية إلى فلسطين. وقد كتـــب حول هذا الموضوع مطولاً (يوري إيفانونف) في كتابه "احذروا الصهيونية" والـــذي نشــــرته وكالة نوفوستي. قال يوري غيفانوف: كان من أبرز قادة "الهاغانا" "فـــايغل بولكس" الذي كان رئيساً لمركز الاستخبارات الفاشية في فلسطين وسوريا. كما كتبت الصحيفة الألمانية الغربية "شبيغل" بهذا الصدد في ١٩ كانون أول ١٩٦٦:

(*) جودت السعد، الشخصية اليهودية عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٠١

إن العميل رايخرت، من مكتب الاستعلامات في فلسطين أقام صلات مع أحد أشهر رجال المنظمة الصهيونية السرية، التي شغلت ، كما لم يشغل شيء غيرها، بال المخابرات النازية.

لقد كانت هذه المنظمة تدعى "هاغانا" وفي المركز الرئيسي لأركان هذا الجيش السري عمل (فايغل بولكس)... وقد وضعت تحت تصرفه كما أشار رئيس قسم الاستخبارات رقم (١١١١٢) المختص بقضايا اليهود "خاغن" الذي حل مكان "فون ميندلشتاين" هيئة جهاز أمن اليهود.

وفي الوقت الذي كان فيه(*) "فايغل بولكس" مع سفاحيه يخدم الاحتياجات الخارجية الألمانية / الفاشية، لم يكن د. "موسيك" الذي دافع زمن حكم غليوم الثاني عن مشروع توطين اليهود في الدولة العثمانية خارج فلسطين، أقل نزاهة في "خدمة" الاحتياجات الداخلية للفاشيين. إن نوسيك الزعيم الصهيوني / والكاتب / والنحات / والشخصية السياسية في مكتب برلين، حيث عملت في حينه الشخصيتان الصهيونيتان المعروفتان (كارتور روبين) و(يعقوب تون) قد صاغ وبمعية النازيين خطة للقضاء على عجائز وفقراء اليهود الألمان.

إن غولدمان / وبولكس / ونوسبك – حلقات الاتصال المباشر مع الفاشية – لم يتصوروا أنفسهم بالأشخاص الشاذين فتوجهاتهم وأطروحاتهم متطابقة مع التوجهات والأطروحات النازية، وهذه الممارسات لم تكن فردية أو باجتهادات شخصية. بل مثلت تعاليم وفلسفة مستمدة جذورها من التوراة. ومن هنا لم تنشأ(**)

(*) جودت السعد / سبق ذكره، س٢٠٢.

(**) سعيد حمو، استراتيجية الكيان الصهيوني وكيف يجب مقاومتها، مجلة آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.

معارضة يهودية على العلاقات اليهودية / النازية بل العكس أخذت هذه العلاقة طابع الرسمية المتسمة بالاحترام المتبادل.

وفي هـذه المـرحلة، في بـرلين، وبتأييد من السلطات النازية عمل ما يسمى (بالمكتـب الفلسطيني) يجد بالاشتراك المباشر مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، فيما بعد "ليفي أشكول" على تصنيف اللاجئين، ويشهد "جون وجدافيد كيمشي" مؤلفا كتاب "دروب غير منظورة" بأن المبعوثين اليهود سافروا إلى ألمانيا النازية، ليس من أجل إنقاذ اليهود، بل من أجل انتقاء الرجال والنساء الشباب وتهجيرهم إلى فلسطين.

كانت الهجرة وظلت هدفاً مركزياً ضمن المشروع الصهيوني من أجل تأسيس كـيان سياسي. وقد ابتدأت الهجرة قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل جداً. ولذا اهتمت الصهيونية بالهجرة / والاستيطان(*) وبدأت طلائع المهاجرين اليهود تتوافد إلى فلسطين العربية في النصف الأول، من القرن التاسع عشر وبين عامي ١٨٨٤ و١٨٨٧ ورصدت المبالغ لتزويد المهاجرين بالمال وشراء الأراضي وتوسعت الهجرة، خاصة بعد المؤتمـر الصـهيوني الأول، الذي نص أحد قراراته على تشجيع الهجرة إلى فلسطين. وأخـذت الحكومات الصهيونية المتعاقبة على تشجيع الهجرة من الأقطار المختلفة إلى فلسـطين، خاصـة من أوروبا وأمريكا، وقد بذل الكيان الصهيوني ولا يزال جهوداً إعلامية / وسياسية / واسعة جداً لتكثيف الهجرة والاستيطان.

ويؤكد "هانس خينه" بأن رئيس قسم مركز الاستخبارات لشؤون اليهود رقم (١١١١٢) دعم بكل قوته نشاط المنظمات الصهيونية المتعلق بإنشاء معسكرات تختص بإعـادة تربـية اليهود الشباب، وإعدادهم للاستفادة منهم في التعاونيات الزراعية في

(*) نفس المصدر.

فلســطين وقد تابع باهتمام وأعطى في قسمه أمراً بوضع خرائط خاصة يدوّن فيها نمو الصهيونية بين اليهود الألمان.

وأشارت (حنة أردنت)(*) إلى الآثار الرئيسية للاتفاق المتبادل والمرضي إلى حد كبير بين السلطات النازية والوكالة اليهودية، فكتبت تقول: إن النتيجة المباشرة لذلك هـي أنه في الثلاثينات وفي الوقت الذي بذل فيه الأمريكيون مساعي جديدة لمقاطعة البضـائع الألمانية، كانت فلسطين تغرق بالبضائع التي تحمل العلامة التجارية "صنع في ألمانية" وبذلك تكون الحركة الصهيونية قد تجاوزت اللقاء مع النازية بالخطوط العريضة إلى الوقـوف في صـفها عـن طريق كسر الحصار الاقتصادي المضروب حول ألمانيا الـنازية. وبحجة تلقي التعويضات عن الأموال اليهودية كانت البضائع الألمانية تغرق أسـواق فلسطين و المنطقة برمتها. كما أن الصهيونية مارست تعاليمها العنصرية قتل الـيهود أنفسهم(**) ففي ٢٥ عام ٩٤ أدى نسف السفينة "باتريه" في مرفأ حيفا إلى مقتل (٥٠) شخصاً من طاقم السفينة و(٢٠٢) راكباً من المهاجرين. وقد سبقت هذه المسـألة سلسلة كاملة من الأحداث وكانت تبدو كأنها حلقة من المناورات المعقدة، دبـرها وأنجـزها بطريقة محكمة رؤساء المؤسسة الصهيونية. وفي الوقت ذاته استمر الإرهـاب النازي (بالاتفاق مع الحركة الصهيونية) ضد اليهود بقوة متنامية. وأصبح طـريق آلاف الـناس في ألمانيا يمر عبر معسكرات الاعتقال أو عبر معسكرات "إعادة التربـية". لقد كتب أحد قادة الاستخبارات الألمانية، هاغن، مستشهداً برأي بولكس العميل الصهيوني والنازي يقول:

(*) جودت السعد / سبق ذكره، ص٢٠٣.

(**) يوري إيفانوف، احذروا الصهيونية، وكالة نوفوستي السوفيتية ١٩٦٨، ص٩١.

كان يسود الأوساط اليهودية(*) ارتياح عميق لسياسة ألمانيا تجاه اليهود، وذلك لأن هـــذه السياسة تساعد على زيادة السكان اليهود في فلسطين، بشكل يصبح معه بالإمكان الاعتماد على تفوق السكان اليهود على العرب في المستقبل القريب.

وأشـــار (هانس خينه) إلا أن السياسة الإنجليزية قد اصطدمت بمناهضة الكتلة الصـــهيونية المؤيدة من منظمة الهاغانا والتي كان يوجد في قيادتها بولكس الشخصية الموثوقـــة عـــند إيخمان. وقد قامت هذه المنظمة "بتكوين شبكة أوروبية من الرجال الموثوقين، الذين كانوا يسهلون هجرة اليهود بصورة سرية إلى فلسطين. وكان رجال "غولومب" على شيء من القساوة للاستفادة منهم في التهجير بمساعدة رجال الحرس الهتلري الخاص.

كانت الشبيبة الهتلرية تجوب شوارع برلين عام ١٩٣١ وهي سنة فوران. وكان الاقتصاد الألماني يتخبط جريحاً تحت أقدام اليهود آنذاك. عليه قرر الصهاينة — وهو ما يـــراه الكـــثير مـــن مؤرخي التاريخ السياسي — أن يكون هناك مزيد من التخريب الاقتصادي في ألمانيا. وأن يفسح المجال واسعاً أمام هتلر لاستلام السلطة والضغط على الـــيهود الذي بدوا أكثر عناداً في عدم الذهاب إلى فلسطين. ثم أن تعلن الحرب على ألمانيا وسحقها وإعادة بنائها من جديد تحت إشراف ملوك اليهود. بعد ذلك، وفي عام ١٩٣٢ فقـــط هاجـــر إلى فلسطين بصورة غير مشروعة ١٥,٠٠٠ من اليهود الألمان الذين كانوا يخشون وقوع الكارثة بصعود هتلر. وفي نيسان ١٩٣٣، تم استيلاء هتلر على مقاليد السلطة وزلزلت الأرض الألمانية تحت أقدام اليهود.

وهـــناك حقيقة عريضة خافية، تلك هي أن أغلب اليهود الذين ذهبوا ضحايا الحكـــم الهـــتلري في ألمانيا لم يكونوا من المؤمنين بفكرة الرجوع إلى فلسطين "الوطن

(*) يوري إيفانوف، احذروا الصهيونية، سبق ذكره، ص٩٤.

القومـــي". وحاولت فئات عديدة الإيحاء إلى هتلر من أن اليهود أصل البلاء في ألمانيا ويجب التخلص منهم وتصفيتهم. وبذلك تربح الصهيونية العالمية من عدة وجوه(*)

الأول: كســبها الرأي العام العالمي وتوجيهه وجهة العطف على اليهود عامة بســبب المجازر الهتلرية وتحويل الرأي العام العالمي إلى جانبها، في سعيها من أجل إقامة الدولة الصهيونية / في فلسطين.

الثاني: إرهاب يهود ألمانيا الباقين، ثم يهود أوروبا وتخويفهم من التوسع الهتلري، كي يعجلوا بالهجرة إلى فلسطين.

الثالث: القضاء على اليهود الألمان الذين يعارضون الهجرة.

الـــرابع: إشـــعال نـــار حرب عالمية تتذابح خلالها ألمانيا وأعدائها وإعادتها إلى الحظيرة المالية الصهيونية.

الخامس: إقامة دولة إسرائيل.

وعندما تولى هتلر مقاليد السلطة، أصبحت أبواب ألمانيا مفتوحة على مصراعيها لســـفر اليهود إلى فلسطين وتم تسفير ١٠,٠٠٠ من يهود ألمانيا إلى فلسطين. كما أن هـــتلر نفسه، كان يلح في طلب إخراج اليهود من ألمانيا كي يستبدل ثرواتهم وخاصة العمـــلات الـــنادرة منها، بفائض البضائع، التي كان اليهود يستبدلون بها أموالهم عند مغادرتهم ألمانيا إلى فلسطين.

واســـتفاد(**) هـــتلر من إخراج اليهود من ألمانيا استفادة كبيرة، خاصة عندما فرضـــت الأوســـاط الـــتجارية الأمريكية والأوروبية التي يسيطر عليها ملوك المال /

(*) ن.م، ص٧٨.

(**) ن.م، ص٧٩.

الصهاينة في نيويورك مقاطعتها للبضائع الألمانية، وكانت الأموال التي حصل عليها هتلر من اليهود قد ساعدته كثيراً في تضخيم الجيش الألماني.

ثم اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية، وكان الصهاينة هم الذين أجبروا هتلر على خوضـــها، كمـــا كانـــت من أجل الصهيونية وفي سبيل تحقق مآرب الصهيونية في فلســـطين. ولقد كتب المؤلف الألماني / اليهودي "أمل لودفيغ" في هذا الموضوع وقبل نشوب الحرب قائلاً:

إن هـــتلر لم يعلن حرباً على أحد،وإنما سيضطر ويجبر على دخولها، لا في هذه الســـنة، بل في السنة القادمة. وكتبت صحيفة "السينتيال" اليهودية / الأمريكية، ذات الـــنفوذ الواســـع في أمريكا في عددها الصادر في يوم ٨ / أكتوبر / ١٩٤٢: أن هذه الحرب القائمة الآن، إنما قامت من أجل اليهود.

١٠. مساعدات الدول الغربية للكيان الصهيوني

لقد أسهمت الدول الغربية مجتمعة في تمكين الكيان الصهيوني من امتلاك القاعدة التكنولوجية ، بل وفي خلق الأساس التحتي، إلا أن لكل دولة دوراً متميزاً. الأمر الذي يقتضي التعرض لمساهمة كل دولة حسب أهمية هذا الدور وخطورته.

وقبل أن نخوض. في ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من إمداد تلك الدول للكيان الصهيوني بكل الجوانب التكنولوجية المتعلقة بإنتاج الأسلحة. فإن هذه الدول دخلت شريكاً مباشراً في صنع الأسلحة المتطورة(*) وبدأت سلطات ألمانيا الغربية(**) ومنذ ١٩٦٠ بتنفيذ برنامج المساعدة العسكرية الألمانية إلى الكيان الصهيوني وتضمن تزويد هذا الكيان بالأسلحة والأعتدة الحديثة ومن بينها التكنولوجيا الألمانية الغربية. وجاء ذلك البرنامج منسجماً مع سياسة سلطة بون التي بدأ منذ لقاء (ولدورف أستوريا) بين المستشار الألماني الأسبق "أدنياور" ورئيس الوزراء الصهيوني الأسبق "دافيد بن غوريون، حيث تم وضع أسس التعاون بين الحكومتين. وهكذا

(*) مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩، ص١٠.

(**) مركز الدراسات / دور الغرب الاستعماري في خلق القاعدة التكنولوجية العسكرية داخل الكيان الصهيوني، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، آذار ١٩٧٩، ص١٤.

وتدريجياً وخطوة بعد خطوة تطور التعاون بين بون وتل أبيب في المجالات المختلفة ولا سيما في الميدان العسكري، الذي لم يقتصر على استغلالها على تطوير الأسلحة. والغريب أن هذه المساعدات بالإضافة إلى المساعدات الاقتصادية – التعويضات . والسياسية جاء في نطاق ما يسمى بالتعويضات وبدافع التكفير عن الشعور بالذنب الذي يحسه الألمان نتيجة لما ارتكبه النازيون.

وهناك تعاون بين سلطات ألمانيا الغربية والعدو الصهيوني / السلطة العنصرية في جنوب أفريقيا في تطوير الأسلحة، وبخاصة الأسلحة الكيماوية والجرثومية.

واستطاعت إسرائيل – أيضاً – تدريب الطيارين فيها. فلقد(*) كشفت الصحف الألمانية في العام ١٩٦٣ أن ألمانيا قد دربت دفعات من أفراد القوة الجوية الإسرائيلية في مدينة "ريند زبرغ" بولاية "شلزويغ هولشتاين" وعندما ترك أديناور الحكم، أدلى بتصريح للصحيفة اليهودية العامة في ألمانيا، شكر فيه مساعدة اليهود على بناء ألمانيا الاتحادية – و لم يقل على تغلغلهم للسيطرة على اقتصادها.

(*) فلسطين والغزو التتري الجديد، وزارة الثقافة والإعلام، السلسلة السياسية، (٥)، بغداد، ١٩٦٤، ص١٠٣.

١١. الأصول الفكرية للاستيطان اليهودي في فلسطين

إنه ليس من شيء يستطيع أن يبقي الحركة الصهيونية حية وفاعلة، إلا بالإيمان الراسـخ.. وإن هذا الإيمان يجب أن يتركز على فلسطين، وفلسطين وحدها، وأن أي انحراف عن فلسطين، يكون بمثابة الكفر بهذا الإيمان".

حاييم وايزمان / المذكرات ٢

تحدث هرتزل كثيراً عن العرق اليهودي واختلافه وتميزه عن الأعراق الأخرى، إنهم شعب يتمتع بخصائص غير موجودة عند شعوب الأرض، وهذا واحد من الأوهام الفكـرية الـتي غذته الصهيونية بجذورها التوراتية التي أشارت بأن اليهود شعب الله المختار، وهذه واحدة من الأساطير الإسرائيلية المؤسسة للسياسية الصهيونية،"سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات".

سفر التكوين ١٥: ١٨

وهذا وعد إلهي للعبران / اليهود بمكرمة سخية لم يجز عليها شعب آخر من قبل، وهـذا الوعـد، هو هبة الإله لشعبه المختار، وهو وعد بالاستقرار، بعدما عانى هذا الشـعب كثيراً بسبب الشتات في سيناء، بعد خروجهم مع موسى ويتناغم هذا الوعد

الإلهي مع كل الشعوب المرتحلة / الرعوية بحيث يصير الحضور / والاستقرار حلماً له. وقـــد عرفت كل شعوب العالم هذه المرحلة الحضارية(*) وهذا الوعد المقدم للعبران لا من أجل الغزو والاستيطان وطرد الشعب المستقر.

ولهذا أصبح هذا الوعد جزءاً من التراث الديني والقصصي لدى عدد من القبائل والشـــعوب، كمـــا قال جارودي. كما لم يكن هذا الوعد السخي منطوياً على طرد شـــعب كامل وإنما دعوة للاستقرار، وأضاف جارودي بأن هذا الوعد لم يكن وعداً يهويـــاً وإنما قطعة الإله الكنعاني "إيل" في واحدة من تجلياته – وكما قال جارودي – فإن الإله المحلي وحده الذي يملك الملك وهو القادر على التصرف بها.

والوعـــد "البدوي"(**) الذي يهدف إلى توطين قبيلة من الرعاة لتوفير الاستقرار لهـــم، يـــرجع إلى فـــترة مبكرة، فإن الأمر مختلف بالنسبة للوعد الأوسط ذي الأبعاد "القومية" إذ أن قبائل الإسرائيليين لم تتوحد إلا بعد قدومها إلى فلسطين، ومن ثم فإن إعادة تفسير الوعد ليصبح وعداً بالسيادة السياسية لم تحدث إلا في فترة لاحقة، وعلى ذلـــك، فإن الوعد الوارد في سفر التكوين ١٥: ١٨ – ٢١، والذي يشير إلى سيادة شـــعب مختار على جميع المناطق الواقعة في نهر مصر (وادي العريش) إلى النهر الكبير (الفـــرات) وعـــلى جمـــيع الشعوب التي تسكنها، لم يكن سوى نبوءة مستوحاة من غـــزوات داود. كمـــا برهنت أبحاث المفسرين على أن توسيع نطاق الوعد (الأبوي) ليصبح وعداً "قومياً" لابد وأن يكون قد حدث قبل تدوين روايات الآباء الأوائل للمرة الأولى.

(*) للاطلاع أكثر يراجع: روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الشروق، عمان ١٩٩٨، ص٤٥.

(**) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٤٧.

ومـــن الأصول الأخرى للصهيونية، هي أسطورة الشعب المختار، الذي اختاره الإله يهوه من بين شعوب الأرض وتكفل بالدفاع عنه، وأخذ بيده في خرافة خروج لا مثيل لها و تكفل بالدفاع عنه وأخذ بيده في خرافة خروج لا مثيل لها "ثم قل لفرعون: هذا ما يقوله الرب:

إســـرائيل ابـــني البكر. أقول لك: أطلق ابني من مصر ليعبدني وإن رفضت أن تطلقه أقتل ابنك البكر".

سفر الخروج ٤: ٢٢ — ٢٣

وتمثل هذه الأسطورة — كما قال روجيه جارودي — في الإيمان، بدون أي سند تـــاريخي، بأن عقيدة التوحيد ولدت مع العهد القديم، إلا أنه يُستدل من العهد القديم نفسه، أن صاحبي المصدرين الرئيسيين لنص العهد القديم وهما المصدر اليهوي والمصدر الألوهـــيمي لم يكونا من الموحدين، فهما لا يتحدثان إلا عن تفوق الإله العبراني على الآلهـــة الأخرى، بل وغيرته ... ولم تترسخ عقيدة التوحيد إلا بعد النفي ومع الأنبياء على وجه التحديد.

ويستند الصهاينة إلى حجة دينية، شكلت مركز الإيديولوجية الصهيونية وهي النص الذي يمنح فيه الرب الأرض / كنعان لنسل إبراهيم. وأشار روجيه جارودي إلى أن التفسير هذا قائم على عزل النص عن مجموع نصوص الكتاب المقدس، وعن الإطار التاريخي، عن تصور قبلي للدين، فالواقع أن العهد قد صيغ في أيام إبراهيم وفق نموذج العلاقات الاجتماعية في كل الشرق الأوسط في ذلك الحين: إذ كانت قبيلة تتعاهد مع ســـيد ما تعده بالطاعة مقابل حمايته. ويختتم هذا الميثاق كما ذكر الكتاب المقدس — بذبح حيوانات التضحية. ويعد الختان رمزاً لهذا العهد.

وتفسير العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالجوانب الخارجية الحرفية / البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختار وغير المختارين.

إن هـذا "التصلب – كما قال جارودي – من جانب المؤسسة الدينية، يترك آثاراً سياسية خطيرة، فهو يؤدي إلى إضفاء شرعية دينية على النـزعة القومية، ولقد كانـت حجـج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون العداء للسامية، إذ يتهمون اليهود بأنهم مسؤولون عن موت المسيح.

وتضمنت التوراة في بعض من أسفارها، معارضة مع المفهوم العرفي / أو القومي وكذلك مع الحجة الدينية، لأنها – أي التوراة – تجاوزت هذه العقدة المميتة / والقاتلة وتخطتها كما سنلاحظ ذلك في اثنين من أهم الأسفار التي أشرت مفهوماً مختلفاً عن الحجة الدينية.

"وأنتم هي هذه الذرية التي أختارها من بين الشعوب كما ترون اليوم. فكرسوا قلوبكم للرب، يا بني إسرائيل، و تعاندوا بعد الآن".

سفر التثنية ١٠: ١٥ – ١٧

ويـتكرس الخطاب الديني ويتحول أمراً ملزماً، ودعوة صريحة من أجل نظافة القلب / ختانه، وهو تعبير مجازي واضح وهذا ما أشار له النبي أرميا. وهذه الإشارة، تمـثل ارتحالة مهمة / وجديدة في الديانة، وتكاد تكون تحولاً مهماً في اليهودية وقال الرب لرجال يهوذا وأورشليم:

"افـلحوا أرضـكم غير المفلوحة ولا تزرعوا بين الأشواك. عاهدوا الرب في قلوبكـم يـا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج غضبي كالنار لشرِّ أعمالكم. فيحرق ولا من يطفي". سفر أرميا: ٤: ٣ – ٤

وانطوت النظرية العنصرية للصهيونية(*) على تصور قبلي للدين ولذا فإن المطالبة (بالحقوق التاريخية) لليهود في فلسطين تستند إلى تعمية وتزييف تاريخيين: فالبلاد التي يســـميها الكتاب المقدس أرض كنعان، والتي سميت بفلسطين منذ أيام الرومان (أرض الفلســـتينيين) تقع على الهلال الخصيب، الممتد من الفرات إلى النيل وهو موقع تاريخي عـــبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب. وحين جاءت قبائل إبراهام في القرن الثاني عشـــر ق.م من أراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في أرض كنعان فإنها لم تأت إلى صـــحراء مهجورة و لم تكن أول من يقطن هذه الأرض، فقد وصل إليها الآموريون قبلهم بـــ ٣٠٠ سنة وجاءها الآراميون في القرن الثاني عشر ق.م وبعدهم بقليل نزل الفلستينيون في المنطقة الساحلية. و لم يطرد داود الفلستينيين والآراميين – نحو ألف عام ق.م – إلا عن طريق الحرب.

ثم أصبحت البلاد(**) بعد ذلك إقليماً آشورياً في القرن الثامن ق.م وغدت فيما بعـــد إقليماً رومانياً / ثم فارسياً ثم عثمانياً قبل أن تنتقل إلى يد المستعمرين الإنكليز. فـــأي تلاعـــب تاريخي هذا الذي لا يذكر من كل هذا التاريخ سوى بضعة أحداث: هجـــرة إبراهـــيم مـــن بين كل الهجرات، ومملكة داود من بين كل الممالك، وثورة المكانيين من بين كل الثورات.

لقـــد رفـــع المفكـــر "روجيه جارودي" صوته عالياً في كتابه المهم (الأساطير المؤسســـة للسياســـة الإســـرائيلية) ضد الحركة العنصرية / الصهيونية، دون المساس بالـــيهودية باعتـــبارها عقيدة دينية، وهو بذلك يؤسس عزلاً بين الصهيونية كحركة عنصـــرية وبـــين اليهودية كدين لا علاقة له بالتمايز العرقي بين الأفراد والشعوب.

(*) روجيه جارودي، مجلة آفاق عربية، بق ذكره، ص٢٣.

(**) روجيه جارودي، آفاق عربية، سبق ذكره، ص٢٣.

وبسبب الموقف الفكري الواضح والصريح، تعرض روجيه جارودي لحملة ظلمة من قـــبل الحركة الصهيونية ومعروفة لنا تفاصيل ما حدث للمفكر جارودي بسبب اتهامه بالعداء للسامية.

ولــــلمفكر إســـحق دوبتشـــر رأي آخـــر، يندفع باتجاه مختلف ومتعارض مع الصــــهيونية / العرقـــية ويمثل رأيه شيئاً متبايناً مع كونه يعتنق اليهودية "وأعتقد أنه لا يمكـــن(*) تبرير بحث اليهودي عن هويته إلا في حالة واحدة فقط ألا وهي حالة ما إذا كان ذلك البحث سيساعده في نضاله من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء.

ولهذا توصل روجيه جارودي إلى توصيف، تشكل معتمداً على الأصول الأولى في الخطـــاب الصـــهيوني، استعارها ودفع بها، ضارباً الصهيونية / بعنصريتها المعروفة وقال:

١. العنصرية مذهب سياسي:

ومنذ ١٨٩٦، أصبح مصطلح الصهيونية مرادفاً للحركة السياسية التي أسسها ثويدر هرتزل"

المصدر: موسعة الصهيونية وإسرائيل، دار هرتزل لنشر، نيويورك ١٩٧١، المجلد ٢، ص١٢٦٢.

(*) إسحق دوتيشر، اليودي اللايهودي، ت: ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٤٠.

٢. وهي مذهب قومي:

لم يولـــد مـــن رحم الديانة اليهودية، بل من النزعة القومية الأوروبية في القرن التاســـع عشر. لم يكن مؤسسة الصهيونية / السياسية هرتزل يعترف بالمرجعية الدينية "إني لا أخضع لأي وازع ديني".

المصدر: ثيودر هرتزل، اليوميات، ١٩٥٨.

"أنا غنوصي"

و لم يكن محور اهتمامه هو الأرض المقدسة، على وجه الخصوص فقد كان يقبل أيضـــاً، من أجل أهدافه القومية، أوغندا أو طرابلس، أو قبرص / وأو الأرجنتين، أو موزمبيق / أو الكونغو.

المصدر: هرتزل / اليوميات

ولكنه إزاء معارضة أصدقائه من المتدينين اليهود، أصبح يعين أهمية / الأسطورة الجبارة / على حد تعبيره والتي تشكل صيحة حشد ذات سطوة لا تقاوم.

المصدر: هرتزل، دولة اليهود، ص٤٥.

وهذا شعار تعبوي، لم يكن بوسع أي سياسة على درجة عالية من الواقعية أن تغض الطرف عنه. وكان هرتزل هو نفسه الذي أعلنه بشكل صريح، محولاً ،أسطورة جبارة) هي أسطورة "العودة" إلى واقع تاريخي، "إن فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يُنسى.. وسوف يصبح هذا الاسم وحده صيحة الحشد الجبارة لشعبنا.

المصدر: هرتزل، دولة اليهود ص٢٠٩.

"إن المسألة اليهودية لا تعني بالنسبة لي مسألة اجتماعية، أو مسألة دينية... إنها مسألة قومية".

٣. وهي ثالثاً مذهب استعماري:

وهـــنا لا يخفـــي ثيودور هرتزل، الواعي تماماً حقيقة أهدافه. فالمرحلة الأولى بالنســـبة له هي تأسيس شركة ذات امتيازات" تحت حماية إنجلترا أو أية قوة أخرى، وذلك لحين تحويلها إلى دولة يهودية.

مذهـــب سياسي / وقومي / واستعماري: هذه هي الخصائص الثلاثة التي تحدد طبـــيعة الصـــهيونية السياســـية، التي تحقق لهال النصر في مؤتمر "بازل" الذي عُقد في أغسطس / آب ١٨٩٧، وهو ما أتاح لمؤسسها العبري الميكيافيلي "ثويدوز هرتزل" أن يعلن عن حق في ختام هذا المؤتمر "لقد أُسِّست الدولة اليهودية.

هرتزل: اليوميات، ص٢٢٤.

نقـــلاً عن: روجيه جارودي / الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص٢٤-٢٦.

ويوحد جارودي بين الماضي / والحاضر، بين يشوع بن نون وبين مناحيم بيغن ومنظمة "أرجون" التي مارست فعل الإبادة لسكان قرية دير ياسين يوم ١٩٤٨/٤/٩ حـــتى بلـــغ عدد الرجال / والنساء / والأطفال الذين راحوا ضحية لمنظمة "أرجون" ٢٥٤ فـــرداً وذلـــك لإثارة الخوف والرعب في نفوس العرب، من أجل إخلاء بيوتهم ومغادرة قراهم. وهم بذلك يمارسون فعل القتل تماهياً مع ماضيهم / وتاريخهم الأول، يوم اجتاح يشوع أريحا. ويطرح جارودي السؤال التالي:

ألم يكن صوت يشوع هو نفسه صوت موشي ديان، الذي قال: "إذا كنا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة.

وقد أصبحت نزعة(*) "التطهير العرقي" هذه نهجاً ثابتاً لدولة إسرائيل الحالية، وهي تستمد أصولها من مقولة النقاء العرقي التي تحرّم اختلاط الدم اليهودي "بالدم النجس" لدى كل الأجناس الأخرى. ففي السطور التي تلي أمر الربّ إلى موسى بإبادة سكان البلاد التي يستولي عليها" يوصي الرب موسى بألا يتزوج بنو قومه من بنات الشعوب التي تقطن هذه البلاد: سفر الخروج ٣٤: ١٥، ١٦.

وينص سفر التثنية على أنه لا ينبغي للشعب "المختار" أن يختلط بالشعوب الأخرى:

ولا تصاهروهم، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم ولا أبناءكم من بناتهم".

التثنية ٧: ٣

وهذا الفصل العنصري هو السبيل الوحيد للحيولة دون تدنيس الجنس الذي اختاره الله، والعقيدة التي تربط هذا الجنس بالإله. وكتب الحاخام كوهين قائلاً: يمكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين، إسرائيل من جهة والأمم الأخرى مجتمعة من جهة أخرى. فإسرائيل هي الشعب المختار وهذه عقيدة أساسية.

وتتضح العقدة العرقية أكثر وتتبدى بوضوح بكلام عزرا بعد العودة عندما قال:

"فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واطلبوا مرضاته، وانفصلوا عن أمم الأرض وعن النساء الغريبات فأجابت الجماعة كلها بصوت عظيم: سنفعل ما طلبتنا به".

سفر عزرا: ١٠ – ١١ – ١٢

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٧٤.

أما نحميا فقال: طهرتهم من كل غريب.

١٣: ٣٠

إن هـذا الهلع المرضي من الاختلاط، والرفض للآخر(*) يتجاوزان حدود البعد العرقي. فرفض الاختلاط بدم الآخر من خلال الزواج المختلط يعني رفض دينه وثقافته وطريقـته في الحـياة. ذلك لأن الإله يهوه يشتعل غضباً من أولئك الذين يحيدون عن شريعته، وهي الشريعة الوحيدة.

ويلاحـظ "حاييم كوهين" الذي كان أحد قضاة المحكمة العليا الإسرائيلية، أنه "مـن مفارقـات القدر المريرة، أن تكون الدعاوى البيولوجية / والعرقية التي روجّها الـنازيون، والـتي استلهمتها قوانين نورمبرغ المشينة، هي نفسها التي تشكل أساس تعـريف اليهودي داخل الدولة الإسرائيلية. وقد أقرت القوانين العرقية(**) أثناء مؤتمر الحـزب في نورمبرغ عام ١٩٣٥. ووجهت تهمة العرقية إلى عالم الأجناس "جوليوس سترايتشر فقال:

نعـم شـاركت في هذا العمل، على اعتبار أنني ظللت أكتب على مدى عدة سنوات عن ضرورة منع اختلاط الدم الألماني بالدم اليهودي منعاً باتاً في المستقبل. وقد كتبت عدداً من المقالات حول هذا الموضوع، وذكرت مراراً وتكراراً أنه ينبغي علينا أن نـتخذ الجنس اليهودي، أو الشعب اليهودي نموذجاً لنا. ويتعين على كل الأجناس الأخرى أن تتخذ من اليهود نموذجاً يحتذى، لأنهم ألزموا أنفسهم بشريعة عرقية، هي موسى التي تقول متى دخلت أرضاً غريبة فلا تصاهر الغرباء. التثنية ٧: ١ – ٣

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٧٦.

(**) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٧٧.

وورد نص واضح في قوانين نورمبرغ(*)

بـــناء عـــلى رغـــبة الفوهر فإن قوانين نورمبرغ لا تعني في حقيقة الأمر فرض إجراءات ضد نشر مشاعر الكراهية العنصرية وزيادة حدهًا، بل إنها على العكس من ذلـــك تـــؤذن بـــبداية نوع من الهدوء والاستقرار في العلاقات بين الشعب اليهودي والشعب الألماني... إن استشهاد اليهود لا يقارن بأي استشهاد آخر، فطبيعته المقدسة تجعلـــه جزءاً لا يتجزأ من مشيئة الله وإيذاناً بعهد جديد، شأنه شأن صلب يسوع في الفكر الديني المسيحي. ولهذا أعلن الحاخامات. (إن إنشاء دولة إسرائيل هو الرد الإلهي على الهولوكوست) ولكي يغدو هذا الطابع للهولوكوست مبرراً، فمن الضروري أن تكون هناك إبادة كاملة، وخطة سرية محكمة التنفيذ لعمليات الإعدام ثم حرق الجثث ولابد للحل النهائي من إبادة.. إلا أنه لا يوجد أي نص يثبت أن النازيين كانوا يعنون بـــ(الحل النهائي) للمسألة اليهودية إبادة اليهود.

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص٧٨ – ٢٠٨.

١٢. جذور الاستيطان اليهودي

صـــار واضحاً للقارئ بأن الذي حصل في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية له أهـــداف سياسية بالغة الأهمية والدقة وهدفها الأول والأخير، تشكيل وصياغة الرأي العـــام العالمي أو على الأقل الأوروبي من أجل اليهود وإنقاذهم، لأنهم كثيراً ما تعرضوا للاضطهاد، ولقد حان الوقت من أجل تحديد وطن لهم يجمعهم ويخلصهم من الشتات في العـــالم، ويبعدهم عن الاضطهاد والمجازر، والتي آخرها تلك التي حصلت في الحرب العالمـــية الثانية، والتي – أيضاً – ساهم الإعلام بصياغتها كأسطورة، مبالغ فيها، وقد حاولـــنا تقـــديم صورة لها وبدرجة مقاربة لما حصل في الغرب. وهذا كله ما كان أن يكون ، لولا الجذور الأولى التي صاغت حلم الصهيونية بوطن لليهود وسنقدم في هذا المبحث وصفاً للجذور الأولى التي وضعت أسس الحلم الصهيوني وتحديد المكان الذي ســـيكون وطـــناً لهـــم. كما ستكشف لنا هذه المعلومات تاريخية المخطط، واشتغال المؤسسة الصهيونية على الوطن اليهودي.

لقـــد عملت أغلب التجمعات اليهودية(*) باتجاه تهجير اليهود إلى فلسطين على الرغم من أنها لم تكن ذات برنامج واضح فمنهم من كانت فلسطين بالنسبة له كأي مكـــان آخر يمكن توجيه الهجرة إليه، ومنهم من كان هدفه لا يتجاوز تحسين أوضاع الطائفـــة اليهودية في فلسطين. إلى جانب هذا يجب أن نذكر أيضاً موقف مجموعات دينية كبيرة لمواجهة مشاريع الهجر والاستيطان هذه. حيث كانت تعتقد بأن العودة إلى فلســـطين وإعادة تشييد الهيكل، أمور مرهونة بظهور المسيح، وأن عملية تحرير اليهود شـــيء لا يمكن أن يتم بجهد بشري. وعلى سبيل المثال عن هذه(**) المجموعات، يمكننا ذكر تجمع "الحولكاه" "الصدقة" والتي استطاعت إفشال مشروع جمعية "يهودا الكلعي" المذكورة سابقاً، وكانت حجتها في الوقوف بوجه حركات الاستيطان، أن العمل في الأرض — وهو هدف هذا البرامج — بصرف اهتمام شعب إسرائيل عن دراسة التوراة الـــتي يجب أن تكون في طليعة كل اهتمام. ولقد كانت أفكار من هذا النوع تسيطر على قسم كبير من اليهود المقيمين في فلسطين.

هكذا كان الوضع بشكل عام بالنسبة للطائفة اليهودية في فلسطين قبل وصول طلائـــع الهجرة الصهيونية الأولى. المستوطنة الوحيدة التي تستحق أن نطلق عليها هذا الاســـم كانت قد هُجرت والطائفة اليهودية استمرت كما كانت بارزة التواجد في بعض المدن محدودة الأثر والفعالية.

لقـــد ظهـــرت بوادر العداء للسامية في أوروبا مع صعود الرأسمالية، واشتداد المـــزاحمة والتنافس الاقتصادي، لتتحول فيما بعد إلى حركة سياسية ذات إيديولوجية

(*) نعمـــان كنفاني، الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل مؤتمر بازل — ١٨٩٧، مجلة آفاق عربية، العدد (٣)، ت: ١٩٧٥.

(**) نعمان كنفاني، سبق ذكر، ص١١.

عرقـــية وأحزاب سياسية تدين لها بالولاء ضمن هذا الجو، ويظل الفشل الذي كانت حـــركة (الهسكلاه) – التنوير اليهودي – تعانيه وهي الحركة التي كانت التجمعات الـــيهودية تلقاه في أوروبا الشرقية / وروسيا القيصرية بشكل خاص، ولدت البذرة(*) الصهيونية، ولاقت الأرض الخصبة والملائمة لنموها وازدهارها.

إن الظـــرف التاريخي الدقيق الذي ظهرت في كتابات النظريين والرواد الأوائل للفكرة القومية / اليهودية، – والتي ربما هي بذاتها كانت نتاجاً لهذا الظرف الدقيق – والـــذي تـــرافق مع الفشل بتحقيق الاندماج – سواء الفشل اليهودي عبر تنظيمات "الهسكلاه" أو الفشل الأوروبي عبر مبادئ المجتمع الليبرالي – فتح الباب على مصراعيه لمفكري وإيديولوجي الاختيار الثاني للوصول إلى الجماهير اليهودية العريضة. وهكذا لم يكن من المستغرب أن يأتي التنفيذ العملي لمجمل الآراء النظرية دون وجود فارق زمني كبير بينهم. أي أن توفر الظروف الذاتية / والموضوعية (اللاسامية من جهة والمواقف الاســـتعمارية من جهة أخرى من أجل المشروع الصهيوني، هو الذي جعل الفترة بين مـــناداة المفكـــرين بضرورة البحث عن أرض للشعب اليهودي وتحديد هذه الأرض بفلســـطين – على درجات متفاوتة بالدقة – وبين بدء التنفيذ العملي للمشروع فترة صغيرة جداً نسبياً.

وأبرز الكتاب اليهود الرواد الذين قدموا آراء نظرية هم:(**)

(*) نعمان كنفاني، سبق ذكره، ص١١.

(**) نعمان كنفاني، سبق ذكره، ص١١.

هيرش كاليشر: ١٧٩٥ – ١٨٧٤

وأهـــم كتبه "البحث عن صهيون" أصدره عام ١٨٦٢ وكان موجهاً بالأساس ضـــد فكـــرة اندماج اليهود في المجتمعات القائمة، ولصالح أهمية الاحتفاظ بالمقومات الخاصــة للـــيهود في كل مكان، وهي المقومات التي تؤهل اليهود، كي يكونوا شعباً واحداً يحمل سمات قومية واحدة، لا ينقصها إلا الأرض حتى تتكامل.

موس هس: ١٨١٢ – ١٨٧٥:

وهو من أبرز مفكري تلك المرحلة، وقام بنشر كتابه الشهير "روما والقدس" في نفـــس العام الذي نشر فيه "كاليشر" كتابه. ولقد اقترح إنشاء دولة يهودية بفلسطين تقوم على أسس / اقتصادية / شيوعية. وكان يتوقع الدعم من فرنسا لأنها كانت تسير في شـــق قناة السويس. وتعطينا حياة وتطور أفكار "موس هس" نموذجاً للتحول. من ثم ترك اليهودية وعمل مع كارل ماركس بالحركة الاشتراكية. ولكن تغيرات تدريجية طـــرأت عـــلى موقفـــه، ما لبث أن أعرض عن الماركسية باتجاه مثالية يهودية مغرقة بالتطرف. واصدر كتابه المذكور "اليهود شعب يصنع التاريخ" وهم مدعوون مصيرياً لـــتحويل العالم، أما السبب فيرجع إلى كون اليهود دون سواهم قد حققوا في حياتهم القومـــية الذاتية، مبدأ الوحدة بين الدائرتين الروحية / والمادية. وكي يتسنى لليهود أن يحققوا هذه الرسالة، وجب أن يغيروا بناء حياتهم القومية بفلسطين، فيكتشفوا أنفسهم من جديد كشعب. وأضاف "موس هس":

أية دولة أوروبية ستعارض اليوم مشروع اليهود المتحدين لشراء أرض أجدادهم ثانية؟ من سيعارض اليهود لو ألقوا بحفنة من الذهب إلى تركيا المتهافتة وقالوا لها: ردي إلينا أرضنا؟

آري غوردون: ١٨٥٦ – ١٩٢٢:

ومن قبله أبوه، دافيد غوردون ١٨٣١ – ١٨٨٦ والأول هو الذي وضع أساس ما سمي فيما بعد "بدين العمل" وهي دعوة للتجدد اليهودي عن طريق العمل في أرض إسـرائيل، وبالـتحديد العمل اليدوي / والزراعي / والتخلي عن الأعمال اليهودية التقلـيدية.وكـان آري يعتبر العمل بالأرض والارتباط ببقعة ثابتة من أهم مقومات النجاح لتأسيس الكيان القومي:

"... كـل ما نريد تحقيقه في فلسطين هو القيام بأيدينا بجميع الأعمال، والمهن والوظـائف انطلاقـاً من المهن السهلة المحترمة وحتى المهن المحتقرة والصعبة، يجب أن نتذوق ما يشعر به العامل. ونفكر كما يفكر، فهذا العامل هو الذي سيهبنا الحياة.

آشر غنزبرغ: ١٨٥٦ – ١٩٢٧:

واسمه العلمي الأكثر شهرة "أحد هاعام" – أي واحد من الناس – وهو الذي اعتـبر فلسـطين بمثابة "المفتاح الرمزي لمستقبل يهودي تسوده قيم جديدة ويخالطه إحساس جدير برسالة اليهود".

وكـان يعتقد بأنه "لابد من وجود أمة واحدة تؤهلها خصائصها المتأصلة على نحـو أفضل، مما تؤهل غيرها للتطور الأخلاقي... ولقد تزعم – فيما بعد – فرعاً من ثلاثـة فروع للصهيونية، وهو فرع "الصهيونية الثقافية" أو "الصهيونية الروحية" والتي اشتهرت باعتدالها وحساسيتها الأخلاقية تجاه عرب فلسطين "يا إلهي .. هل هذه هي غايتـنا؟ تقتيل العرب الأبرياء، هل هكذا يتحقق حلم العودة إلى صهيون؟ أن نصبغ ثراها بالدم الزكي البريء. إذا كان هذا توطئة لمجيء المسيح فإنني لا أود أن أراه".

ليونيسكر: ١٨٢١ – ١٨٩١:

إنـــه من أهم منظري الصهيونية، وتأتي أهميته في تاريخ المشروع الصهيوني من عاملين:

أولهما: إن كتابه الشهير (التحرر الذاتي) الذي أصدره عام ١٨٨٢ ووضع فيه تصـــوراته عـــن أهمية وضرورة الكيان القومي وكان في الواقع برنامجاً نظرياً للحركة الصـــهيونية حـــتى فيما بعد مؤتمر "بازل" وقال "هرتزل" عن هذا الكتاب: لو قرأت كتاب التحرر الذاتي من قبل، لما كان هناك داع لتأليف كتابي "الدولة اليهودية".

وثانـــيهما: عقب إصدار هذا الكراس وبتأثيره، بدأت تتشكل طلائع المنظمات الصـــهيونية، الـــتي تتبنى البرنامج الذي وضعه "نيسكر" وبدأت تعمل في سبيل تحقيقه عملياً. مبدئياً يجب أن نلاحظ بأن "نيسكر" لم يصنع فكرة الوجود القومي / اليهودي، على أساس الأرض الفلسطينية، وعلى الأقل لم يحدد فلسطين كمكان وحيد وضروري لـــتكامل الشـــعب اليهودي، بل إن اهتمامه كان منصباً على التركيز بأن تحرر اليهود يكمن في وجود دولة يهودية مستقلة سياسياً، دون أن يحدد مكاناً لها.

ونقاط التشابه في الحقيقة بين هرتزل وبنسكر أكثر من أن تحصى. إذ أن هرتزل لم يكن في البداية يؤكد على أن فلسطين هي المكان الوحيد لتلك الدولة، ومشاريعه في أوغـــندا وصـــحراء ســـيناء تؤكـــد ذلك، إضافة إلى التشابه الكبير في آرائهم حول البسيكولوجية، البشرية. يقول هرتزل:

توصـــلت إلى اتخاذ موقف أكثر انفتاحاً من اللاسامية، فبدأت تفهمها تاريخياً وأغفر لها، ولقد أدركت قبل كل شيء عقم ولا جدوى المحاولة الرامية إلى مجابهتها.

نعـود إلى "نيسكر" لنرى السلوك المتوجب على العالم، وعلى الأقلية ذاتها أن تسلكه كي تحرر نفسها بنفسها:

"امـنحونا سعادة الاستقلال، واسمحوا لنا بأن نكون سادة مصيرنا الوحيدين، اعطنا رقعة صغيرة من الأرض، وامنحونا ما منحتم العرب والرومانيين، حسنة الوجود القومـي الحر، ثم تجرأوا بعد ذلك على إصدار حكم يستهين بنا... أو تعييرنا بانعدام الرجال العباقرة فيما بيننا".

طالمـا أن الـيهود(*) يعتبرون أنفسهم أصحاب "الكتاب المقدس" وأنهم من ثم "شـعب الكتاب المقدس" فإن عليهم بالمثل أن يمتلكوا "أرض الكتاب المقدس" أرض فلسـطين بوصفها "إقطاعية من الرب، اقتطعها لهم يهوه... وقد كان لهذا الأمر أثره البالغ فيما ظهر أثناء مؤتمر (بال) من اتجاهات وما اتخذه من قرارات بخصوص الاتفاق على إنهاء الخلافات بين الأطراف المعنية.

واعتبار فلسطين، البلاد الذي يجب أن يتجهوا إلى التوطن فيه، كذلك فيما قام مـن تحالف بين الصهيونية وبريطانيا منذ ذلك الوقت. ويعزو الدكتر أميل توما، ذلك إلى "نشـوء ظروف تساوقت فيها مصلحة الإمبريالية / البريطانية / والصهيونية. وقد عبر هذا عن نفسه فيما بعد بإعلان وعد بلفور عام ١٩٢٧.

وقد جاءت الهجرات مطابقة لما رسمه هرتزل. حيث هاجرت في البداية الأيدي العاملـة(**) في حين لم يهاجر من بورجوازيي اليهود وكبار طبقة الاحتكاريين، سوى رؤوس أموالهـم. وقد حدد هذا الوضع منذ البداية، البنية الطبقية للتجمع الاستيطاني،

(*) هادي طعمة، العنصرية الصهيونية – الإيديولوجية والتكوين الاستيطاني، آفاق عربية، العدد (٦)، ١٩٧٨، ص ٧٣.

(**) هادي طعمة، سبق ذكره، ص٧٧.

وهـــي التي ستتضح معالم صورها مع مرور الوقت وازدياد المهاجرين، والاقتراب من موعد الإعلان عن الدولة الإسرائيلية.

قامـــت هـــذه الهجرات على أساس أن هناك "شعباً" دون أرض، هو الشعب الـــيهودي، وأن هناك أرضاً – فلسطين – دون شعب" وقد ظل هذا المنطق العنصري ســـائداً مـــنذ هرتزل، وردده كثيراً قادة الصهيونية الآخرون، وعلى أساس من روحه العنصـــرية تنـــبع الروح الاستيطانية للصهيونية، التي تتسم بنفي حقوق، وثقافة الغير، ووجود الغير".

وقـــد ظلـــت هذه الأفكار(*) هي الدافع لكل الممارسات العنصرية ضد عرب فلســـطين، فـــإن أبرز التيارات التي عبرت عن هذه العنصرية الاستيطانية التي صاغها ومارســـها الصـــهيونيون الأوائـــل تمثلت في اقتحام الأرض / اقتحام العمل / اقتحام الحراســـة / اقتحام الإنتاج. وعلى هذا كانت إقامة المستوطنات تتم منذ البداية على أســـاس إحلال اليهود محل العرب. وكان العمل العبري على حد ما يذكره "افنيري" يعـــني بالضرورة لا عمل عربي، وأن صاحب المزرعة اليهودي الذي يستخدم عرباً في بستان، هو "خائن للقضية".

لقـــد اهتم موس هس بفضيحة دمشق كثيراً وتفاصيلها اختفاء راهب مسيحي عـــام ١٨٤٠ وتبين أن اليهود اختطفوه واستعملوا دمه في شرابهم الديني... وقد أيد تلك التهمة القنصل الفرنسي في سوريا، حيث كان كاثوليك الشرق يتمتعون بحماية دولته. وثار سكان دمشق استنكاراً للأمر، واهتز يهود العالم، وراحوا – كعادتهم – يدفعـــون الـــتهمة عن أنفسهم وينكروها، ويثيرون الرأي العالمي لإنقاذهم وقد بذل الـــيهودي "موش مونتفيوري" جهوداً ضخمة، وساعدته إنكلترا وفرنسا، فذهب إلى

(*) هادي طعمة، سبق ذكره، ص٧٧.

الأستانة واستحصل فرمان سلطاني بإطلاق سراح اليهود المعتقلين وعدم إلصاق التهمة باليهود.

ولقد اهتم موس هس كثيراً بهذه الفضيحة، نادى في كتابه "روما القدس" ببناء دولة لليهود بمساعدة فرنسا.

وتعطينا حياة وتطور أفكار "موس هس" نموذجاً للتحول من موقف الاندماجية إلى الصـــهيونية، فلقـــد تأثـــر في شبابه بالتيارات العلمانية القوية / السائدة في ألمانيا وقتذاك.

كـــان لموس هس آراء خاصة بالأعراق التي يجب أن تتميز بوظائف خاصة بها، ورســـالة حضارية أيضاً لا يمكن أن تكون تلك الوظيفة والرسالة لشعب أو عرق آخر في العالم وذلك من أجل التميز في الإنجاز والتفرد في التحقق.

وقد انتهى به إعجابه بنفسه(*) واتباع دينه إلى هذا التقرير العجيب،وهو أن أهم المقامـــات وأعلاها في الخطة الإلهية المرسومة التي يعتبر التاريخ تنفيذاً لها وكشفاً عنها، إنمـــا خصصت لأمتين / متضادتين: الإغريق واليهود. فالعالم في نظر الإغريق تنوّع / وتعدد، وفي نظر اليهود وحدة، الإغريق يفهمون الطبيعة والحياة (كوناً) متحققاً، قائماً بذاتـــه، والـــيهود يرون فيها "صيرورة" أي شيئاً يخلق على الدوام/ وقد بلغ الإغريق هدفهـــم في الحياة كالطبيعة التي يمثلونها، وانتهى دورهم، وتواروا بالتالي عن مسرح العالم، أما اليهود الذين يمثلون التاريخ، فلا يزالون في الوجود يكافحون من أجل بلوغ هدفهم، ليحققوا في إطار الحياة الاجتماعية "السبت التاريخي" أي الانسجام بين جميع القوى الاجتماعية.

(*) عبداللطيف شرارة، الصهيونية جريمة العصر الكبرى، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٤، ص٩٣.

١٣. إبادة للشعب الفلسطيني

وأمـــام هذا التصعيد الحاد جداً منذ النازية، وباختلاف واضح فرضته المتغيرات السياســـية وتمثل بالدعوة من أجل الحياة والعيش بعيداً عن الحروب، والعمل من أجل التآخي مع العرب / وخصوصاً الفلسطينيين. من أجل صياغة تاريخ جديد. هذا كلام مقـــبول، انطوى عليه الحوار الطويل لشمعون بيريز، لكنه في الداخل / العميق يقدم عكس ذلك، حيث الإبادة الجماعية ما زالت مستمرة وقصف مناطق السكن وباختيار دقيق واستعادة محاولاتهم السابقة في الاغتيالات، وهذا ما أكدته انتفاضة الأقصى.

وأمـــام تـــاريخهم الطويل في الإبادة / والمجازر، نجد بيريز يقف على الضد من ذلك، ويطلق تصريحاته لنفي الإبادة الجمعية للفلسطينيين. وعلى الرغم من ذلك ومع كـــل محاولاتـــه لتشويه الصور المعروفة عن العصابات الصهيونية – لم يستطع إخفاء الحقـــيقة الناصعة عن الذي حصل في "صبرا وشاتيلا" والذي نُفذ بعد اغتيال الرئيس اللبناني بشير الجميل في[*] ١٤ / ٩ / ١٩٨٢، حيث قامت القوات المسيحية بالثأر من ذلك بارتكاب مجزرة أدت إلى مقتل "٨٠٠" فلسطيني، بما فيهم النساء والأطفال. وقد

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، ص٩٠.

تبين فيما بعد أن قوات الكتائب مرت من خلال خطوط القوات الإسرائيلية لتصل إلى مخيمات الفلسطينيين، حتى أن الجنود الإسرائيليين كانوا متمركزين عل الأسطح العالية المطلـــة عـــلى المخيمين، وشاهدوا إطلاق النار، ولم يتدخلوا وقد قررت اللجنة التي شـــكلت فـــيما بعد للتحقيق بهذه الوحشية (لجنة كاهان) بأن شارون وزير الدفاع آنذاك، كان مسؤولاً بصورة شخصية عن عدم تدخله لوقف المجزرة.

ولأن الإبادة الجماعية في صبرا وشاتيلا لم تستطع إسرائيل إغماض عينيها عنها بسبب الموقف العالمي المتضامن مع الفلسطينيين واستنكار المجزرة، اضطر شمعون بيريز في حينها لتنظيم مظاهرة(*)، استنكاراً في محاولة منه للاحتجاج على الإبادة الجماعية، التي تعيد للأذهان مجازر النازية ويجب عليه استنكارها. ولهذا قال في جوابه: إنها كانت غلطة مأساوية.. وكنا غير مرتاحين تماماً عن العلاقة التي تطورت مع اللبنانيين.

ويؤكـــد روبـــرت ليتل بأن مجازر صبرا وشاتيلا ستظل جرحاً مفتوحاً بالنسبة لإســـرائيل. ويـــثير كـــلام روبرت وجواب شمعون بيرز في الذهن حواراً مع التاريخ والذاكـــرة. ومـــا حصل فيه من دمارات ومجازر وحشية، لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، اقترفـــتها العصـــابات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني وقد أشرنا لبعض منها، ماذا سيقول عنها بيريز في صحوة ما؟ وماذا سيقول عنها التاريخ؟ وكم هي المبالغ التي يجب أن تدفع لشعب فلسطين؟ ولكن هل بالإمكان بيع وطن لمحتل؟

هذه المجزرة الحاصلة في صبرا وشاتيلا، هي نموذج حديث لمجازر الإله اليهودي "يهوه" والذي أمر بتدمير المدن الكنعانية – وهذا ما سنحاول دراسته بالتفصيل لاحقاً – وهـــلاك أهلها. فلم هذا الخجل / والحياء اليهودي والذي تبدى في كلام شمعون بيريـــز. إن الذي حصل للفلسطينيين لن تنساه الذاكرة والتاريخ ولما يزل حيّاً بتفاصيله

(*) روبرت ليتل، سبق ذكره، ص٩١.

الدقيقة والشهود ما زالوا أحياء، فكم من المجازر حدثت منذ عام ١٩٤٨ وحتى انتفاضة الأقصى؟ إنما كثيرة جداً، وجداً ولا تخجل الشخصية اليهودية من تكرر المذابح / والمجازر، لأن عناصرها الشخصية صاغت الدماء ومشاهد القتل الجماعي والتي بلّورها وأكدها الإله اليهودي (يهوه) وجسدتها شخصية "يشوع بن نون" و لم يشعر اليهود بالخجل ويقظة الضمير أبداً، لأنهم لم يعرفوا ذلك منذ لحظة اجتياحهم لمدينة أريحا بقيادة يشوع الدموي. والذي منحه الرب اليهودي تفويضاً بالاجتياح والنجاح وإفناء الكنعانيين بالكامل.

احرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.

العدد: ١٣

اقتلوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار.

تثنية: ١٢

اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة.

العدد: ٣١٢

حين تقترب من مدينة، استدعها للصلح، فإن أجابتك، كل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معكم حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كلها غنيمة تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً.

تثنية: ٢٠

لقد تناسى – شمعون بيريز المجازر التي ارتكبوها عبر التاريخ، ومنذ ١٩٤٨ وإلى الآن، ومنذ مجزرة دير ياسين مثلاً و لم يتذكر غير صبرا وشاتيلا.. هل الفترة الزمنية هي

السبب؟ والعمق التاريخي للمجازر الأولى ومضي فترة طويلة جداً؟ ولكن كيف استطاع شمعون بيريز تذكر المجزرة التي حدثت في بلدته – فيشنيفا – أثناء الحرب العالمية الثانية؟

إن استذكاره لمجزرة بلدته، مرتبط بالحرب العالمية الثانية، مثلما لها صلة بالمجازر النازية التي ارتكبت ضد اليهود، مجازر بشعة لا يمكن للإنسانية نسيانها، ولكن يجب أن لا تكون على حساب شعب آخر، هو الشعب الفلسطيني.

إن ذاكرة بيريز، يقظة وقادرة على التقاط أدق التفاصيل عن المجزرة، لأنها تعنيه هو، وتجسد مأساة اليهودي وملاحقته أكثر مما تعنيه قضية شعب، لم يعترف به من قبل، هو وقادة المنظمات الصهيونية حيث لم يكن هناك شعب فلسطيني، اليهود هم الأسبق إلى "الأرض المقدسة" لأن الذاكرة، كانت أرضهم منذ ألفي سنة كما قال بيريز ولهاذ كان وصفه مأساوياً لمجزرة بلدته التي هي موطن تاريخه ومكان عقيدته، لذا كان وصفه للمكان دقيقاً ومؤثراً:

"لقد أعدموا كل ما تبق من السكان اليهود. وضعوهم في كنيس يهودي، وكان جدي على رأسهم، وأحرقوهم أحياء، ومن ثم أحرقوا البلدة برمتها. لم يبقوا على شيء. وعندما زرت "فيشنيفا" لم يبق هنا شيء ما سوى أكوام من الحجارة، والتي تشير إلى وجود قبر جماعي للسكان اليهود الذي أُحرقوا حتى الموت في الكنيس.. عدت إلى المكان الذي ولدت ونشأت فيه.. عدت إلى هناك لمحاولة أن أجد شيئاً.. أعني، لم يكن هناك بيت واحد من البيوت القديمة التي كانت موجودة عندما غادرت البلدة. لقد بنوا بعض البيوت الجديدة في مكانها؟ أخيراً وجدت المكان، لأنني تذكرت أنه كان يوجد داخل بيتنا نافورة ماء لذلك ذهبت إلى هناك وأخذت وعاء وتذوقت

المـــاء، كان ذلك الشيء الوحيد الذي ذكرني بطفولتي. لم تتغير نكهة الماء عما كانت عليه، وما عدا ذلك، لم يكن شيء آخر من القديم".

هذه تراجيديا ظلت كامنة في ذاكرة بيريز منذ الطفولة واستعادها حية بالكامل، وحـــافظ على ما له وظيفة سياسية في الحاضر، وله علاقة وثيقة جداً بالهلوكوست، الذي لا يقوى أي يهودي للبقاء بدونه أو التقليل من أهميته التاريخية.

ولا يســـتطيع اليهودي بقاءً بدون ضجة الهولوكوست ودعايتها، لأنها توفر له الأمـــان والابتزاز والعطف وهذا ما يرنو إليه ويسعى الإبقاء عليه حتى الأبد. والسؤال مـــاذا لـــو استطاعت الذاكرة "البريزية" استعادة القليل جداً من المجازر التي تعرض لها الشعب الفلسطيني دفاعاً عن تاريخه وأرضه وتراثه الممتد منذ ٤٠٠٠ سنة ق.م إنه لا يقوى على ذلك. لأن التاريخ ماثل إلى الآن. و لم تستطع كل الجهود اليهودية لنوصول إلى علامة واحدة ولو بسيطة جداً، تؤكد وجودهم القديم في فلسطين.

لذا لم يعثر(*) ولا على كتابة واحدة في فلسطين من شأنها أن تدل على وجود مملكـــة عبرية لليهود هناك كما قال الأستاذ هـــ. د. دونت / في كتابه: مركز المدينة القديمة.

وموقف الشخصيات اليهودية المعروفة في إنكار وجود فسطين بمعزل عن وعد الإلـــه اليهودي (يهوه) يمثل امتداداً لموقف غربي قديم، فليس هناك أي معنى جوهري لفلسطين بحد ذاتها، بل إنها تستعمل فقط لكونها الخلفية الأساسية لفهم التطور الديني الذي هو أساس الحضارة الغربية. في هذا السياق، لا تملك فلسطين تاريخاً خاصاً بها، وأن تاريخهـــا هو تاريخ إسرائيل الذي هو تاريخ الغرب. وهذا الغياب للتاريخ تتوافق

(*) كيـــت وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ت: د. سحر الهنيدي، م: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩، أيلول ١٩٩٩، ص٨٦.

معـــه فكرة غياب السكان من هذه الأرض. أما فلسطين فهي مجرد معرض للمقتنيات الدينية النادرة، أو ما يطلق عليه "سميث" متحف لتاريخ الكنيسة.

وتعكس نظرة "سميث" للحضارة الأوروبية رؤيته بأن الثقافة والتاريخ الخاصين بالشـــعوب الأصـــلية لا يتمـــتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي، وهو يرى أن الأرض ملـــك شرعي للقوى الغربية إذا ما قررت ذلك: ومقياس التفوق هنا هو القوة العسكرية.

إن روايـــة "سميـــث" هذه تعبير(*) استشراقي آخر في مفهوم أوروبا لذاتها، وفي وصفه للتطور الديني للساميين وعزل الجزيرة العربية، يصرح بما يلي:

مواهبهم الوحيدة هي في الحرب وفن الكلام – وهذه الأخيرة تم صقلها بشكل متميز بسبب الطبيعة الساكنة (الصحراء) وأوقات الفراغ الطويلة فيه. إنه الجو الملائم لـــترعرع العـــرافين والشهداء والمتعصبين: تصوروا شعباً تعرض لهذه المؤثرات لآلاف السنين! أعطوا هذا الشعب عقيدة، ومن المؤكد أنه سيكون مخلصاً يؤمن بالرسل.

(*) كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، سبق ذكره، ص٨٧.

١٤. إسكات التاريخ الفلسطيني

مـــن المهـــم أن لا ننسى(*) أن نبين الآصرة الملتحمة بشدة في الوعي اليهودي المعاصر، بين الهولوكوست وتأسيس إسرائيل جنة لليهود. كما لم يتم أبداً التصريح عن أن هـــذه الآصـــرة تعني طرد الفلسطينيين من منازلهم وحقولهم، على الرغم من أنها عمقت لدى الفلسطينيين الشعور بالأسى من مأزقهم. فهم يتساءلون لماذا كُتب علينا أن ندفـــع ثمن ما حدث لليهود في أوروبا بفعل الإبادة المسيحية الغربية؟ لم ينبثق هذا الســـؤال أبـــداً من الجدل الدائر داخل ألمانيا أو بخصوصها، حتى وإن كان مندرجاً، بالضـــرورة، تحـــت حقـــائق معيـــنة مثل المبالغ الهائلة التي تدفعها ألمانيا إلى إسرائيل لتعويضات عن الهولوكوست.

ويقود المفكر إدوارد سعيد القارئ إلى منطقة الأسطورة التي أشار لها – قبلاً – روجـــيه جـــارودي، أسطورة المجازر وماذا قدمت لليهود من وطن مغتصب، كانوا يحلمون به ولولا الهولوكوست لما كان هناك وطن، هو الوعد الإلهي الذي منحه الإله

(*) إدوارد سعيد، الاحتلاق والذاكرة والمكان، ت: حالدة حامد، البحث عن مستور، وسأكتفي بالإشارة للمؤلف فقط.

الـــيهودي، يؤكد سعيد على أن(*) الاختلاق مرتبط مع الجغرافية والذاكرة، بمعنى أن الاختلاق يحدث حتماً حيثما وجد تذكر — له صلة خاصة بمثال القرن العشرين أي: فلسطين التي تمثل نزاعاً، خصباً ومشدوداً على نحو غير مألوف، بين ذاكرتين... نوعين من الاختلاق التاريخي... نوعين من الخيال الجغرافي...

ســأحاول تقريــب بعــض الأحداث التي لها صلة ببعض(**). فالفلسطينيون يــتذكرون عــام ١٩٤٨ بوصفه عام النكبة حينما تم إقصاء ٧٥٠,٠٠٠ شخص منا كــانوا يعيشــون هــناك — يمثلون ثلثي السكان — وسلب الممتلكات وتدمير مئات القــرى.. أي محو مجتمع بأسره. بينما ينظر الإسرائيليون والكثير من اليهود في أرجاء العالم إلى عام ١٩٩٨ بوصفه الذكرى الخمسين لاستقلال إسرائيل وتأسيسها. والقصة الإعجازيــة للعــودة بعد الهولوكست والديمقراطية، وزرع الصحراء، وسوى ذلك. وهكــذا تم إيجــاد تسميتين مختلفتين تماماً لحدث مُتَذَكر. إلا أن ما أثار دهشتي كثيراً بشأن هذا التناقض الجذري في أصل النــزاع الفلسطيني / الإسرائيلي هو أنه مستبعد عــادة مــن الموضوعات التي تخص الذاكرة العرقية أو الجمعية، والتحليل الاجتماعي، والــتأمل السياسي. ويتجلى ذلك في أقصى أشكاله في دراسات النكبة الألمانية، فضلاً عــن النــزاعات العرقية في يوغسلافيا السابقة وروانداوإيرلنده وسيريلانكا وجنوب أفريقيا وأماكن أخرى.

وأشــار إدوارد سعيد لمتابعته الدقيقة واهتمامه بــ"اختلاق إسرائيل القديمة — إســكات الــتاريخ الفلســطيني(***) — واهتمامه بسياسة الذاكرة الجمعية أولاً وقيام

(*) إدوار سعيد، الاختلاق والذاكرة والمكان، سبق ذكره.

(**) إدوار سعيد، سبق ذكره.

(***) كيــث وايــتلام، اختلاق إسرائيل القديمة،/ ت: د. سحر الهنيدي، م: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩، ١٩٩٩.

الدارســين والمؤرخين الصهاينة بابتداع صورة جغرافية لإسرائيل القديمة ثانياً. وهذا الجهد البحثي، أضاء عدداً من الجوانب التي تضافرت معاً مع اهتمامات المفكر إدوارد ســعيد بالمكــان وعلاقة ذلك بالذاكرة وما تعنيه من تراكم زمني وأحداث متتالية، شكلت عبر السنوات الطويلة مجالاً متعدداً في مختلف الجوانب السياسية / الاجتماعية / الدينية / الاقتصادية.

ومــا يلفت الانتباه في جهود المؤرخ الاسكتلندي للشرق الأدنى القديم / كيث وايتلام / هو سعيه لإنصاف الذاكرة التي أغفلت التاريخ الفلسطيني. وسعت عبر كل الســبل والوســائل من أجل إسكات التاريخ الفلسطيني. ولذا فإنه تمتع بوعي العالم المنصف والذي لم يخف كشف الحقيقة والإعلان عن تاريخ فلسطين، المتمتع بجغرافية محــددة ومعروفة وسعى من أجل – أيضاً – إيضاح حجم الهجوم الذي تعرضت له الذاكــرة الفلسطينية، والجهود الصهيونية المبذولة من أجل إعادة بناء تاريخ يهودي، حتى يتلاءم وأهداف الحركة الصهيونية بوصفها حركة سياسية. ويؤكد "وايتلام"(*) إن استعمال كلمة فلسطين أو عبارة التاريخ الفلسطيني في المجال الأكاديمي لابد وأن يكون مثيراً للجدل. ولذلك يقول إدوارد سعيد إنه "لا يوجد حياد، لا يمكن أن يكون هناك حــياد وموضوعية فيما يتعلق بفلسطين" ويدّعي خطاب الدراسات التوراتية في إعادة تكوين ماض يؤثر في المواقف الإيجابية أو السلبية التي تتخذ الحاضر. أنه يظل خارج أو فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة. ويصبح الأمر جلياً إذا ما تمت المقارنة بين الــتاريخ المحلي لفلسطين القديمة، وبين التواريخ التوراتية. أو على الأصح إذا ما وضع كل من التاريخين في منافسة الآخر.

(*) كيث ويتلام، سبق ذكره، ص٨٣.

خطاب الدراسات التوراتية، يعلن أنه قد بقي بعيداً عن الوضع السياسي الحالي، بينما استمر في إنكار المكان والزمان على الفلسطينيين مهما طالبوا بحقهم في الماضي. وهـــذا الخطاب التوراتي قد أعطى الزمان – وبخاصة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصـــر الحديـــدي – وكذلـــك المكـــان الجغرافي، لإسرائيل فقط. أما الكنعانيون والفلســـطينيون أو أي فئة محلية أخرى من سكان البلاد الأصليين، فيمكن لها، حسب الخطـــاب التوراتي، أن تعيش في هذا المكان والزمان ولكن حسب الشروط التي تمليها إسرائيل فقط.

وإذا حـــاول الدارس متابعة(*) وفود العناصر السامية تاريخياً على أساس الأدلة الأثرية والنصية، ليمكن القول بأنه خلال عصور ما قبل الأسرات، وفدت مجموعات من تلك العناصر السامية إلى فلسطين، وكما سبقت الإشارة، يلاحظ تواجد العمائر المحصـــنة في تلـــك الفـــترة كـــنوع من الحماية من لدن تلك المجتمعات السامية تجاه المجموعـــات السامية الجديدة الوافدة عليها. وعلى الرغم من كون التسمية الكنعانية أقـــرب عـــلى الشمول بالنسبة لكافة العناصر السامية، فإن الرأي يتجه إلى قصر تلك التسمية الكنعانية على العناصر السامية في سوريا / ولبنان / وفلسطين بصفة خاصة في الألف الثاني ق.م أي خلال المرحلة المسماة حضارياً بعصر البرونز الأوسط.

ولابد من الاستعانة بالزمن التاريخي الذي أقرته الدراسات التاريخية / الحضارية، حتى تتضح لنا الخارطة الحضارية في سوريا / لبنان / وفلسطين(**).

■ ٢١٦٠ – ١٩٩١ ق.م عصر البرونز الأوسط (١)

(*) د. رشـــيد الناصوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، التطور التاريخي للفكر الديني ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩، ص١٣١.

(**) د. رشيد الناضوري، سبق ذكره، ص١٣٢.

وهي مرحلة حضارية وبشرية.

- ١٩٩١ – ١٧٨٦ ق.م

١٧٨٦ – ١٥٥٠ ق.م عصر البرونز الأوسط (٢). أ

- عصر البرونز الأوسط (٢) ب / جـ

الهكسوس

- عصر البرونز الأخير

١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق.م

الكنعانيون والتوسعات المصرية / والحثية / ودولة ميتاني

"الحوريون – والسوبريون"

الفلسطينيون وبني إسرائيل – الآراميون

- عصر الحديد الأول

- ١٢٠٠ – ٩٣٠ ق.م

ومن الناحية الأثرية يلاحظ وجود فجوة حضارية بين عصر بداية البرونز وعصر البرونز / الأوسط وتمتد من حوالي ٢٣٠٠ — ١٩٠٠ ق.م وتتميز بعمارها الخاصة. هذا الإيضاح العلمي، يساعدنا على إضاءة التاريخ وعلاقته بالجغرافيا. فإن تاريخ إسرائيل مرتبط عضوياً بالأرض ذاها، أو بالأحرى الأراضي التي حدث فيها التاريخ. وهذا هو بالفعل ما حدث مع شعب إسرائيل في العهد القديم. وبإمكاننا أن نرى بدايات إسرائيل الأولية في شمال سوريا والعراق القديمة من جهة، وفي شمال غرب مصر من جهة أخرى، قبل أن تجد إسرائيل وطناً في فلسطين "أرض الميعاد".

لقد استولى(*) الفلسطينيون على الساحل السوري الجنوبي والذي سمي باسمهم (فلسطين) وكان يمتد من غزة إلى جنوبي يافا ومن المدن المشهورة الأخرى التي أخذوها في هذا القسم من الساحل السوري (عسقلان) وأشدود وعقرون و"جت". وكانت الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين إلى الشمال. وكانت مدن الفلسطينيين الخمس المشهورة تؤلف دول مدن، كل منها تحت زعيم وتؤلف جميعاً فيما بينها اتحاداً، وكانت "أشدود" أشهر هذه المدن(**) التي حازت على الزعامة واتحاد دول المدن. وقد بلغ هؤلاء الفلسطينيون في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق.م أوج قوهم وأوقعوا في حدود "١٠٥٠" ق.م في العبرانيين هزائم شديدة، حتى أنهم استولوا على تابوت العهد المشهور وأخذوه إلا أشدود، وظلت اليد العليا لهم على العبرانيين إلى زمن حكم أول ملك على العبرانيين وهو شاؤل (١٠٢٠ — ١٠٠٤ ق.م) ومن العوامل المهمة التي مكنت الفلسطينيين على العبران أسلحتهم المصنوعة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه، وصنعوا منه الدروع والأسلحة الماضية. و لم يتعلم العبران

(*) كيث وايتلام.. سبق ذكره، ص٩٠.

(**) طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٥٦، ص٢٨٧.

صـــناعة الحديــــد إلا في عهــــد داود (٩٦٠ ق.م) وتمكن هذا الملك من الغلبة على الفلسطينيين وإخضاعهم.

ومن آثار عهد الفلسطينيين التي وجدت في(*) التنقيبات الأثرية صناعة نوع من الفخـــار يشبه الصناعة المينية (الإيجية) وهذا من جملة الأدلة على أن أصلهم من جزر إيجة.

وتدل أسماء كثيرة في المواضع في فلسطين / ولبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هـــذا الجزء من البلاد، حيث تشير أسماء مثل هذه المدن إلى أصلها الكنعاني. ومن الأمثلة على ذلك مدينة "أريحا" التي تعني "بريحو" مدينة القمر". ومدينة "بيسان" "بيت – شان" أي بيت الإله شان" و"مجدو أو مجدون" وقد أبانت التحريات الأثرية أن هذه المدن، أسست في منتصف الألف الثالث ق.م. وهناك أسماء مدن سامية يرجح أصلها الكنعاني وردت في النقوش مثل عكا / صور / صيدا / وجبيل.

وأشار الأستاذ أحمد سوسة(**) إلى أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذين استقروا في أرض فلســـطين وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة... وترجع الحضارة الكنعانية إلى صور موغلة في القدم. فمنذ العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليثي (٧٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق.م) بــــدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن. فكان الكنعانـــيون أول مـــن اكتشـــف النحاس الطري، ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصـــدير في إنـــتاج البرونز، وبذلك كانوا السبّاقين في استخدام صناعة التعدين مما أعطى تلك الشعوب أدوات وأسلحة فتاكة. وقد اصبح استعمال البرنز شائعاً في المدن

(*) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات، سبق ذكره، ص٢٤١.

(**) أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص١١٢.

الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة ق.م وبدأت تستعمل الحديد منذ أواخر الألف الثانية ق.م.

وأشار سوسة أيضاً: وقد تبين التقدم الذي وصلته بلاد كنعان في قوائم الغنائم التي أخذها الفراعنة عند غزواهم للشرق. ومن بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجلها "تحوتمس الثالث" أحد فراعنة السلالة الثامنة عشرة " ١٥٠٤ – ١٤٥٠ ق.م" عربات مطعمة بالذهب وأوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة وسرائر من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأنواع من الكؤوس والآنية والسيوف وتماثيل من الذهب ومن خشب الأبنوس.

هذه المعلومات التاريخية، تسلط ضوءاً ساطعاً على التقدم الذي وصلته بلاد كنعان من تطور وتقدم، وتدحض هذه المعلومات آراء الخطاب التوراتي، التي حاولت وبكل السبل إلغاء الدور الحضاري للكنعانيين والفلسطينيين. من أجل تبرير الهجرة اليهودية إلى فلسطين(*) وإنشاء دولة إسرائيل. وتصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها "فارغة" وهذا الرأي له ما يوازيه في العلوم التوراتية في تكوينها للماضي، الذي يتجاهل وجود شعوب محلية في مراحل عديدة من التاريخ. ومرة أخرى فإن وضع إسرائيل "الفريد" هو الذي يسمح لها بتجاوز هذه الأوضاع الشاذة. "فالتاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ إسرائيل".

وقد ركزت الدراسات التوراتية على أن "إسرائيل القديمة" هي جزء من الشرق وبهذا تحولت إلى جزء من حضارة الشرق وبدون أن يكون لها دور وحتى وجود قديم. وقد تصدى المفكر إدوارد سعيد لتلك الأطروحات، ونزع عنها قشرتها الكاذبة، وكشف مضامينها الإيديولوجية.

(*) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص٩١.

إن رفض الدراسات التوراتية(*) استعمال صفة واحدة لنعت سكان المنطقة هو إذن إنكـــار للوجود وللتاريخ الفلسطيني. ولهذا فإن فلسطين توصف على أنها منطقة صـــغيرة وفقيرة ومعزولة – وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية. ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين مرموقة فقط بالوجود التاريخي لإسرائيل فيها، وعلى هذا فإن الدراســـات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم. ولهذا مقابل سياسي معاصر متمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ أو تجريده من هذا التاريخ. وهكذا نرى أن الخطاب الـــتوراتي يجعـــل الفلسطينيين شعباً غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود. هذا الافتراض المتأصل في أعمال(**) بعض دارسي التوراة، وبخاصة الألمان والأمريكان، كان لـــه تأثير قوي في أعمال التنقيب عن الآثار خلال هذا القرن.. الافتراض الشائع الذي مفـــاده أنّ فلسطين لم تكن مهمة في ذاتها بل لأسباب أخرى متصلة بالتوراة... وبهذا تصـــبح فلســـطين "الأرض المقدســـة" وتاريخها وتضاريسها لا قيمة لها في ذاتها، ولا تكتســـب قيمـــتها إلا بقدر ما هي مهمة لفهم التوراة. تلك النظريات المسيطرة على الدراســـات التوراتـــية في الغرب بحيث يصبح التاريخ الفلسطيني غير موجود. وتاريخ المـــنطقة ذاتها يصبح تاريخ إسرائيل القديمة، كما صورته صيغ التراث التوراتي. وهناك فريق آخر يعترف بأن تاريخ المنطقة مهم لفهم جذور الحضارات القديمة، وليس فقط لتفســـير الـــتوراة ويضـــيف كيث وايتلام محذراً: ولكن علينا أن نتأكد من أن كلمة "حضارة" هي اختصار لكلمة "الغرب" هذا الغرب الذي هو وريث الحضارة اليهودية / المسيحية.

(*) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص٩٣.

(**) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص٩٣.

ويعلق الأستاذ إدوارد سعيد على محاولات بعض الآثاريين الغربيين الذين أشاروا إلى سكان فلسطين الأصليين في أواخر العصر البرونزي سمة مقبولة ودائمية، شيئاً فشيئاً، "لتاريخ اليهود المزهو بالنصر"، كما يراه "دبيلو ف. أولبرايت / المؤرخ البارز لفلسطين القديمة خلال القرن العشرين، كما أنه جعل بالإمكان إخراس التاريخ الفلسطيني الأصلي عندما تم استئصاله ليحل محله تاريخ الإسرائيليين الوافدين. ويرجع أولبرايت بذاكرته إلى الوراء بعيداً إلى الحد الذي تم فيه التغاضي عن تدمير السكان الأصليين لفلسطين القديمة لصالح الشعب الأسمى، إذ يقول: انطلاقاً من المنظور النزيه المحايد لفيلسوف التاريخ، غالباً ما تبدو ضرورة أن يتلاشى شعب من نوع متدنٍ للغاية (الكنعانيون / الفلسطينيون القدماء) ليفسح المجال لشعب ذي إمكانات أسمى (الإسرائيليون) طالما أن هناك موضع لا يمكن للامتزاج العنصري تخطيه من دون حصول كوارث.

ويضيف الأستاذ إدوارد سعيد قائلاً: وفي تعبيره الذي تتجلى فيه المواقف العنصرية، يبدو هذا التصريح الصادر عن دارس يُفتَرض أنه موضوعي، صار بالمصادفة الشخصية الأكثر تأثيراً في الأركيولوجيا التوراتية الحديثة، تصريحا رهيبا، إلا أنه يوحي بالكيفية التي عملت فيها الصهيونية الحديثة ، ضمن رغبتها بتخطي العقبات التي في طريقها حتى إلى الحد الذي تتغاضى فيه عن تذكر التشريد والإبادة. ويلمح سعيد إلى آراء الباحث كيث وايتلام ومناقشته لآراء الكثير من الباحثين الذين أكدوا في كتاباتهم على "الدولة الكبرى والقوية / المستديمة، والتي تعزى إلى مؤسسها داود. وينقل إدوارد سعيد بعضاً من تعليقات كيث وايتلام عن هذه الدولة، التي هي في حقيقة الأمر محض اختلاق تم تصميمه ليصاحب المحاولة الصهيونية في القرن العشرين من أجل السيطرة على أرض فلسطين.

"ولقـــد تم بفعالـــية إنكار تاريخ فلسطين القديم وزمانها الخاص. بل إنه أصبح موضوعاً لطغيان الزمان التوراتي".

مراجـــع الباب الثالث

١. نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.

٢. د. القـــس عبدالمسـيح اسطفانوس، تقديم الكتاب المقدس للقارئ العربي، دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٤.

٣. جـــودت الســـعد، أوهام التاريخ اليهودي، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨.

٤. أدولـــف أرمـــان، ديانة مصر القديمة، ت: د. عبدالمنعم أبو بكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

٥. احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٠.

٦. روبـــرت ليـــتل، مستقبل إسرائيل، حوارات مع شمعون بيريز، ت: محمد نجار، تقديم: ناجح المعموري، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان: ٢٠٠٠.

٧. يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، دراسة علمية لفضح أكاذيب الصهيونية، ت: د. جواد بشارة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٥.

٨. روجـــيه جارودي، الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية، ت: محمد هشام، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨.

٩. د. محمـــد أبو سعد، الهجرة وعنصرية القوانين الإسرائيلية، ضمن كتاب: الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، سلسلة الندوات رقم (٤).

منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، رابطة الكتب الأردنيين، عمان، ١٩٩١.

١٠. وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة السياسية (٥) فلسطين والغزو التتري الجديد، ١٩٦٤.

١١. إســحق ويتشــر، الـــيهودي اللايهودي، ت: ماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١.

١٢. عبداللطيف شرارة، الصهيونية جريمة العصر الكبرى، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٤.

١٣. جـــودت السعد، الشخصية اليهودية عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

١٤. يوري إيفانوف، إحذروا الصهيونية، وكالة نوفوستي السوفيتية، ١٩٦٨.

١٥. كيـــث وايـــتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ت: د. سحر الهنيدي، م: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩، إيلول، ١٩٩٩.

١٦. د.، رشـــيد الناضـــوري، المدخـــل في التحليل الموضوعي للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية، بيرو، ١٩٦٩.

١٧. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٥٦.

١٨. أحمـــد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.

19. Weech Civilization of Near East PP. 84, 88.

الصحف والمجلات:

١. غازي السعودي، المحرقة النازية، الأسطورة التي تحولت إلى منجم ذهب، جريدة الرأي الأردنية – يوم ٥/٤/٢٠٠٠.

٢. د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)/، ١٩٧٦.

٣. د. محمد توفيق حسين، أرنولد توينبي والصهيونية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٦.

٤. بديعة أمين، الحركة الصهيونية، أهي حركة قومية تعبّر عن إيديولوجية البرجوازية اليهودية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٥.

٥. روجيه جارودي، الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية، آفاق عربية، العدد (٥)، ١٩٧٧.

٦. نعمان كنفاني، الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل مؤتمر بازل – ١٨٩٧ آفاق عربية، العدد (٣)، ١٩٧٥.برنارد وسرستاين، بريطاني ويهود أوروبا ١٩٣٩ – ١٩٤٥، ت: ناجي الحيدثي، آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.

٧. سـعيد حمو، استراتيجية الكيان الصهيوني وكيف يجب مقاومتها، آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.

٨. دور الغـرب الاستعماري في خلق القاعدة التكنولوجية العسكرية داخل الكيان الصهيوني، مركز الدراسات في آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩.

فهرس الأشكال والصور

الشكـــــل	الصفحة

صدر للمؤلف

١. أغنية في قاع ضيق – قصص – ١٩٦٩.

٢. الشمس في الجهة اليسرى – قصص مشركة – بغداد.

٣. النهر – رواية – وزارة الثقافة / بغداد.

٤. موسى وأساطير الشرق – الدار الأهلية – عمان ٢٠٠١.

٥. الأسطورة والتوراة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٢.

٦. التوراة وطقوس الجنس المقدس – دار الأهالي – دمشق ٢٠٠٢.

٧. أقنعة التوراة – الدار الأهلية – عمان ٢٠٠٢.

التوراة السياسيّ

السلطة اليهوديّة: أنساقها ووظائفها

إن دراستي للأسفار التوراتية ومحاولة الكشف عن الجانب السياسي فيها يمثل بالنسبة لي مشروعاً معرفياً مهماً وسيظل مستقبلياً. والمجال السياسي، الذي تعنيه دراستي متسع جداً، ويبدأ في النصوص العراقية/والجزرية الأخرى وذوبانها في الأسفار التوراتية. لأن القصدية، واضحة في تذويب العناصر الدينية/والآلهة والعقائد/والطقوس. من أجل الشطب على الشخصية الجزرية، التي أنتجت هذا الكم الهائل من النصوص، ورسخت الكثير من العقائد، ودفعت بها إلى الديانات والحضارات الكثيرة في الشرق والعالم، لأن البنية الذهنية الجزرية وعبر تشكلاتها البنيوية العديدة، ما كانت في يوم من الأيام منغلقة وإنما منفتحة على الحضارات والجهد الديني، وتحاورت معه، أعطته، وأخذت منه، لكن لا يمكن لأي باحث ودارس أن يتناسى الجهد المؤسّس والجذور الأولى.

لكننا لاحظنا العمدية التوراتية في التلاعب بالتراث المصري/السوري/العراقي وإعادة صياغته، وبما يوحي بخاصته وقطيعته مع الأصول في الشرق. ومع كل الذي مارسه الكهان ورجال الدين/والكتبة من محاولات طمس للمعالم والأصول. ظلت النصوص تومىء لمنبعها وتؤشر إلى المكان الذي صاغها وأسسها.

ولهذا، طال انشغالي بالنصوص التوراتية، وسيظل أيضاً. على الرغم من المواجهات السلفية التي أثارت عدداً من الاتهامات ضدي، أثناء تقديم محاضراتي عن المشروع التوراتي. المشروع الذي تبلور في عملي الدراسي، بعد الاهتمام العميق بالحضارة العراقية والنصوص الأسطورية، وحصراً مشروعي الثقافي/المعرفي «المسكوت عنه في ملحمة جلجامش»، وكان وسيظل اهتمامي بالتوراة اهتماماً لا يتجاوز كونها مجموعة من النصوص الأدبية الأسطورية، لا تختلف عن غيرها من النصوص التي خضعت للدراسة والبحث. بعيداً، وبعيداً، عن كونها مقدسة.



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان/وسط البلد
خلف مطعم القدس/ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ● منشوراتنا في العام ٢٠٠٢م
● الغلاف: زهير أبو شايب.